

كيف نصنع
المستقبل؟

هذا الكتاب ترجمة لـ :

Roger Garaudy
L'avenir: Mode d'emploi
Paris: ed. Vent du large 1998

الطبعة الأولى ١٩٩٩ - هـ ١٤٢٠

الطبعة الثانية ٢٠٠١ - هـ ١٤٢١

الطبعة الثالثة ٢٠٠٢ - هـ ١٤٢٣

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة: ٨ شارع سببويه المصرى

-رابعة العدوية - مدينة نصر

ص . ب : ٣٣ البانوراما

تلفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤

هاتف : ٨١٧٢١٣ - ٣١٥٨٥٩

فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

روچيه جارودي

كيف نصنع
المستقبل؟

ترجمة وتقديم
د. مني طلبة د. أنور مغيث

دار الشروق

مقدمة

حين استضافت مصر روجيه جارودى بمناسبة صدور كتابه «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» فى منتصف التسعينيات؛ ليحاضر فى مكتبة القاهرة الكبرى، استلفت انتباها ما لدى الرجل من عزم، يتتجاوز تقدم العمر إلى الفناء، كما يتتجاوز رفاهية استرخاء الساكتين عن الحق، ويسأى المناضلين من جدوى الكفاح، وثقة المثاليين في كمال لا يجوز بعده إبداع.

وجدنا في هذا الكتاب «كيف نصنع المستقبل» إصراراً منه على استكمال مشروع الأمل، وشاهدنا على صلابته وشجاعته وعزمه على المضي نحو النور، ومكملاً لفلسفة العمل والروح التي تتصر لها كتاباته.

ذلك أن فلسفة جارودى لا تخضع - وعلى الرغم من تكاثر أصوات المعارضين أو المؤيدين له - للتصنيفات الجاهزة، فجارودى لم يتخل عن الماركسية كفلسفة للعدالة الاجتماعية، كما لم يتخل عن الحب والزهد في المسيحية، ولم يتخل عن الإسلام كدين يميزه أنه مؤسس على الاعتراف بكل الأديان والكتب والرسل، وعلى استيعاب الإنسان أيًا كان موقعه الثقافي بقدر ما هو ضمير يرقى، وتقوى تتواضع.

وقد بدا المزاج بين هذه المناحي غريباً على الكثيرين من لا يروقهم فهم جوهر الدين في إطار العدالة والمحبة، أو فهم العدالة في إطارها الروحاني. وكان جارودى مُصرًا على أنه لا يلفق ولا

يتزعزع، وإنما يبشر بإمكان عالم جديد لا تنفصل فيه العدالة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية عن تقوى الله، ولا يتضاد فيه «وعي الأنا» مع «الوعي بالأخر».

كان إيمانه بالعدالة الاجتماعية عميقاً إلى الحد الذي شكك فيه في جدواى الأنظمة الشمولية الدكتاتورية الطاغية، وجدواى الأنظمة الرأسمالية المتوحشة الأنانية. وكان إيمانه بالله عميقاً إلى الحد الذي استحقى معه أن يهزأ بأى محاولة إنسانية للتعالى، أيا كان اسم الدين الذى تتسبّب إليه. وسلك جارودى فى سبيل غايته هذه منهجاً يجمع بين النقد والمبادرة، نقد الأوضاع الزائفة والمبادرة إلى مهام جديدة بديلة. وهو لا يتوانى عن نقد الغرب الأمريكى فى هيمنته البشعة على العالم والتى تقود الكوكب كله إلى الهلاك، وانتقد ما اعتبرى المسيحية من مسحة متسلطة رومانية، كما لم يغفل نقداً للمسلمين - فى أعماله - فى تطرفهم المستكين للماضى، وتقاعسهم عن النفاذ إلى الكنوز الروحية والعلمية العميقية لحضارتهم، واستعادتهم المكررة للظواهر، دون تحقيق أو مراجعة.

في هذا الكتاب نجد أنفسنا أمام كشف حساب عسير للحضارة المعاصرة: إحصاءات موثوق بها عن أسلحة الدمار وأعداد الجموعى والمهمشين صرعي الرفاهية المزعومة. وربما اطلع القارئ على هذه الإحصاءات من ذى قبل بصورة متفرقة فى دراسات اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية، ولكن جارودى يقدمها لنا دفعة واحدة لتنهاى على القارئ كوابيل من القنابل؛ وذلك لكي يقاوم نزعته فى التماس الأعذار، أو فى الميل لحسابها مجرد مظاهر سلبية لسياق إيجابى؛ فينجح المؤلف بالتالى فى إثارة الاستياء، بل تفجير الغضب.

إن النظرة الكلية الشاملة هي الكفيلة بالكشف عن حقيقة الواقع الذي نعيشه. ولا تأتى الإحصاءات هنا تكريساً لنزعه وضعية ترى في الأرقام حقيقة الموقف الإنساني، وإنما تبدو هذه الأرقام عند جارودي كآلستة من لهب شاهدة على الجحيم الذي ألقى الإنسان بنفسه فيه.

ولا يتهم جارودي هنا حماقة البشر أو الرذيلة المتأصلة فيهم، بل يبحث عن الأصل الذي أنتج هذا الوضع الوخيم، فينتقل من عرض الإحصاءات إلى تقديم قراءة مبدعة لتاريخ الثقافات الإنسانية، ويرى أصل البلاء في الثقافة الغربية التي قامت على أساس من الشعور بالتفوق العنصري واستبعاد الآخر. ويرسم خططاً رابطاً بين أسطورة «الشعب المختار» في الثقافة اليهودية وتفوق العرق اليوناني في الثقافة اليونانية القديمة، وبين الهيمنة الأمريكية المعاصرة. ويرى جارودي في قراءته هذه أن المشروع العنصري النازي الذي يقوم على سيادة الجنس الآرى على باقي الأجناس، لم يتم التخلص منه، بل يجري استكماله بواسطة الولايات المتحدة الأمريكية بوسائل أخرى. وهذا يعني - في نظره - أن الخلاف بين الفاشية والديمقراطية الغربية هو خلاف في الشكل لا في المضمون، فليست الديمقراطية الغربية هي الكفيلة بإخراج الإنسانية من محنتها، ولن تستقيم التنمية الاقتصادية القائمة على اقتصاد السوق بعلاج لهذه الأزمة، بل هي الداء ذاته. إن تنمية تقوم على سطوة المال واستنزاف الطبيعة والإنسان، ليست إلا وسيلة فعالة لتكرис الهيمنة وتفاقم البؤس البشري.

إن تاريخ الديمقراطية الغربية ابتداء من ديمقراطية أثينا القاصرة على الأسياد، وانتهاء باليقراطيات المعاصرة التي تمنع المهاجرين من الانتخاب، والتي يذهب فيها أقل من نصف المقيدين لصنادين الانتخاب - كما في الولايات المتحدة -، يجعل من استبعاد قطاعات

من السكان عنصراً أساسياً في النظام الديمقراطي الغربي. ويحدد لها غاياتها التي لم تحد عنها وهي إحكام سيطرة الطبقات السائدة على جموع المحكومين. وهذا ما يفسر زيادة نسبة الامتناع عن التصويت لدى العمال والعاطلين بعد أن اكتشفوا عبئية اللعبة.

لقد تحولت الديقراطية اليوم إلى مجموعة من القوانين والتدابير التي تعمل على تسهيل أداء اقتصاد السوق ليغطي كل مناحي الحياة. إذ تفاصيل قيمة كل شيء ببروديته المالية، فلا قيمة إلا قيمة المال والسلعة. وهذا ما يؤكده الخطاب الرسمي لفكري العولمة الاقتصادية. لقد أصبح زوال القيم المعنوية والأخلاقية لصالح القيم السلعية - وهو ما تنبأ به ماركس في منتصف القرن التاسع عشر - أمراً واقعاً في أيامنا هذه. ويرى الفيلسوف الإيطالي چيانى ڤاتيمو أن تحول كل القيم إلى قيم سلعية هو أبرز ملمح من ملامح عدمية عالمنا المعاصر التي بشر بها نيتше.

وهذا يطرح باللحاج السؤال عن البديل.

وهنا لا يقدم جارودي مشروعًا علميًّا محدداً بالمعنى المتعارف عليه في الفكر السياسي الغربي، والذي يقوم على إنجاز خطة سياسية محددة تقوم بها قوى اجتماعية معينة، وإنما يطرح توجهات عامة مطروحة للاستلهام في السياسة والاقتصاد والتعليم والدين، ويلجأ إلى منابع لا تنضب في الإنسان، وهي ممثلة في الإيمان والحلم. والإيمان لديه لا يتعلق بالأديان فحسب، بل يتسع لكل نزعة إنسانية حقيقية تحرض على كرامة البشر وحرثهم. أما الحلم، فقد قدم جارودي في كتابه هذا نموذجاً له، فتخيل في منتصف القرن الحادى والعشرين إنسانية متنوعة متسامحة متضامنة، تنظر إلى القرن العشرين والقرون السابقة على أنها عصور ما قبل التاريخ.

قد يرى البعض في لجوء جارودي إلى الحلم علامه على استحالة تجاوز الكارثة، وشاهداً على الشعور بالإحباط. ولكن هناك من الفلاسفة - ومن بينهم جارودي - من يرى أن الإنسان عندما يحلم لا يعني ذلك أنه لا يفعل شيئاً، وهنا يؤكّد جارودي الصلة التي تربطه بماركس الذي قال: «هناك لدى البشرية شيء في الحلم، لو وعته لامتلكته».

من هنا تكمن أهمية هذا الكتاب الذي يجمع بين الحلم والنقد والمبادرة، ويعتمد على منهج يقوم على التحليل والتأويل: عن طريق التحليل يكشف عن زيف الكلمات التي تهيمن علينا وتناقض مع الواقع؛ فتسليمنا إلى حال من الخدر المم朽ك. وعن طريق التأويل يكشف عن العمق الدلالي للكلمات الرموز التي تفتح أمامنا طاقة لا نهاية للمبادرات التاريخية الجديدة دون أن تستنفذ طاقتها على الإيحاء. يكشف لنا - على سبيل المثال - عن زيف عبارات مثل «التنمية الاقتصادية» و«الديمقراطية» في المفهوم الغربي، فالديمقراطية «لم تعد تعنى سوى وحشية حرية السوق، والتي يصبح فيها المال هو المنظم الوحيد للعلاقات الاجتماعية». أما كلمات مثل «الأسطورة» أو «الإيمان» فيعيد تعريفها بوصفها مبادرات للتعالى والإبداع.

وفلسفة جارودي هذه لا تنفصل عن التيار الفلسفى المعاصر، «ففى الوقت الحاضر تدل كلمة فلسفة على كل بحوث البشر التى يكون موضوعها الحقيقة، وبخاصة حقيقة الإنسان... وهى تعنى بصفة عامة بالبحث عن معنى الحياة، وتفسير الكون بوسائل قاصرة هى الكلمات والمعانى المختلفة التى ترمز إليها، الأمر الذى جعل الكثير من النشاط الفلسفى فى وقتنا هذا ينصب على التعريف وتحديد المعانى»(*). وقد طغت فلسفة اللغة على بحوث الفلسفة إلى الحد

(*) انظر معنى كلمة فلسفة، الدكتور مجدى وهبة، معجم مصطلحات الأدب، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٤، ص ٤٠٢.

الذى أصبحت معه نسبية المعنى والحقيقة معوقة للفعل ، ومشككة فى قيمة النضال من أجل شيء واضح ، وهو ما يستدركه جارودى ليتحول بفلسفته هذه إلى مجال العمل والكفاح ، وما نسبية المعنى عنده إلا مرحلة مهدة لمعرفة الحقيقة في العمق وليس إلغاءها . ويعتقد جارودى أن الفلسفة يمكن أن تكون زاداً لبساطة الناس كما هي لثقفيهم ، وهو يعتمد في ذلك على أسلوب خاص واضح من جهة ، ومحفز قوى لتأملات واسعة من جهة ثانية .

ويجمع في أسلوبه هذا بين العلم والشاعرية ، إذ يعتمد على الوثائق والإحصاءات ، وكثافة المعلومات ، للتدليل على الواقع ، كما يوجز في بلاغة أشبه بالحكمة خلاصة آرائه ، مما يثبت في الأذهان بعض العبارات البليغة مثل : «هذا هو الإنسان ، كبير منذ البدء حتى لا يكتفى بذاته» ، «إن حرية الآخر ليست هي الحد الذي تقف عنده حريري ، ولكن هي شرط حريري» . ويبين جارودى أسلوبه في الكتابة على وحدات صغرى منفصلة مكونة من عبارة ، أو مقطع قصير ، دون المطولات التحليلية الشاقة ، مستلهماً بascal في كتابه «الخطرات» ، أو نيتشه في «هكذا تكلم زرادشت» ؛ مما يجعل قراءته يسيرة ومثيرة لجهود القارئ في آن . ومع هذا الإيجاز ، تتزاحم في مؤلفات جارودى أسماء الأعلام والحوادث التاريخية والسياسية والاقتصادية ، وقد حرصنا في هذا الإطار على تزويد الترجمة بهوامش شارحة ، هي من عمل المترجمين في أسفل الصفحة ، أما هوامش المؤلف فيجددها القارئ في نهاية الكتاب .

ولم تكن الترجمة في كل ذلك يسيرة على كل حال ، وإنما شأنها شأن كل ترجمة اقتضت إخلاص الجهد ، وتحظى المشكلات . ولكن حسبنا أن الترجمة هنا تقع في إطار المضمون الفلسفى لفکر جارودى

نفسه في استهدافه لغاية التحاور المتكافئ بين الحضارات ، وفي تحريره على التصدى لمحاولات الهيمنة الأمريكية الصهيونية التي تودى بكرامة وحياة الإنسان لا في العالم الثالث وحده وإنما في الغرب ذاته ، بل في الكوكب بأسره .

وقد توخيانا في ترجمة هذا الكتاب الوفاء قدر الاستطاعة ، على ألا نحرم الترجمة من دورها الأساسي في إثراء اللغة المترجم إليها ، مع عدم الإخلال بنظامها اللغوي الخاص ، أو حرمانها من الغاية الرئيسية للترجمة وهي التواصل الفكري ، واستشارة الأذهان للإبداع . وحاولنا أن نتجنب الوقوع في شراك الكثير من المترجمات التي تظل أجساماً غريبة في مجتمعنا العربي ، وتزيد من شعورنا بالاغتراب عن الثقافات ، وتشل قدراتنا على الإبداع الموازي .. ولقد كان كتاب جارودي جديراً بجهد الموازنة هذا ، (فما أيسر التطرف) ذلك أنه يقتضي منا توازنات جديدة تستشرف مستقبلاً أفضل للبشرية .

وقد قام أنور مغيث بترجمة الجزء الأول من الكتاب والذي يمتد من المقدمة وحتى التحول الاقتصادي ، وقامت مني طلبة بترجمة الجزء الثاني بدءاً من التحول في التعليم وحتى الخاتمة . وأخيراً عزيزي القارئ بين يديك الآن كتاب يراجع في جزئه الأول كل المسلمات التي أدمناها بفعل تزييف التاريخ ، ويبادر إلى وضع مشروع جديد للإنسانية في جرأة مستحثة للمزيد من العمل في المستقبل ، في مجالات الاقتصاد والسياسة والتعليم والإيمان .

د. مني طلبة - د. أنور مغيث

سبتمبر ١٩٩٩

هدف الكتاب

إيقاف المسيرة المتوجة نحو الفوضى .
القرن العشرون أصبح خلفنا بحرائقه وخرائطه وصحرائه .
القرن الحادى والعشرون إذا استمر فى هذه المسيرة نحو الفوضى ،
فلن يكمل سنواته المائة .

ما العمل؟

هذا الكتاب يسعى لأن يقدم بداية للإجابة عن هذا السؤال : كيف يمكن بناء القرن الحادى والعشرين ، بحيث لا يغتال أطفالنا؟
عليينا ألا نستهين بشغل المهمة . نحن نعيش قلقاً ناجماً عن مرحلة تاريخية اعتقاد الغرب فيها أنه الشكل الوحيد للثقافة والحضارة باعتباره الشعب المختار ، فارضاً على العالم سيطرته .

ينبغي إذن أن نستعيد اللحظة التي بدأ فيها هذا الخطأ في المسار ، وال Kovarit المتعاقبة التي ترتب عليها : ثلاثة انشطارات للغرب تؤدي إلى عالم متتصدع .

هناك ألفاً عام يعاد التفكير-فيهما ، وألف ثالثة للبناء كى تخلق بينهما وحدة . ياله من مشروع مجنون! نعم ، ولكن لا مفر من المشروع فيه فى لحظة قادتنا فيها حكمة الحكماء إلى شفا الهاوية .

يجب الوعى بعبيبة ما هو كائن ، وبما يمكننا القيام به من أجل أن نعثر على معنى حياتنا وعن معنى عالمنا .

- ولكن ربما تقول : ليست مهمتى أن أكون فيلسوفاً !

- فأجيبك : ولنست مهمتى أن أكون حارساً ليلياً ، ولكننى رأيت النار تتشب فى المنازل المجاورة وتدفعها الريح باتجاهك .

وهكذا باعتبارى قد عشت هذا القرن الملعون ، لم أشاً أن أموت دون أن أصرخ صرخة الإيقاظ : انتبه ، افتحوا أعينكم ، ينبغي أن تكون ثاقبة حتى ترى الأفق . وتلزم أيضاً الأيدي لتقبض على طوق النجاة . علينا إدارة الظهر للليل ، وألا ننتظر الظهيرة لنعتقد فى وجود الشمس .

روچيه جارودى

الجزء الأول

ما هي أخطر الهايا في القرن العشرين؟

- ١ - كوكب مريض وعالم متصلع.
- ٢ - التبادلات غير المتكافئة.
- ٣ - الغرب طارئ شطر العالم إلى ثلاثة أشطر.
- ٤ - هتلر كسب الحرب.

المشكلة المركزية في نهاية هذا القرن هي وحدة العالم. إنه عالم متلاحم وممزق في نفس الوقت، يال له من تناقض مميت!

متلاحم: لأنه من الممكن، من الناحية العسكرية، الوصول إلى أي هدف انطلاقاً من أي قاعدة، ولأن انهياراً في البورصة في لندن أو طوكيو أو نيويورك يؤدي إلى أزمة وبطالة في كل أرجاء العالم. وحيث تكون كل أشكال الثقافة - أو عدم الثقافة - حاضرة في كل القارات عبر التليفزيون والقمر الصناعي، لا يمكن أن تحل أي مشكلة بطريقة معزولة ومستقلة، لا على مستوى أمة، ولا حتى على مستوى قارة من القارات.

ممزق: لأنه من وجهة النظر الاقتصادية (طبقاً للتقرير برنامج الأمم المتحدة عام ١٩٩٢) ٨٠٪ من مصادر العالم يسيطر عليها ويستهلكها ٢٪ من سكان العالم.

هذا النمو الاقتصادي للعالم الغربي يكلف العالم، بسبب سوء التغذية والمجاعة، ما يعادل ضحايا هiroshima كل يومين.

ثلاث مشكلات رئيسية تبدو بلا حل: مشكلة المجاعة، ومشكلة البطالة، ومشكلة الهجرة. لا تمثل جميعاً مشكلة واحدة؟ حيث يوجد ثلاثة مليارات من البشر من مجموع خمسة ما زالوا معدومي القوى الشرائية، فهل يمكن الحديث عن السوق العالمي؟ أو بالأحرى

عن سوق بين الغربيين يتناسب مع احتياجاتهم وثقافتهم مصدرٍ إلى العالم الثالث ما يفيض؟ هل ينبغي قبول هذا التفاوت كقدر محتوم، وقبول هذا الواقع الذي يولد التهميش والعنف والقوميات والأصوليات دون أن نضع أساس الفوضى الحالية موضع المساءلة؟

* * *

هناك مرحلة تاريخية تختصر، هي تلك المرحلة التي سادها الغرب (حسب الأصل اللغوي للكلمة: البلاد التي تغرب فيها الشمس) منذ خمسة قرون^(*).

وهناك مرحلة أخرى في طريقها للميلاد في البلاد التي تشرق فيها الشمس: الشرق.

إن المرحلة التي بدأت منذ عصر النهضة، قد وصلت إلى نهايتها - كما يحدث في لعبة البلياردو - في بقاء سيطرة شخص واحد فقط، فمن الإمبراطورية الرومانية إلى ناپلیون أو هتلر، ومن شارل الخامس إلى الإمبراطورية البريطانية، وكانوا قد اعتقدوا جميعاً أن أساطيلهم لا تقهقرون وأن هيمتهم أبدية.

واليوم، يسعى باحثو الجيوبيوليتيك^(**) في المخابرات الأمريكية وأساتذتهم لأن يُخفوا واقع نهاية هذه الألفية: ونحن شهدنا على انحطاط واحتضار الإمبراطورية الأخيرة.

ما ملامح هذا الانحطاط من الناحية الموضوعية؟

(*) أقرأ - إن شئت - كتاب «٥٠٠ عام وما زال الغزو مستمراً»، مؤلفه «ناعوم تشومسكي». (الناشر)

(**) الجيوبيوليتيك: هو العلم الذي يدرس أثر العوامل الجغرافية في السياسة العالمية.

إن الحدث الأكثر دلالة لهذا النصف الثاني من القرن العشرين، ليس هو انفجار الاتحاد السوفييتي الذي كان كاريكاتوراً للاشتراكية والماركسيّة؛ إنه إفلاس الرأسمالية بعد سيطرة دامت نصف ألف عام على عالم تقوده اليوم إلى الانتحار على مستوى الكوكب، هذا إذا لم نوقف سباق الموت !

لماذا؟

لأن رأس المال ، الذي تم تجميجه خلال خمسة قرون بالنهب الاستعماري ، والمحدود بعد ذلك بالاستثمارات في البلاد الصناعية الكبرى في أوروبا العجوز ، والذي يخلق حاجات اصطناعية ومؤذية عبر الإعلان والتسويق - رأس المال هذا الذي يخلق أصوله بالاستثمار في مؤسسات الإنتاج والخدمات الواقعية ، قد أصبح رأس مال مضاربة ، أي أصبح طفيليّاً حالصاً .

النقود لم تعد تخلق السلع ، ولكن تخلق النقود .

بين موريس أليس (Maurice Allais) (جائزه نوبل في الاقتصاد) ، - معتمداً على معطيات البنك الدولي للتنمية - أن السيولة المالية التي ترتبط بمضاربات البورصة على العملة أو على المواد الخام ، أو على المنتجات المشتقة (تأمين على مخاطر المضاربة) هي اليوم أكبر أربعين مرة من الاستثمارات والصفقات المرتبطة بالاقتصاد الواقعى ، أي بإنتاج السلع والخدمات . وبلغة بسيطة ، يكسب المرء (شرط أن يكون له ضمانة بنكية أو إمكانات مالية) من المضاربة ما يعادل أربعين ضعفاً لما يكسبه من العمل .

لن يكون هناك معيار موضوعي عن الانحطاط أفضل من هذا: العمل المخلق لا يفيد في تنمية الإنسان ، أي كل البشر ، ولكن في تضخيم فقاعة مالية لأقلية ضئيلة ليس لها من غاية سوى تكبير هذه

الفقاعة، وبذلك لم تعد مشكلات معنى العمل والإبداع والحياة تطرح للبحث.

إن معنى الكلمات نفسه قد تشوّه: فنستمر في أن نطلق كلمة «تقدّم» على انحراف أعمى يؤدّي إلى تدمير الإنسان والطبيعة.

ونطلق كلمة «ديقراطية» على أشنع قطيعة عرفها التاريخ بين من يملكون ومن لا يملكون.

ونطلق كلمة «حرية» على نظام يسمح - بذرية التبادل وحرية السوق - لأولئك الأكثر قوّة أن يفرضوا الديكتاتورية عديمة الإنسانية، تلك التي تسمح لهم بابتلاع الضعفاء.

ونطلق كلمة «عولمة» لا على حركة تؤدي إلى وحدة متألفة الأنغام للعالم، عن طريق اشتراك كل الثقافات، ولكن بالعكس على انقسام يتّنامي بين الشمال والجنوب نابع من وحدة إمبريالية وطبقية.. انقسام يدمر تنوع هذه الحضارات ومنتجاتها لفرض لا ثقافة الراغبين في التحكم في الكوكب^(١).

ونطلق كلمة «تنمية» على نمو اقتصادي بلا غاية، يُنتج بإيقاع متسرّع أى شئ سواء كان مفيداً أو غير مفيد، مؤذياً أو حتى ميتاً، كالأسلحة والمخدّرات، وليس تنمية الإمكانيات البشرية الخلاقة، للإنسان ولكل إنسان. يضاف إلى هذا اللامعنى بطالة البعض الذين لم يعد يمكنهم أن يتّجروا، لأن ثلثي العالم لم يعد يمكنهم أن يستهلكوا، حتى من أجل بقائهم على قيد الحياة. إن هجرة من هم أكثر فقرًا ليست سوى عبور من عالم المجاعة إلى عالم البطالة والاستعباد.

إن خطأ توجيه السفينة قد ارتكب منذ خمسة قرون، حيث أدى الجموع للذهب، ونشوء التكنيك من أجل التكنيك ومن أجل السيطرة على الطبيعة والبشر، إلى ولادة حياة بلا هدف، وعبادة حقيقية للوسائل تصل اليوم إلى متهاها: إن وحدانية السوق التي تولد استقطاباً متزايداً للثروة النابعة من المضاربة، إن لم تكن من المافيا، تتمتع بها أقلية محدودة، بينما تؤدي إلى بؤس الأغلبية.

* * *

ما زالت هناك الفرصة سانحة للحياة، ولكن الأمر يقتضى انقلاباً كبيراً. إن سادة الفوضى العابرة التي نحييها لا يتحدثون لنا إلا عن تكيفنا (يعنى خضوعنا) مع انحرافات عالم بلا بشر، وبشر بلا مشروعات وبلا غaiات إنسانية. في حين أن نهضة الإنسانية أو حتى مجرد استمرارها في الحياة لا يقتضي تكيفاً مع هذا المصير المميت، بل يقتضي قطعية جذرية معه. في مواجهة الواقعية القاتلة والقدرة لن نفلت إلا بكفاح الأمل.

فبدلاً من النظر إلى المنطق الاقتصادي الحالى لمعاهدة ماستريخت وعملة الأورو واقتصاد السوق كقدر لافكاك منه، ينبغي القطعية مع هذا المنطق، أى ينبغي الانتقال من منطق المضاربة إلى منطق الإنتاج والإبداع الإنسانيين على مستوى العالم كله وليس فقط أوروبا، التى كانت بالأمس استعمارية واليوم هي تابع، لكنها تظل مراقبة عبر استغلالها لديون عالم أدت هي إلى تخلفه لصالح تطورها الخاص الحالى من الإنسانية.

الفصل الأول
كوكب مريض وعالم متتصدع

نمط النمو الغربي يكلف العالم الثالث ما يعادل موتى هيروشيمى كل يومين. فلنكرر ذلك لأنه ينبغي أن يكون نقطة الانطلاق لكل نظر سياسى .

السبب الرئيسي لهذه الإدارة المشئومة للأرض هو اقتصاد السوق الذى لا يعرف الحدود، والذى لا يهدف إلى إشباع الحاجات، وإنما إلى تحقيق أقصى دمج، ولا يستجيب إلا إلى الحاجات الموسرة، المستوفاة ماليا Solvable. هدفه الأول هو دعم الأسعار بتحفيض الإنتاج الزراعى، وأن يدفع لمربى الماشى كى ينتجوا البنًا أقل، ويقوم بتوسيع رقعة الأرض المتrocكة بلا زراعة.

إن هذا النظام، بقواعد لعبته هذه، يزيد من عدم المساواة حتى فى البلد الغنية. ففى عام ١٩٩١ ، كان ٥٪ فى أمريكا يمتلكون ٩٠٪ من الشروة القومية، و٣٥ مليوناً يعيشون تحت خط الفقر (المعادل لـ ٥٠٠٠ فرنك شهرياً لعائلة مكونة من أربعة أفراد). وهناك طفل من بين كل ثمانية أطفال يعاني من الجوع.

وفي فرنسا ٦٪ من السكان يمتلكون ٦٠٪ من الشروة، و٩٤٪ يقتسمون الباقي، وهو أقل من النصف^(٢).

وهناك أقلية من ٢٠٪ تمتلك :

٧,٨٢ من المنتج العالمي (٤,١٪). ٢٠٪ الأكثـر فقراً يمتلكون ٤,١٪. ٦٪ من التجارة العالمية. ٦,٩٤٪ من كل القروض التجارية. ٦,٩٤٪ من المدخرات. ٥,٨٠٪ من الاستثمارات. بحوث التنمية.

[المصدر: برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة PNUD، تقرير عام ١٩٩١]
ويوجد مليار ونصف المليار من الأفراد يعيشون في فقر مطلق (أى لا يستطيعون الحصول على السعرات الحرارية الضرورية من الغذاء) بأقل من دولار واحد في اليوم (أرقام PNUD في عام ١٩٩٧). ١٣,٥ مليون طفل أقل من خمس سنوات ماتوا بسبب سوء التغذية أو المعاقة عام ١٩٩٦، منهم ١٣ مليوناً في العالم الثالث.

[المصدر: يونيسيف، تقدم الأمم ١٩٩٣ و ١٩٩٦]
متوسط العمر: ٦٧ سنة في أمريكا الشمالية. ٥٣ سنة في إفريقيا.
طبيب لكل ٦٧٤ ساكناً في سويسرا. طبيب لكل ٥٧٣٠٠ ساكن في بوركينا فاسو.

[المصدر: PNUD تقرير عن التنمية البشرية عام ١٩٩٢]
تزايد الفجوة بين الشمال والجنوب.

ففي خلال ثلاثين سنة، قفز الفارق بين البلد الفقيرة والبلد الغنية من ١ إلى ٣٠ فوصل إلى ١ إلى ١٥٠.

[المصدر: PNUD عام ١٩٩٢]
هذه هي نتيجة ما اتفق على تسميته العقود الثلاثة للتنمية (١٩٥٠ - ١٩٨٠).

والانهيار مستمر: فقد كان هناك ٣٣٪ من سكان العالم الثالث يعانون من سوء التغذية في عام ١٩٨٠، أصبحوا ٣٧٪ في عام ١٩٨٨.

[المصدر: يونيسيف، الوضع العالمي للطفولة عام ١٩٩٠]

**الفصل الثاني
التبادلات غير المتكافئة**

فى عام ١٩٥٤ ، كان يكفى لشخص برازيلى ١٤ جوالاً من البن يشتري سيارة چيب . وفى عام ١٩٦٢ أصبح يحتاج إلى ٣٩ . وفى عام ١٩٦٤ كان الشخص من چامايكاكا يشتري جراراً زراعياً مريكيابـ ٦٨٠ طن سكر ، وفى عام ١٩٦٨ أصبح يحتاج إلى ٣٥٠٠ طن .

لقد استمرت البلاد الفقيرة فى دعم البلاد الغنية.

ويقول تقرير (PNUD) إنه من عام ١٩٨٩ إلى عام ١٩٩١ انخفض مؤشر التوازن لمجموعة من ٣٣ متجهاً أساسياً (فيما عدا الطاقة) إلى لنصف : من ١٠٥ إلى ٥٧ ، وفيما بين عامي ١٩٨٩ و ١٩٩١ نخفضت أسعار تصدير المنتجات الأساسية للبلاد النامية (PED) إلى ٢٠٪؎ ، وفي عام ١٩٩١ وصلت أسعار الشاي والبن ، من حيث القيمة لفعالية ، إلى أقل مستوى تصل إليه منذ عام ١٩٥٠ .

الدخل القومى (PNB) فيما بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٨٧ :

- انخفض في البلاد المختلفة بمعدل ٩ دولارات في المتوسط .

- ارتفع ٢,٧٪؎ دولار في البلاد الصناعية المتقدمة .

[المصدر: البنك الدولى، تقرير حول التنمية الدولية عام ١٩٨٩، كراسة ٤، ص ١٨٨ - ١٨٩]

أن نبدأ المستقبل يعني أن نحول اتجاه مساره بعيداً عن الموت، أن نفتح المجال أمام ثروات الأرض وإبداعات الإنسان، لا إمكانات المضاربة العقيمة، ولكن الاستثمار المتوجه لتحقيق البنية التحتية الالزمة لتنمية الإنسان، كل إنسان، استثمار على النقيض من الارتباط الاستعماري وما بعد الاستعماري الذي يجمع الشروة والبؤس بمحض غير متكافئة بصورة شنيعة. وتعامل بورصة «أول ستريت» في نيويورك أو بورصة «سيتي» في لندن مع باقي العالم كمزودين للمواد الخام واليد العاملة الرخيصة، لكنه تبني على بضعة آلاف من الكيلومترات بعض الجزر المنعزلة من الفردوس الاصطناعي.

هذا هو البديل من أجل استمرار الحياة:

أن نستبدل بالمضاربة العمل المبدع في خدمة المجتمع: هذا المشروع البروموثيوسي^(*) الذي يعيد صياغة الأرض ويغير ثلثي العالم تغييراً جذرياً يمكنه وحده أن يقضي على بطالة البعض ومجاعة البعض الآخر.

وأن نتخلص من انشطار العالم بين شمال، بأقلياته المزدهرة، وجنوب مسلوبة ثروته بواسطة هذه الكواسر المنحطة وهي البنوك التي تحولت إلى ملاهي قمار تلعب على سعر العملات والمواد الخام والمواد المصنعة.

(*) البروموثيوس نسبة إلى بروميثيوس الذي يرتبط اسمه في الأسطورة اليونانية بالإبداع الإنساني وظهور الحضارة. وتقول الأسطورة إن بروميثيوس قد سرق النار من السماء وحملها إلى الأرض، مما سمح للبشر بصناعة الحضارة. ولكن زيوس كبير الآلهة غضب لذلك غضباً شديداً، وتوعّد البشرية بعذابات جمّة من جراء سرقة النار. وأمر بتقييد بروميثيوس - عقاباً له - على جبل كوكاسوس حيث دأب النسر على التهام كبده الذي لا يلبث أن يتجدد وينمو إلى ما لا نهاية.

وأن نستمر في تاريخ أنسنة الإنسان بعدم اصطناع نظم اقتصادية ودليلى تفاقم عدم المساواة، لأن ثروة البعض فيها لا تنشأ إلا عن لريق إفقار البعض الآخر، خالقة بذلك مجالاً مشوهاً مكوناً من عض مئات المختارين و مليارات المستعبدين، وبين الاثنين كتلة بلا سوام من أولئك المحكوم عليهم بعمل يفتقر إلى المعنى حتى يحصلوا، بغير زيادة كمية الاستهلاك، على سعادة السوبر ماركت كبديل لحياة حقيقة، حياة هي منذ الآن فصاعداً بلا هدف.

هل نسمى هذا العالم الوليد الذي نطمح إليه اشتراكية، أم نطلق عليه اسم آخر؟ المشكلة ليست هنا. يتعلق الأمر أولاً بالتخالص من لنزعة الفردية المتوجهة التي تحول دون استبعاد المجاعة والبطالة. اليأس وحياة بلا أفق، وتجعل جماهير من البشر يصبحون مع مرور الوقت، أقل إنسانية وأكثر عرضة للتلاعب وسائل الإعلام، ويصيرون إلى العدم بواسطة سادة الفوضى.

هدفنا هو الانتقال من هذه الفردية إلى جماعية حقيقة، أي عالمية يشعر فيها كل شخص بأنه مسئول عن مستقبل الآخرين.

إن النظام الحالى يعمل في اتجاه واحد: حماية السوق الأمريكية، وفتح أسواق العالم كله أمامها.

إن دوران أوروبا السياسي، المادى والمعنوى حول أمريكا، قد أدخل العالم في مرحلة جديدة من الاستعمار. لقد أصبحت قوى أوروبا الغربية والشرقية خارج اللعبة أو مكتفية بدور التابع، وأصبح المجال مفتوحاً أمام استعمار من نوع جديد:

ليس هو استعمار الإمبرياليات المنافسة لأوروبا التي أصبحت الآن

خاضعة ، ولكنه استعمار مركزي وشمولي على مستوى العالم تحت السيطرة الأمريكية .

إن ما يسميه بوش النظام العالمي الجديد، هو دعم وامتداد لهذه العلاقات الاستعمارية بين عاصمة واحدة وباقى العالم .

علاقات استعمارية تعنى : تبعية اقتصادية وسياسية وعسكرية تسمح للمسطرين أن يجعلوا مستعمراتهم ملحقة باقتصاد المركز ، أو أن يفرضوا شروطاً للتبادل وتعريفات جمركية تفيد المسيطرین فقط .

هذا هو الهدف الذى طالما أعلن عنه القادة الأمريكيون ، خصوصاً في السنوات الأخيرة (منذ انهيار الاتحاد السوفياتي) :

ضمان هيمنة الولايات المتحدة على العالم .

ما الوسائل المتاحة لتحقيق الهدف؟

الأكليه بسيطة . تتم الموافقة على استثمارات عبر القروض والمعونات للبلاد الفقيرة ، هى من حيث المبدأ تساعدها في أن تتصنع ، ولكنها في الواقع تسمح للشركات المتعددة الجنسية في الشمال بزيادة أرباحها عن طريق انتقالها للإقامة في بلاد تتميز بـ رخص اليد العاملة . والبني التحتية تتکفل بها الحكومات التابعة . وفي الوقت نفسه تنخفض أسعار المواد الخام القادمة من هذه البلاد ، مما يجعل التبادلات تتعزز في التغابن مع مرور الزمن .

إن سداد فوائد القروض يمثل أضعف رأس المال المقترض . فكل دولار استرده الدائن اثنين أو ثلاثة ، كما أن سداد الفوائد يعادل في الغالب إجمالي التصدیر مما يجعل كل تنمية مستحبة . لا يتعلق الأمر إذن ببلاد نامية ، كما نطلق عليها من باب المجاملة أو النفاق ، ولكنها بلاد محکوم عليها بیوس متزايد وتبعية متزايدة .

إن المعونة المزعومة لبلدان العالم الثالث هي إحدى العوامل الفعالة في تخلفها.

إن التمييز الذي يتعرض له العالم الثالث فيما يتعلق بكافة أشكال المعونة بالغ الدلالة: المعونة التي تتلقاها كتيبة الغرب الأولى إسرائيل قد بلغت حدّاً جعل واحداً على ألف من سكان العالم يأخذ عشر المعونة الإجمالية، أى أن كل ساكن فيها يأخذ مائة ضعف أى ساكن آخر في بلدان العالم الثالث^(*).

إن تصنيع بلاد العالم الثالث ونقل التكنولوجيا إليها هو أيضاً إحدى وسائل السيطرة وزيادة الأرباح للبلاد الغنية.

الطريقة الأكثر ضماناً هي إقامة ديكتاتورية عسكرية. فتتم ممارسة الهيمنة الإمبريالية للولايات المتحدة أولاً عبر الشركات المتعددة الجنسيّة. وعندما ظهرت ملامح التهديد بسلطة اشتراكية في شيلي، جاءت المذكورة الدبلوماسية بشأن التجارة الدولية تقترح تطبيق ضغوط اقتصادية حتى يتم إسقاط النظام.

هذا المنهج لا يستبعد التدخل العسكري المباشر للجيش الأمريكي كما حدث في جواتيمala عام 1954 كى ينقد مصالح شركة الفواكه المتحدة، وفي كوبا حيث نظم كينيدي عام 1961 إنزال القوات في خليج الخنازير مع المهاجرين الكوبيين من أنصار الديكتاتور السابق باتسيتا (Batista)، وفي عام 1964 في جويانا البريطانية، وفي عام 1965 في جمهورية الدومينيكان، ومنذ وقت قريب في جرانادا وبنما.

(*) هذا من ناحية الكم، أما من ناحية الكيف فالتمييز أكبر، سواء من ناحية نوع المعونة أو طريقة إختبارها وانفاقها، أو الجهاز الملحق بها، ثم تأثيره وتأثيرها - الناشر

ولكن الأسلوب الأنفع هو تسهيل وصول ديكتاتورية عسكرية في كل بلد باسم المذهب الأمريكي في الأمن القومي ضد الوجود الشيوعي في زمن القوة السوقية.

ويمكن في هذه الحال إقناع الشعوب، بربطها بالولايات المتحدة، بأنها تدافع عن الديمقراطية والاستقلال الوطني. بهذه الطريقة تمكّن الجنرالات من حكم البرازيل منذ عام 1964 من كاستيلو برانكو (C. Branco) وحتى جيزل (Geisel).

وتحت حكمهم، وعبر لعبة تتكون من تصنيع هائل حققت الشرکات الأمريكية العابرة للقارات، وتسلیح يسمح بعمارة القمع والإرهاب ضد الشعب، استمرت الديون في الارتفاع:

فعلى سبيل المثال من عام 1973 إلى عام 1982 زاد الدين من ١٢ إلى ٦٠ مليار دولار، أي تضاعف خمس مرات في ١٠ سنوات: «ليس هناك ما هو أبشع من ديكتاتورية عسكرية لجعل بلد ينづف حتى آخر قطرة»^(٣).

وحول ديون الأرجنتين، من بين ٥٤ مليار دولار هناك ١٠ مليارات خصصت للتسلح تحت حكم الجنرالات. وكان سداد الدين وشراء الأسلحة، قبل مجىء الرئيس آلان جارسيا (Alan Garcia)، يمثل ٥٪ من ميزانية بيرو. ولكن الرقم القياسي حققه شيلي في عهد الجنرال بينوشيه (Pinochet)^(*) حيث وصل إلى ١٥٠٠ دولار لكل مواطن.

(*) طلبت إسبانيا محاكمته على جرائم ارتكبها ضد مواطنين إسبان، وثارت قضية سياسية كبيرة في إنجلترا، وصدر حكم مجلس اللوردات بتسلیمه لإسبانيا، ثم تمجد الحكم إلى حين. وبالطبع لهذا التجميد أسباب. وقد أعلنت تاتشر، وأعلن كيسنجر رفضهما التسلیم الدكتاتور، وقد المساعي لوقف التسلیم. ((الناشر))

ولكن يبنو شيه حقق رقماً قياسياً آخر: وهو الليبرالية، فإنه كعميل مخلص للديمقراطية الأمريكية الكبرى، حقق الحرية الكبرى لاقتصاد السوق (بما في ذلك سوق العملة) بواسطة نظام من الخصخصة الشاملة - خالقاً بذلك الشروط النموذجية - وباستخدام قمع شديد ضد شعبه لاستباب الحرية، وهي حرية الشركات المتعددة الجنسية في فرض التبعية على اقتصاد البلد.

وبفضل هذه الديكتاتورية العسكرية، أصبحت تبعية أمريكا اللاتينية الاقتصادية للولايات المتحدة أمراً لا رجعة فيه، وعبرها جاءت التبعية السياسية بسبب قوة الضغط الاقتصادي على السلطات برفض القروض أو الاستثمارات.

من الآن فصاعداً، يمكن للولايات المتحدة أن تتبع تحقيق غايتها: وهي حرية السوق بواسطة وسائل أخرى غير الديكتاتورية العسكرية.

فمن الممكن قبول قادة منتخبين في نظامهم، ليتسلم الفساد الرأية من القمع . وهكذا تم قبول قادة مثل كولور (Collor) في البرازيل أو منعم في الأرجنتين ، وقد تولوا المسؤولية بعد الچنرات ، فيطلب منهم فقط أن يدفعوا ديونهم ويسوا جرائمهم . ويمكن لصندوق النقد الدولي أن يفرض نيره بلا مجازفة على البلاد المقيدة بالديون والتي يقع اقتصادها في يد الشركات الأجنبية .

يمكن إذن للصندوق أن يفرض بلا عقاب - ليس على العالم الثالث فقط ، ولكن في المدى البعيد على العالم كله - نمط التنمية الأكثر مطابقة لمصالح المركز العالمي : تنمية الزراعة الأحادية ، والإنتاج الأحادي ، وتراجع الزراعة المعيشية والحرف المحلية التي تلبى الحاجات الفضورية ، والتبعية ، والاستغلال المتنامي لليد العاملة ، وتفاقم الديون نتيجة للاستيراد المتزايد .

إن الدفاع عن القانون الدولي والديمقراطية هو أيضاً تعبير آخر
لإخفاء تدخلات هذا الاستعمار الجديد.

ومجازر الخليج هي الدليل الساطع، فقد كان الدفاع عن الكويت
هو الدفاع عن الحق والديمقراطية.

الحق هو حق الأقوى:

في عام ١٩٩٠، كان الدفاع عن الحق هو إعادة العمليات
الاستعمارية الإنجليزية في عام ١٩٦١ ولكن على مستوى أكبر بكثير،
وكان هو التعبير عن الرغبة في بقاء الأوضاع على ما هي عليه.

وقد تم هذا بعد أن ألقى على العراق، خلال الحرب ما يعادل أربعة
أضعاف قبلة هيرشيمما، بحسب أرقام الحد الأدنى التي صرحت بها
الصليب الأحمر الدولي والتي راح ضحيتها ٢١٠ ألف شخص.

هذه هي نتيجة الدفاع عن الحق الدولي، الذي يعمل بالتجاه واحد:
 فهو على سبيل المثال يتم تطبيقه بلا رحمة على ضم الكويت، ويتم
تناسيه في ضم القدس. صحيح أن القدس مدينة مقدسة، ولكن
مدينة الكويت هي مدينة مقدسة ألف مرة لأنها محاطة بآبار البترول.

إن المنهج المتبع مع العراق هو منهج التدمير المكثف لكي يكون
هناك عبرة رادعة لكل دول العالم الثالث وعلى رأسها إيران وليبيا،
وهما أكثر الأهداف احتمالاً، لأنهما من أواخر البلاد في العالم التي
تتطلع مصادر بترولية وما زالت تستعصي على السيطرة الأمريكية.

هناك منهج آخر، أقل تكلفة، يطبق فقط عندما يكفي العمل على
إثارة الصراعات القومية أو الصراعات العرقية والدينية المزعومة.

واليوم بانهيار الاتحاد السوفييتي الذي كان مصادفة سعيدة
لخصومه، تحقق تفكك هذا البلد بواسطة الحروب الداخلية للبلاد

الموجودة في محيطه، مثل الأرمن والأذريون^(*)، وذلك لإضعاف أي دولة قرية من مخزون البترول في القوقاز، ولكن تكون في الوقت نفسه عقبة في وجه المشروع الصيني بخصوص الجسر الأوروبي الآسيوي. وهنا، يكفي ترك العداء ينشب، أو على الأقل ترك الأسلحة تمر عندما يبدو أحد الطرفين ضعيفاً، كي يستمر التدمير المتبادل.

منظر البتاجون صمويل هانتنجلتون (S. Huntington) يجعل من نفسه عرّاب هذا النداء إلى الموت بدعوته إلى صدام الحضارات، هذا التعارض الأسطوري بين حضارة يهودية مسيحية وتحالف إسلامي كونفوشيوسي.

هذه الأيديولوجيات المرتبطة بنهاية عالم معين تنقشع اليوم - حتى في تلك البلاد التي كانت تمثل تربتها القاتلة - كما ينقشع ضباب الدهاليز عندما تبدأ أشعة الشمس الأولى تنير القمم، والتي من عليها نادى الإنسان، وكل البشر، كي يحققوا مصيرهم، وهو وحدة العالم المقدسة.

لقد حاولنا أن نبرز الخيط الأساسي الذي يربط المشكلات الدولية بعضها البعض في نهاية القرن العشرين، وذلك بالعودة إلى سببها العميق والوحيد رغم الاختلافات الظاهرة وهو :

(*) الأذريون آذربيجان وهى إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق. وفي عام 1988 أعلن الأرمن المسيحيون انضمامهم إلى الاتحاد السوفيتى، وفي عام 1990 طالبوا بتدخل الجيش الأحمر ضد القوميين المسلمين من سكان آذربيجان.

الهيمنة الدولية للولايات المتحدة ووحدة السوق التي تريد أن تفرضها على الجميع.

* * *

وقد حاولت، بعد أن أرهقني استخراج هذه الإحصاءات وهذه التحليلات التي تكشف عن السلوك الحقيقى وعن نفاق عنصراً الغربى والذى يتجلى - عكس اتجاه الواقع - في قوقة الفكر الأحادى المستقيم سياسياً(*)، حاولت أن أبتعد قليلاً وأرفعه عن نفسي في نزعة الولع بالغريب (exotisme)، وأردت أن أعرف كيف تصرف أعراق أخرى. وانغمست في كتاب مشهور عن الإثنولوجيا يشرح بشكل علمي قواعد الزواج خارج القبيلة وداخلها، لدى القبائل الموجودة بعيداً في المحيط الهادى وحوض الأمازون، فلم أجده فيه ما يساعدنى على حل أو على طرح مشكلات عصرنا، لأن يظهر لنا، على سبيل المثال، كما فعل توماس مور (T. Moore) ومونتانى (Montaigne) في أثناء الغزو الأوروبي لأمريكا بعد عام ١٤٩٢، ما كان يمكنه أن يكون لقاء آخر، كما يقول مونتانى، ومفترحاً نماذج أخرى للتقييم الاجتماعي كما فعل توماس مور بصفته متخصصاً في الاقتصاد والسياسة. ولكن غلبني النوم في أثناء القراءة، وحلمت بأننى أشارك في مؤتمر للإثنولوجيا عام ٢٠٥٠ (وكان الرقم مكتوباً على لافتة فوق المنصة).

وكان هناك هندي أحمر من أمريكا يلقى الخطاب الافتتاحى للمؤتمر، فيقول:

(*) تعبير شاع في الولايات المتحدة في العقدين الأخيرين، ويقصد به الاستقامة في السلوك الاجتماعي، لكنه تحوّل إلى مجموعة التصرفات الأخلاقية الشكلية والنمطية والتي تضع من يخالف هذا النوع الجديد من الأمثال تحت طائلة الحساب.

لا يرجع الأمر إلى كفاءتي الشخصية. ولكنني أنتهى إلى أول جماعة شكلت حضارة من أكبر الحضارات في التاريخ، أي إحدى الحضارات النادرة التي قدمت للإنسان إمكانية أن ينمى وجوده وأن يضفي عليه جمالاً: وهي حضارة (تاهاوانتان - سويو) (Tahuantin - Suyu) والتي يطلق عليها مدمروها في لغتهم، إمبراطورية الإنكا (L'empire Inca)، وهم قد ألفوا التضاد بين السيد والعبد، كما ألفوا السلطة الإمبراطورية والخضوع. فكان النموذج لديهم هو الإمبراطورية الرومانية وقطعان العبيد فيها، حيث يتتحكم مركز مكون من ٢٠ ألف مواطن في عشرين مليونا من الرعايا، يعدهم ويعد باقي البشر همّجاً وبراً.

إن هؤلاء المغامرين المصايبين بحمى الذهب - كما كانوا يسمونهم - جعلوا أمريكا أول أرض تتراجع إلى ما قبل التاريخ. كتب كريستوفر كولومبس، أول مفسدى النفوس، رسالة إلى ملك إسبانيا يقول له فيها: «الذهب هو أثمن الخيرات... ومن يمتلكه يمتلك كل ما يحتاج إليه في هذا العالم.... وهو كذلك وسيلة خلاص النفوس من المطهر - (الأعراف) - وسبيل انتقالها يوما ما إلى الجنة».

ولكنه ببساطة حمل لنا الجحيم.

لقد كرر أكثر من مرة في يومياته على السفينة: «لقد كنت متباها وبذلك جهدا في معرفة ما إذا كان ثمة ذهب». وذلك عندما رأى عقوداً من الذهب عندنا يلبسها المواطنين المحليون، لأنـه - وحتى الغزو - لم يكن الذهب عملة نقدية كما كان الحال في أوروبا. كما لم تكن هناك ملكية للأرض. وعندما لم يكن الغزاة يسرقونها من الذين يعملون فيها، وهو ما كان يحدث غالباً، وخصوصاً عندما يشتبه في وجود عرق من الذهب، كانوا يقتربون شراءها.

وهكذا، وكما صرّح أحد قادة الهنود في أمريكا الشمالية: أرضنا أغلى من أي نقود.. ولا يمكن أن نبيعها لأنها ليست ملكاً لنا. مهما طال الزمن فستبقى هذه الأرض لتعطى الحياة للبشر والحيوانات، ونحن لا نملك أن نبيع هذه الحياة.. ولذا لا يمكن لنا أن نبيع هذه الأرض.

كان هذا الموقف يتعلّق بكل أرض: أرض الجماعة الأساسية أو الأيلو (Ayllu) والتي كانت لا تُقسّم ولا تُتباع، أرض الشمس المخصصة لبناء المعبد وخدمة العبادة، وأرض الإنكا والتي كانت ثمارها مخصصة للأعمال الكبيرة مثل تعبيد الطرق التي كانت أجمل بكثير من الدروب الرومانية باعتراف الغزاة أنفسهم: « جاءت الهمجية من أوروبا »، كما كتب أول شهود الغزو، الأب بارثوليماؤس دولاكاز (Bartholome de las Casas). وهو شاهد عيان يقول: «منذ سنة ١٥٠٠ ، وأنا أرى وأتجول في جزر الهند هذه وأعرف ما أكتب ». .

في البدء كان سلب الذهب والفضة . وتبين أرشيفات دار المحفوظات في أشبيليه أنه منذ عام ١٥٠٣ إلى عام ٦٦٠ : فقد سُرقت أوروبا ١٨٥ ألف طن من ذهب و ١٦ ألف طن من الفضة ، ورغم ذلك تجرب على أن تتحدث عن ديون بيرو لبنك يبتلع الحياة، وأن تدعى أن هذا البنك كان يسمى في عصر ما قبل التاريخ (**) ، منذ قرن ، « صندوق النقد الدولي ». .

(**) لاحظ أن جارودي يتحدث هنا عن حلم ، وأن هذا الحديث يتم في منتصف القرن القادم (الحادي والعشرين) ، والذي يمثل بالنسبة لجارودي بداية التاريخ الذي يصبو إليه وأن ما قبله سيكون عصر ما قبل التاريخ .

هذه النقود التي سرقت من أرضنا، أعطت دفعة هائلة لما كانوا يسمونه اقتصاد السوق (أى لنظام يباع فيه كل شيء، من الأسلحة التي تقتل الأجساد إلى الضمير الذي يقتل النفوس) وهو ما أسماه مغامرو أوروبا التجار بالاسم المبتذل «النهاية».

هذه السرقة التي على مستوى قارة، أسماها المهاجرون بعد كولومبس، اكتشاف أمريكا. وكان الأمر كان يتعلق باختراع هذه الشعوب التي كانت تزرع الأرض منذ ١٠ ألف سنة.

الجنود المرتزقة (Soudards) أسموه الفتح. والقاوسة من جانبهم، وأميرهم البابا، أسموه بالتبشير الإنجيلي. والمستعمرون أسموه بالحضارة، أى إدخال اقتصاد السوق.

أيا كانت الأسماء، فقد بدأ هذا العمل بجزرة. ويقدر المؤرخون عدد السكان الهنود وقت الغزو بـ ٥٧ مليوناً، مات معظمهم بأمراض حملها معهم الأوروبيون، مثل: الجدرى والسل والтиفوส، وأيضاً ماتوا من جراء مجازر الحرب، وأكثر من ذلك من العمل الإجباري، وخصوصاً في المناجم والمزارع التي استولى عليها الاحتلال الاستعماري.

وقد بدأ هذا بالاستيلاء على حضارة الإنكا، عبر الخيانة، بتعذيب المواطنين وقتلهم ليتذمروا منهم الذهب، ثم استعباد شعب بأسره لاستخراج المعدن.

وقد أدان بعض القساوسة الأبطال، مثل مونتسينوس (Monte-sinos) والدوミニكانى بيدرو القرطبي (Pedro de Cordoba)، والأب پارثميماوس دولاكازا، بلا جدوى، هذه الهمجية التي جعلت

الهنود يعتقدون أن الأوروبيين لا إله لهم سوى الذهب . وتمكن المستعمرون من طرد هؤلاء القساوسة !

ويفضل انتشار العملات الذهبية والفضية ، نجح السادة المتعاقبون للاقتصاد الغربي : فبيسيرا بدلا من إسبانيا ، ثم إنجلترا وفرنسا وأخيراً الولايات المتحدة ، في أن يفرضوا على العالم دينًا ، لا يجرؤ على الإعلان عن اسمه الحقيقي ، ولكنه يصوغ في الواقع كل العلاقات الإنسانية أو الاجتماعية أو الدولية أو الفردية : وهو وحدانية السوق أي عبادة الذهب . وهناك وثيقة من ذلك الزمان تتضمن باكورة كل ما حدث بعد ذلك ، وهي وثيقة يوكاي (Yucay) (وهي محلة صغيرة بالقرب من كوزكو (Cuzco) ، في مركز منطقة الإنكا) ، وكاتب هذا الرأي ، الذي يتضمن مدحًا لاهوتيا في الاستعمار ، هو الوالي جارسيما الطليطلى (Garcia de Toledo) الذي يريد أن يجعل من الاستغلال الدامى لكنوز بيرو جزءا من خطة العناية الإلهية : «هكذا وهبت هذه الجبال من الذهب والفضة ، وهذه الأرضى الخصبة المليئة بالشمرات ، كى يأتي بشر ، جذبهم هذا الأريح ، يريدون من أجل مجد الله أن يدعوا الآخرين للإنجيل ويعمدوهم»^(٤) .

ويضيف : «إنه من الضروري جداً ، من وجهة النظر الأخلاقية ، أن توجد مناجم ، لأنها إن لم توجد ، ما كان في هذه الملك لا ملك ولا رب» .

وهكذا خلال أربعة قرون تحت نير الاستعمار ، وفي الستين سنة الأخيرة تحت حكم الولايات المتحدة ، عادت بلادنا الهندية إلى أدغال ما قبل التاريخ .

وحوالي سنة ٢٠٠٠ بعد أن عانت بلدى من تدمير زراعتها وقتل ٩٠٪ من السكان. (وهى أكبر إبادة عرفها التاريخ)، أصبحت بلدى التى كان ثراؤها أسطوريًا (ففى وقت ما كان تعبير «إنها بيرو» مرادفًا للوفرة) فى نهاية عصور ما قبل التاريخ (ما بين ١٩٨٠ - ٢٠٠٠) بلداً مختلفاً.

هكذا تميزها عن البلاد المتقدمة (وعلى رأسها السبع الكبار) التى أدى نموها إلى خلق تخلفنا، ليس فقط عبر نهب ثرواتنا فى البداية ولكن أيضاً بتدمیر اقتصadiاتنا التي شوهوها بأن حولوها إلى زوائد ملحقة بالمركز الاستعماري. وهناك بعض تجارنا المحليين ازدادوا ثراء بالتعاون مع مستعمرينا من أوروبا والولايات المتحدة. ونجحوا بمساعدة أسيادهم في أن يصبحوا بعيداً من الطبقة الأولى، كما تحولت جماهير شعبنا إلى شعب من القروود يحاول أن يقلد السادة.

وفي ختام كلمتى أشير إلى وثيقة قديمة، وهى واحدة من الشهادات المتأخرة على عصر ما قبل التاريخ، وعنوانها: «حالة العالم عام ١٩٩٥» وتلخص بوضوح الجنازة البشرية لبيرو. هذا ما أصبحت عليه تاهوانتان سويو بعد خمسة قرون من الاندماج فى الحضارة الغريبة: ٧٦٪ من السكان ضحية لما كان يسمى في هذا الوقت بالبطالة، أى الاستبعاد من العمل ومن أى حياة اجتماعية. ويعيش ثلث السكان تحت خط الفقر، الزراعة أهملت واضطرب الفلاحون - لكي يبقوا على قيد الحياة - إلى زراعة الكوكا، وهى المادة الخام التي يصنع منها الكوكايين (المخدر الذى أصبحت الولايات المتحدة أكبر

مستهلكيه) لأن زراعة البن أو الكاكاو التي تدر عليهم دخلاً أقل ثلاث مرات لم تكن تسمح لهم بالعيش :

يمكن لهكتار من الأرض مزروع بالكوكا أن يدر على صاحبه ١٢٠٠ دولار كل عام وأحياناً أكثر . وعلى سبيل المقارنة نجد المرتب السنوي المتوسط لعامل في المناجم هو ٨٧٧ دولاراً، ولعامل عادى ٦٤٩ دولاراً، ودخل الفلاح غير المنتج للكوكا هو ١٥٠ دولاراً.

هذا الإنتاج يسمح بتدفق دولارات المخدرات . والمستفيدون بهذه التجارة ، والذين يساند فرق الموت (التي تمولها وتدرِّبها مدرسة الأمريكتين في الولايات المتحدة) قد تمكنا من الاستيلاء على السلطة بالإرهاب .

هكذا أصبحت بيرو أحد التلاميذ المطيعين لصندوق النقد الدولي الذي يفرضها المال الضروري اللازم لاستمرار جهاز الدولة، شريطة أن يراقب الشروط السياسية لسداد القرض (٦٠ مليون دولار في الشهر عام ١٩٩٤) : تجميد المرتبات والضمان الاجتماعي، تحرير الأسعار، خصخصة المؤسسات وحتى تلك التي تؤدي وظائف اجتماعية (من المواصلات والمستشفيات إلى التعليم). هناك ميزانية واحدة لم تنس، هي ميزانية القمع الذي تمارسه الشرطة والجيش.

هكذا يمكن للولايات المتحدة أن تُبقى في السلطة، كما هو الحال في كل أمريكا الوسطى والجنوبية، أحدَ رئائسها الخشبية، ليحكم بالفساد والإرهاب شعباً يحتضر. هذه الآلية، التي حولت إحدى الحضارات المزدهرة في العالم إلى عصور ما قبل التاريخ الحيوانية عبر خمسة قرون من الاستعمار الأوروبي آخرها نصف قرن من سيادة الولايات المتحدة، لم تتمكن من المساهمة في أنسنة الإنسان وفي

الخروج من عصر ما قبل التاريخ الذي أعيدت إليه، إلا في النصف الأول من القرن الحادى والعشرين^(*) بعد الإفلاس الاقتصادى للولايات المتحدة التى فقدت مiliارين من زبائنها، بواسطة مقاطعة صادراتها التى نظمها فى تاريخنا ما أطلق عليه «باندونج الجديدة»، وعودة البشرية إلى مسيرتها نحو عالم إنسانى إلهى فى الوقت نفسه.

* * *

بعد هذا التقرير الافتتاحى عن الدين السائد لشعوب الغرب فيما بين عامى ١٩٨٠ و ٢٠٠٠: وهو وحدانية السوق، جاء تقرير آخر عن التقنيات والجشع فى عالم ما قبل التاريخ، أى ما قبل عام ٢٠٠٠.

وقدم هذا التقرير شاب صينى كان أجداده من البوذيين، ونلمح ذلك من المرجعية التاريخية التى كان يحلل بها ما يسمى بالنمو فى القرن الماضى (القرن العشرين). فهو يشير أولاً إلى أن تنمية الإنسان فى ثقافته التقليدية، كانت تقوم على التحكم فى الرغبة، بل وأحياناً على إخماد الرغبة. ويشرح كيف تغيرت تماماً تنمية الإنسان: فمن وقتها أصبح الأمر يتعلق بإثارة الرغبة أو حتى بخلقها خلقاً. وذكر بأن سوفسطائيى أثينا القديمة كانوا يقولون إن الخير أن يكون للمرء رغبات قوية قدر الإمكان، وأن يجد الوسيلة لإشباعها.

وأضاف: «هكذا كان نظام التنمية فى أزمنة ما قبل التاريخ، ما بين عام ١٩٨٠ وعام ٢٠٠٠، قائماً على هذا المفهوم للسوفسطائيين الأثينيين».

(*) تذكر أن من يتحدث هنا هو الشخص الهندى الذى يحمل جارودى بوجوده مستقبلاً فى منتصف القرن الحادى والعشرين.

وقد توقف مليّاً عند تكنيك الجشوع وأسماء تكنيك الدعاية والتسويق ، أى تكنيك خلق احتياجات مصطنعة غطية ، تفتح الباب على مصراعيه أمام الشركات المتعددة الجنسية في الكوكب كله . هذا التكنيك اكتسب من السلطة والاحترام ما تحظى به عقيدة دينية . وهذا يتشابه مع وحدانية السوق التي تحدث عنها المتحدث السابق ، كدين لإله خفي ، تؤمن به كل القبائل المتحاربة في الغرب ، وهو النمو . كان إليها قاسياً يقتضي تضحيات إنسانية (وبدا ذلك من تعريفه للنمو) إذ قال : «كان نظاماً عماده الإنتاج ، أكثر فأكثر وأسرع فأسرع ، لأى شيء نافع أو غير نافع ، ضار أو حتى قاتل» .

وأعطى بعض أمثلة قائلاً : «في وسط هذا الجليد الإنساني ، فيما بين عامي ١٩٨٠ و ٢٠٠٠ ، كان ينفق حوالي ٤٥٠ مليار دولار على الأسلحة كل عام ، وهو ما كان يؤدي إلى هذه النتيجة الفاجعة تقنياً : أن يوضع حوالي ٣ أطنان متفجرات على رأس كل ساكن في الكوكب». وأضاف : «إن هذا النظام كان يقتل دون حرب ... حيث إنه ، في عصر الجليد الإنساني هذا ، كان ٤٥ مليوناً من البشر يموتون كل سنة من الجوع في العالم ... وكان يستخلص من هذا النظام القبلي في الغرب ، نتيجة مسؤولها أن ذلك كان علامه واضحة على التخلف العقلى» .

واهتم الباحث بالظاهر الطقسى ل الدين النمو هذا ، وبالأخضر عندما تعرض لتعليم الطائفة الكهنوتية لهذا الدين ، أى للتكنوقراطيين . وكان شديد الموضوعية ، فقد كان يقول : «عندما نحب أحد الفنانين نسميه خبيراً ، وعندما لا نحبه نسميه تكنوقراطياً». وقدم في المقابل هذا التعريف : «إننى أطلق كلمة تكنوقراطى على رجل تم ترويشه بشكل

يجعله لا يطرح أبداً مسألة الغايات، ولكن يطرح دائماً مسألة الوسائل. لا يطرح أبداً السؤال: لماذا؟ ولكن يطرح دائماً السؤال: كيف؟». وكان واضحاً بالنسبة له أن هناك نجاحاً كبيراً قد تحقق في هذا المجال. حينئذ طرحت مشكلة التعليم على الوجه التالي: «كيف يمكن ترويض هذه الطائفة الكهنوتية؟ إن كل التعليم العالي كان بالفعل قائماً على هذا الأساس. وفيما يبدو، حسب ما أعتقد، أن المتحدث كان متخصصاً أصلاً في البيولوجيا، لأنه كان يشرح كيف أن التعليم في هذا المجال لم يكن يطور سوى دماغ الزواحف.

وعند هذه النقطة، طلب منه مستمع إفريقي أن يدعوه يدلل على حديثه بمثال من ثقافته الزنجية. فذكر بأنه قبل غزو البرابرة للشمال الإفريقي (البرابرة الشقر) كان حدادو ديولاس (Diolas) في أسفل حوض نهر كزامانس (Casamance)، قد اخترعوا نظاماً لوضع قاعدة حديدية على الإطار الخشبي القديم، وقبل تنفيذ واستخدام هذا الاختراع طلبوا انعقاد مجلس الشيوخ لكي يعرفوا ما إذا كان هذا الاختراع سيؤدي إلى أي نوع من عدم التوازن فيما يخص العلاقة مع الطبيعة أو مع المجتمع. ألن يؤدى ذلك إلى سيادة للحدادين في الجماعة، ويؤثر وبالتالي على العلاقة بين البشر؟ وأضاف بأنه كان يجدر طرح أسئلة مماثلة في الغرب عند اختراع الطاقة الذرية، ولكن ذلك للأسف لم يتم.

وبعد أن شكر الصيني رفيقه السنغالي على هذا المثال الحسي، استمر في عرضه.

بعد هذه العقيدة الأولى: عقيدة إنتاج أي شيء أكثر فأكثر وأسرع، فأسرع، جاءت العقيدة الثانية وهي الإيمان بالتقدم. وكان له هذا

التعريف الذى أقدمه إليكم : «التقدم هو فعالية متزايدة فى فن تدمير الطبيعة والإنسان». وضرب هذا المثل : «عندما فتح تيمور لنك دمشق قتل ٧٠ ألف نسمة، وأنه قرر أن يقيم هرماً من الجحاجم فقد استغرق مشروعه عدة أيام. أما فى هيروشيمما فقد استغرق الأمر سبع ثوان».

وأضاف أنه فى عام ١٩٩٠ كنا نملك أكثر من مليون قنبلة كقنبلة هيروشيمما ، أى ما يسمح بإنفاء ٧٥ ملياراً من البشر ، أى خمسة عشر ضعفاً للبشر الموجودين . علينا ألا نعرقل التقدم !

* * *

التقرير التالى قدمه رجل يبدو عليه أنه من أصل عربى - إسلامى . لأنه كان يميز بوضوح الاختلاف بين حضارة فردية يكون فيها الإنسان ، كفرد وكامة هو مركز ومعيار كل شيء ، وجماعة إنسانية حقيقية يكون فيها كل فرد مشتركاً واعياً بأنه مسئول عن مصير الآخرين جمیعاً .

وكان عنوان كلمته «عوائق الاحوار بين الثقافات فى الحقبة ما قبل التاريخية» (أى في تاخوم عام ٢٠٠٠).

وقد قام الرجل فى البداية بتحديد النظرة الغربية للعالم من خلال مصادرها الأساسية وهى : «لا يوجد سوى مسار واحد لتطور البشرية ، وهو مسار الغرب . وينبغي تحديد موقف كل الشعوب بالنسبة لهذا المسار . فهم متظرون إذا شابهوا الغرب ، ومتخلفون إذا كانت درجة الشبه أقل».

هنا قام مستمع ، يبدو أنه أوروبى ، واع بأخذاء الماضى الغربى يطلب التعريف بالدور الذى لعبه نوع معين من الاستشراق فى

هذا التصور الواهم . ويبين أن أشهر المستشرقين ، سيلفستر دوساسي (S. de Sacy) الذى عرف جوته بحضارات الشرق ، هو الذى صاغ تصريحات بوناپرت عند غزوه لمصر وتصريحات الجنرال بورمون (Bourmont) عند غزوه للجزائر . فإلى جانب كرسيه فى الكوليج دوفرانس ، كان لديه مكتبه فى وزارة الخارجية .

أما ماكس مولر (Max Muller) ، فهو من أكثر رجال الاستشراق التقليدي أهمية ، وكان يعطى دروساً في كمبردج لتأهيل الإداريين الإنجليز في الهند .

ومدام روث بينيدكت (Ruth Benedict) هي مؤلفة كتاب جميل عن اليابان بعنوان «السيف والأقحوان» ، وقد كتبته بناء على طلب مكتب الحرب للجنرال ماك آرثر (Mac Arther) لتقوية عملية إدماج اليابان في نظام السياسة الأمريكية . . ولقد أعطاني هذا فكرة شنيعة عن الاستشراق خلقت في الرغبة في أن أصير مستغرباً ، أي أن أعمل على رؤية الغرب من خلال مجهر . «أي كما يفحص العلماء المختصون الحشرات وكما ينظر المستشرقون للبلاد غير الغربية» .

وعاد عالم الإثنولوجيا العربي إلى عرضه قائلاً : «في الواقع لم يكن هناك بلد متتطور وآخر متخلف ، كان هناك فقط بلاد سيدة وأخرى مسودة ، بلاد مريضة بسبب ثوها وأخرى مخدوعة لأننا جعلناها تتصور أن التنمية هي تقليد المرضى» . ثم استخلص من ذلك خلاصة عملية : «إن ما كان يسمى في حقبة ما قبل التاريخ «معونة العالم الثالث» لهو من باب النفاق . فبالفعل ، عملت هذه المعونة المزعومة على تفاقم الاختلال في التوازن وعدم التكافؤ» .

والعلاج الوحيد من الهيمنة الغربية كان يمكن أن يكون هو نفسه نهاية النموذج الغربي في النمو . ولو أردنا مساعدة العالم الثالث ،

ينبغي أولاً تغيير هذا النموذج في النمو. لأن هذا النمو لا يقبل التعميم على مستوى الكون، إذ طبقاً لهذا النموذج يكون نمو جزء من الإنسانية ليس ممكناً إلا عبر تخلف كل الآخرين سواء بالغزو أو السلب أو التبادل غير المتكافئ، كما هو الحال في زمن الاستعمار، أو بالتجارة الحرة، أي حرية الأقوياء في ابتلاع الضعفاء.

وكان المتحدث العربي يعطي أمثلة على ما يسميه «الشريخ المتنامي في عالم ما قبل التاريخ». إن التاريخ الإنساني الحق، من وجهة نظره، يبدأ بتنمية تضامنية، لا يحقق وحدة إمبريالية للعالم يُطلق عليها العولمة، ولكنه وحدة سيمفونية يقدم فيها كل شعب مساهمة ثقافية الخاصة وتاريخه وعمله مستبدلاً باقتصاد السوق اقتصاداً تبادلياً.

وهكذا تفاقم اختلال التوازن في نهاية القرن العشرين؛ فيبين عامي ١٩٨٠ و ١٩٩٠ انخفض مستوى المعيشة في أمريكا اللاتينية ١٥٪ . وفي إفريقيا ٢٠٪ .

الحل الوحيد المتصور، حسب مشورة كسينجر لرئيس الولايات المتحدة (وقد رجع المتحدث إلى تقرير كسينجر للرئيس فورد حول الخطر الذي تمثله زيادة المواليد في العالم الثالث على الأمن القومي للولايات المتحدة : NSSM 200) هو أن يقال لشعوب القارات الثلاث: حددوا النسل حتى نتمكن من الاستمرار على راحتنا في السياسة المترتبة على هذه السياسة الديموغرافية. وهي عملية تعقيم جماعي ضخم في العالم الثالث.

إلى هذه الدرجة من البربرية وصل النظام السائد في حقبة ما قبل التاريخ، أي ما قبل منتصف القرن الحادى والعشرين.

وانتهت الجلسة الأخيرة بعرض فيلمين من الأرشيف. وكانا يلخصان، وكأنهما مجاز، نهاية القرن العشرين.

وهما الفيلمان الأكثر تكلفة في تاريخ السينما، (لو جمع المال المستثمر فيهما وفي إرسال سفينة فضائية للقمر، لكان قد أمكن إنجاز ما لم نتمكن من إنجازه إلا بعد نصف قرن من ذلك الزمان، وهو إعادة تخصيب الصحراء).

الفيلم الأول، حديقة الديناصورات، يشير إلى غابة الديناصورات «حيث الأقوباء يلتهمون الضعفاء». والآخر عنوانه «تيتانك».

* * *

وانطلاقاً من هذا الحلم سيطر على همان:

- كيف وصلنا إلى هنا؟

- كيف يمكن تصحيح الخطأ في المسار؟

باختصار: ما العمل؟ كيف نخرج؟

موضوع هذا الكتاب هو الإجابة عن هذه الأسئلة.

الفصل الثالث
الغرب طارئ شطر العالم
إلى ثلاثة أشطر

لقد تم تصدُّع العالم على ثلاَث مراحل أساسية، كل واحدة منها مميزة بوصفها شطراً من الغرب.

الانشطار الأول : حدث في الفترة من القرن السادس إلى القرن الخامس قبل ميلاد المسيح . وقد تأسست على الاعتقاد في الاستثناء الإغريقي والاستثناء اليهودي . لقد عاشت الثقافة الإغريقية حتى الحروب الميدية^(*) في انسجام مع كبرى حضارات الشرق . ومن أطلقنا عليهم فلاسفة قبل سقراط لم يكن لهم من الإغريقية سوى اللغة ، وكانوا يعيشون في آسيا الوسطى في ضاحية إمبراطورية الفُرس .

وحدث الاحتكاك بالرؤى الكونية الكبرى لآسيا ، وخصوصاً رؤى الهند وفارس ، التي كانت لا تفصل العقل عن التأمل المرتبط بالطبيعة والبشر والألهة .

وعندما جاء سقراط وتابعوه ، وخصوصاً أفلاطون وأرسطو ، حدث الانشطار وأصبح للفلسفة موضوع وحيد هو الإنسان ، منفصلاً عن الطبيعة (التي كان التعامل معها من اختصاص العبيد) وعن الله .

(*) حروب طويلة استمرت طوال النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد بين أثينا الصاعدة وإمبراطورية الفُرس ، وانتهت بانتصار أثينا ، ثم فتوحات الإسكندر الأكبر المقدوني ، بعد ذلك .

والشعراء الذين طردهم أفلاطون من جمهوريته قد أسلموا أمرهم للميثولوجيا التراجيدية، وترك الشعب للوثنية ولآلهة مشخصة لشهواتهم في القوة والمنفعة.

وبينما نسائهم لما استعاروه من آسيا (ومن إفريقيا فيما بعد ومن باقى العالم عبر الإسكندرية)، كانوا يُعدون كل ما لا ينتمي للعالم الإغريقي وكل من لا يتكلم لغتهم برابرة، خالقين بذلك من هذه العزلة الاصطناعية الهائلة أسطورة العجزة اليونانية.

في الفترة نفسها، حدثت القطيعة نفسها في الشرق الأدنى، المسكون منذ قرون بموجات متتالية من البدو المهاجرين من الصحراء الواقف في شبه جزيرة العرب ليستقرّوا على أراضي الهلال الخصيب.

وهنا كانت قبائل الفلاحين بلا أرض – الذين كانوا يسمون «عابرو» (habiru) (وهو أصل محتمل لكلمة عبرانيين) – مشتتة، كما بينت حفريات ماري^(*) في الهلال الخصيب وألواح تل العمارنة في مصر. ثم نجحت هذه القبائل في تكوين اتحاد ثم دولة تسللت إلى أرض كنعان، وأسست فيما يليه، إمبراطورية (حسب الكتاب المقدس وحده، دون أي مصدر كتابي أو أثري آخر). وجاء أول ذكر لهذه القبائل في نصوص خارجية (آشورية) ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد، أو كتابات الملك سليمان وريث الإمبراطورية العبرانية الأسطورية للملك داود، وقد سجل هذه القبائل كتابةً كل الإرث الشفهي الذي استمر لقرون عديدة والذي يتبع الماضي الأسطوري لهذه القبائل ولمؤسسها، معطية إياه مضموناً تاريخياً ومذهبياً في آن.

(*) حفريات اكتشفها عالم الآثار بارو Parrot في مدينة ماري بسوريا على نهر الفرات، وترجع إلى العصر البابلي والأشوري.

الفكرة الرئيسية التي نخرج بها من كل هذه التجميعات، هي أن هناك سلفاً هو إبراهيم، بالرغم من أنه قد وصف بأنه آرامي (وهو ما يعني «سوري») قد تلقى من الله أرضًا موعودة (الأرض التي غزاها داود أبو سليمان).

منذ هذه اللحظة، أي شخص لا ينتمي لثلاثي عشرة قبيلة لا يمثل جزءاً من الشعب المختار من الله عن طريق هبة الأرض والوحى بالشريعة. هكذا وجد الآخرون أنفسهم، كالبرابرة بالنسبة لليونان، مطرودين من الحضارة الوحيدة الحقيقة: الحضارة اليهودية.

وبعد تسع قرون، جاء المسيح، ودعوته الكونية التي حشدت أكبر طاقة في تاريخ البشر والآلهة، تلك الآلهة التي كان يجري تصورها حتى ذلك الحين على أنها ملوك جبابرة. وفتح الطريق أيضاً لحياة مبدعة بتحطيم الممنوعات القديمة وخصوصية الشريعة، وبقطيعة مع المفهوم القبلي والوثني لإله جزئي ومنحاز قد اختار شعباً محدداً، مذكراً بأن الله هو أبو كل البشر. وكان هناك رجل يعرف جيداً كلتا الثقافتين وهو بولس الطرطوسى (*). وقد انجز توليفة منادياً فيها بزعامة يسوع (Charisme)**. ويلور مذهبًا لا يرجع أبداً إلى كلمات يسوع ومارساته في حياته لكنى يجعل من النجار الفقير في الناصرة: مسيح (باليونانية خريستو Christos) اليهود، وخليفة داود

(*) القديس بولس من طرطوس بتركيا الآن، كان يهودياً ومواطناً رومانياً معادياً للمسيح، ثم تنصر بعد رؤياه للمسيح وهو في طريقه إلى دمشق، وعلى أثر ذلك بدأ دعوته للمسيحية في مختلف أرجاء العالم.

(**) مذهب لاهوتي مسيحي يرى أن هناك دائماً أشخاصاً يصطفون لهم الله بفضل غير مرئي من أجل خير جماعة المسيحيين.

ومكلفاً بإعادة تأسيس مملكة داود من خلال عودة متصررة على الأرض تتناسى ما كان مصاحباً لظهوره الأول من التواضع والزهد، والرفض لكل سلطة.

من هذه التوليفة ولد الدين الجديد: المسيحية، والذى بعد ثلاثة قرون من الخلافات، أحل مكان الرسالة التحريرية ليسوع الزاهد (كما يقول الأب دانييلو) لاهوتاً للسيطرة. وبفضل الإمبراطور قسطنطين^(*) الذى وجد فيه أداة لتوحيد إمبراطوريته، أصبحت هذه التوفيقية دين الدولة الرسمي.

هذه الجماعة التى تحولت إلى كنيسة، وريثة بنية الإمبراطورية وهيمنتها وبيروقراطيتها، عَدَّت نفسها - بعد أن اضطهدت اليهود والهرطقة (أى من يريدون العيش كأتباع ليسوع) - بدلاً للشعب المختار، وبالتالي طرحت على نفسها واجب أن تلحق بها باقى العالم.

الانتضار الثاني: أوروبا المسيحية هذه، والتى أصبح على رأسها، حسب المصطلحات القديمة للإمبراطورية، كاهن أكبر (Pontif)^(**) رومانى، كان عليها ابتداء من القرن الخامس إنجاز الانتضار الثاني الذى عبر عن نفسه بصورة جديدة: بدلاً من الانفصال عن آسيا

(*) أول إمبراطور رومانى يعتنق المسيحية عام 313 م. وحارب التفسيرات الأخرى للإنجيل، وجمع بين السلطة الزمنية والروحية وشيد مدينة القدس وجعلها عاصمة للإمبراطورية.

(**) كان فى البداية مجلس كهنة جوبيتر فى روما. وكان يقوم بوظيفة دينية وتشريعية، ثم بعد فترة انقطاع استمرت حوالى 70 عاماً فى القرن الثالث الميلادى، أصبح قىصر روما هو الكاهن الأكبر ولم يعد مجلساً جماعياً.

وإفريقيا (وكانوا لا يزدرون يجهلون وجود أمريكا) أعطوا أنفسهم مهمة إخضاعهما معتبرين أنفسهم دائمًا الشعب المختار الجديد، والذى يحوز الدين الواحد الحق، والحضارة الواحدة الحقيقة، والذى كان لديه، وبالتالي، السلطة بل واجب تجاهل أو مقاتلة ثقافات آسيا وإفريقيا، وفرض ثقافته عليهما مستندًا دائمًا إلى السلطة السياسية والعسكرية والتى يمنحوها، فى المقابل، مبررات للمباركة.

هذا الانشطار الثانى، بعد أن أصبح إلغاء وتدميرًا، بل وقبل كل شيء سيطرة على باقى العالم وإيمانه وثقافاته المحلية، قد دام خمسة عشر قرناً، هى قرون استعمار الأمم المسيحية، حتى عندما قسم الإصلاح أوروبا إلى قسمين: الشمال البروتستانتى والجنوب الكاثوليكى.

الاشطار الثالث: حدث فى منتصف القرن العشرين بعد انهيار ودمار أوروبا بأسراها من الأطلنطي إلى جبال الأورال فى أعقاب حربين أوروبيتين (سميتا بالعالميتين لأن الأوروبيين استخدموها أبناء الشعوب المستعمرة فى القارات الثلاث كطعام للمدافع)، وانقلب محور العالم: الولايات المتحدة الأمريكية التى اغتلت بفضل احتضار كل الشعوب، ولم تهرب لنجدة المنتصرين إلا فى اللحظة الأخيرة (عام ١٩١٧ بعد معركة فرдан وعام ١٩٤٤ بعد معركة ستالينجراد) وجدت نفسها على رأس نصف الثروة العالمية.

هذه الثروة سمح لها بأن تجعل من الدولار معياراً للنقد资料， على قدم المساواة مع الذهب، كما سمح لها بأن تدعم (بشرط خضوعها السياسي) أولاً أوروبا عبر مشروع مارشال كى تجعلها من جديد سوقاً رائجة - (موسرة Solvable) - بعد دمارها فى

الحرب، ثم بعد ذلك العالم كله بواسطة صندوق النقد الدولي والذى كان له أيضا نفس الهدف فى السيطرة.

إن انهيار الاتحاد السوفيتى ، الذى كان قد خان الاشتراكية بتقليله نموذج النمو الغربى عبر اقتصاد بيروفراطى مخطط (لم يكن ليتطور إلا بواسطة سوق حرة تضمن هيمنة الأقوى والأغنى) قد سمح للولايات أن تضع لنفسها هدف السيطرة على العالم بعد أن أعادت الرأسمالية إلى عقر دار خصمها السوفيتى .

وقد حدث الانشطار الثالث فى منتصف القرن العشرين معطياً لهذه الوحدة الإمبريالية اسم العولمة .

إن رغبتهم فى التنسيط وفى تبعية اقتصadiات وسياسات وثقافات كل الشعوب، قد استبعدت منظور الوحدة السيمفونية الذى كان قد خلق الوحدة الغنية للعالم بواسطة الإخساب المتبادل لكل الثقافات، محترماً تنوعها .

بهذا المعنى يكون هتلر قد كسب الحرب : فقد تحققت الأهداف الكبرى التى وضعها لنفسه ، وإن كان ذلك قد تم بدونه ، لأنها تابع نفس المسار التاريخى لانشطارات الغرب الثلاثة .

١ - فقد عرف كيف يواصل - بالأسلوب الأكثر همجية - أطروحة انقسام العالم بواسطة امتياز الشعب المختار جاعلاً منها حكراً على الجنس الآرى ، والذى أصبح بالتالى وريثاً للتفوق اليوناني ولللاصطفاء اليهودى ، وللمسيحية التى أرادت أن تكون هي لحمة الوحدة الأوروبية وسداها وقائدة العالم .

الصيغة الهاتلرية ليست مختلفة جوهرياً عن هذه المزاعم السابقة . بل اكتمال لهذا الابتكار : أن يطبق على بشر من

الجنس الأبيض أنواع العذاب التي خصصها الاستعمار الغربي للشعوب الملونة، على سبيل المثال عبر إبادة الهنود الحمر والتجارة في العبيد السود، وهيرشيم وفينان وال العراق.

١ - تسير سياسته على خطى سياسة الغرب ومبادئها المركزية التي أدت إلى الانشطار الثاني منذ عصر النهضة، سواء تعلق الأمر بالشمولية الاقتصادية التي تعمل دون تدخل الشعب بواسطة لعبة التحكم عبر سلطة خارجية فقط، ممثلة في حكم البنوك أو الشركات المتعددة الجنسية (تنوعات أمريكية وغربية) أو سلطة بيروقراطية حزب وحيد يتباهى هو أيضا بأنه نابع من الشعب ومعبر عن وعيه (تنوع سوقيتي).

هذا التشابه وهذه الندية يفسران أنه فيما بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٩ وجد أصحاب التنوع الأول (الغربي) والذين لا يريدون على الإطلاق أى بديل اشتراكي (حتى وإن كان الاتحاد السوفييتي في الواقع خيانة له) في هتلر حاجزاً ضد البولشفية، وقد ساعدهم، وعملوا على تقوية سلطته^(٥).

بعد الهزيمة العسكرية لنهضه، والتي كان الاتحاد السوفييتي هو صانعها الأول، كتب تشرشل: «لقد قتلتنا الخنزير السفيء». ومنذ خطابه في مولتون عام ١٩٤٦ ، فتح الجبهة الجديدة للحرب الباردة، للوصول مع الولايات المتحدة، لتحقيق هدف هتلر: القضاء على الاتحاد السوفييتي .

٣ - المخطط الأخير لنهضه: السيطرة العالمية (منذ ١٠ آلاف سنة كما يقول) بواسطة التخريب البيولوجي للأجناس الدنيا . لقد تحقق هذا الهدف بواسطة عملية بربرية قام بتنفيذها وإن لم يكن قد

اختبرعها: علم الهندسة الوراثية والداروينية الاجتماعية عبر التعقيم الجماعي للعالم الثالث، وذلك باستبعادهما للأجناس الأقل قدرة، وهو ما يتم اليوم على مستوى أكبر بكثير مما كان عليه في الوقت الذي كان النازى يستخدمه فيه^(*).

إن مفهوم هتلر عن العالم قد انتصر، بعد موته، لأنّه كان في قلب منطق الانشطارات الثلاثة السابقة للغرب وامتدادها الجهنمي.

ولا يمكننا حتى أن نقول إن مشروع هتلر قد انجز بواسطة أعدائه: الهجين الإسرائيلي - الأمريكي الحالي، لأنّه إذا كان هتلر قد تحامل على اليهود الألمان الذين كانوا يريدون أن يظلو ألمانيا ويقيوا في ألمانيا ولكن، والحق معهم، في إطار من احترام دينهم وجماعتهم، فإنّ تعاونه مع الصهاينة (٥٪ من السكان اليهود المنظمين في عام ١٩٣٣) قد دام في أثناء حكمه من عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٤٤. لأن الصهاينة كانوا ينادون بالعودة إلى فلسطين (وهو ما يتوافق مع إرادة هتلر في أن يفرغ ألمانيا، ثم أوروبا من اليهود بالدفع بهم إلى جيترو عالمي في فلسطين أو في أي جزيرة إفريقية).

ومن هنا انجزت اتفاقيات هافارا، منذ عام ١٩٣٣، والتي كانت تسمح لليهود الأغنياء بالهجرة بعد وضع ضمان في بنك هامبورج، يدفع لهم في تل أبيب على شرط أن يقوم القادة الصهاينة بمحاربة المقاطعة المنظمة ضدّ ألمانيا النازية في العالم.

ومن هنا جاءت الموافقة التي منحت لمنظمة بيتار Bétar (إحدى الكتائب الصهيونية) بالعمل في ألمانيا النازية حتى عام ١٩٣٨.

(*) أراد هتلر استبعاد العناصر الأدنى ونفذ المشروع الغربي للتنمية نفس الهدف بإقناع الشعوب الأخرى بتحديد المواليد، واتبع أساليب الترغيب والترهيب - الناشر.

ومن هنا أيضا جاء اقتراح إسحق شامير في عام ١٩٤١ بالتحالف العسكري بين عصابته المسلحة زفاف لومي Zwai Lumi والجيش الهاتلری. وهو ما أدى إلى القبض على شامير من قبل الإنجليز بتهمة الإرهاب والتعاون مع العدو.

ومن هنا كان الاقتراح الشنيع الذي قدمه إيخمان Eichman لمندوبي الوكالة اليهودية، بتبادل ١٠ آلاف شاحنة مقابل مليون يهودي بشرط مزدوج:

- (أ) هذه الشاحنات لا تستخدم إلا في الجبهة الشرقية.
- (ب) أن يقوم الصهاينة بدور الوسطاء كى يحققوا سلاماً منفصلاً مع الولايات المتحدة وإنجلترا بما يسمح لهتلر القيام بجهد أخير لهزيمة الاتحاد السوفييتي^(٦).

* * *

الفصل الرابع
هتلر كسب الحرب

أيّا كان مصير هتلر الشخصي ، أو انتشاره في خندق تحت بوابة براندبورج ، فإن منطق الانشطارات الثلاثة للغرب والذى جسد انتصاره لفترة ما ، قد استمر في الانتصار بعد موته لأنّه لم يكن سوى التعبير المؤقت والهمجي عن هذا المنطق .

إن اغتيال يوليوس قيصر لم يغير المسار التاريخي لروما ، التي اتجهت سريعاً بعد موته إلى الإمبراطورية التي وضع هو أسسها . وهزيمة نابليون بعد واترلو ونفيه ، لم يمنع فرنسا من العيش قرنين من الزمان طبقاً للبني العامة التي أرساها لإدارتها ، كما لم يمنع أوروبا من أن ترى مبادئ الثورة الفرنسية تعبر عن نفسها في كل مكان . وهي التي ضمن لها روبسيير ذو الحصان (كما كان نابليون يسمى نفسه) الانتصار عبر الحرب .

ما زالت النازية فلّاكاً غريباً في سماء أوروبا ، وهبوطاً استثنائياً وغير معقول للشيطان ، هذا إذا لم نر فيها تعبيراً همجياً عن منطق النظام الذي يسعى له الغرب بعد الانشطارات التي حطمت وحدة العالم . وفي الوقت نفسه أعطت «كاريكاتور» لسيطرة الشخص الواحد .

وقد تبنى هتلر تماماً (في شكل جديد، ذلك الشكل الذي أعطاه لها والمماطل للشكل المسيحياني (messianique)^(*)) لقوميات القرن التاسع عشر، وتنظيرات الكونت دو جوبينو Comte de Gobineau عن الأجناس والتزعة الآرية) الفكرة السائدة عن الجنس المختار، في طبعته العبرية ثم المسيحية، كما في الطبعة اليونانية – الرومانية: شعب تلقى وعداً بسيادته على العالم، على الأميين (goyis)^(**) أو على الكفار أو على البرابرة، أى على من هم أدنى منه في الدم والدين والحضارة.

باسم نفس المسيحانية المنقذة، أعلن هتلر ألف عام من النازية، كسيطرة، وكإعادة تجديد للعالم بواسطة نقاء الشعب المختار الجديد: الآريون.

لقد تبنى هتلر، المسلم الأساسية للانشطار الثاني: العلم يعد بحل كل المشكلات، بما فيها تلك التي تنسب إلى الله منذ زمن طويل. على سبيل المثال تطور الإنسان عبر داروينية اجتماعية تسرع من عملية الانتخاب الطبيعي من خلال الانتخاب الصناعي، الذي هو من عمل الإنسان، أى عبر الهندسة الوراثية، وفي هذا المجال لم تبدع همجية هتلر شيئاً جديداً.

(*) مسيحيانية اسم يطلق على ركن من أركان الديانة اليهودية الذي يتبنّى بظهور المسيح المخلص، كما يطلق على أي نزعة دينية تتضرر من يأتي ليملأ الأرض عدلاً مثل رجعة المسيح والمهدى المنتظر، كما أنها تطلق أيضاً بمعنى مجازي على الفلسفات والمذاهب التي تعد بتحرر البشر عبر إنجاز أمة معينة أو طبقة اجتماعية لرسالتها التاريخية.

(**) الجويسم goyim هو الاسم الذي يطلقه اليهود على جميع الشعوب الأخرى، وحسب العديد من الدراسات اللغوية فإن كلمة أميين هي ترجمة لهذه الكلمة في اللغة العربية.

في القرن العشرين، وخصوصاً بعد الأزمة العالمية الكبرى عام ١٩٢٩، ظهرت كل أشكال المalthوسية الجديدة^(*)، والداروينية الاجتماعية القائمة على حرب الجميع ضد الجميع كما قال هوبرز، وعلى قانون السكان المalthوس وعلى الانتخاب الطبيعي لدارون وبقاء الأصلح لسبنسر.

إن الهندسة الوراثية التي تعنى التطبيق الواعي للانتخاب الطبيعي لدارون على الإنسان باستبعاد الأقل صلاحية، ليست مذهبًا هبط من السماء مع هتلر. إن الديمقراطيات الليبرالية، منذ مalthوس، والتي تبشر بالدفاع عن حقوق الإنسان هي رائدة هذا الاتجاه، وهي التي تمارسه، إنجلترا أولًا ثم الولايات المتحدة. ففي عام ١٩٠٢ أصدر الإنجليزيان بارسون وجالتون صحيفة بيومتريكا (Biometrika) التي أثارت مذاهبها في الهندسة الوراثية حماسة برنارد شو الذي كتب في «الإنسان السوپرمان»: «نحن نعرقل لعبة الانتخاب الطبيعي لنقص في الشجاعة تحت قناع من حب الإنسانية. ولأننا كسولون نهمل الانتخاب الصناعي تحت غطاء من الحساسية والأخلاق». كما ينادي هـ. جـ. ويلز بتعقيم الفاشلين.

وفي الولايات المتحدة، تم أول تشريع چيني في العالم، وفي عام ١٩٠٧ صدقت ولاية إنديانا على قانون بتعقيم المجانين والمتخلفين

(*) نسبة إلى مalthوس عالم السكان الإنجليزي في القرن التاسع عشر، الذي كان يرى أن الموارد تزيد بمتوالية حسابية، في حين أن السكان يزيدون بمتوالية هندسية، وهو ما يجعل الموارد غير كافية ويفتح الباب أمام المخروب والإبادة كحل للمشكلة. وقد رد عليه ماركس وأرجع المشكلة إلى نظر الإنتاج وسوء توزيع الموارد. ولكن في النصف الثاني من القرن العشرين عادت المalthوسية للظهور من جديد.

عقلياً ومرضى الصرع . وفي عام ١٩٥٠ تبنت ٣٣ ولاية أمريكية قوانين مشابهة ، وأجريت ٥٠ ١٩٣٥ حالة تعقيم .

في البلاد الإسكندنافية حدث الأمر نفسه . وفي عام ١٩٩٧ ، تبين أن هذا النظام الهمجي قد تم تطبيقه في السويد . فمن قبل ، وفي عام ١٩٢١ قال وزير الثقافة : «من حسن حظنا أن لدينا الجنس الأقل اختلاطاً ، جنساً يحمل أرقى الخصائص الإيجابية» .

لقد أدانت صحيفة لوموند في ٢٧ من أغسطس عام ١٩٩٧ سياسة السويد الچينية التي أدت إلى تعقيم إجباري لـ ٦٠ ألف شخص . وتذكر بأن فئة رجال السياسة في تلك الفترة كانت تعتقد في مزايا الهندسة الوراثية ، التي كانت على الموضة في العديد من بلدان أوروبا والتي تتماشى ولسبب وجيه مع عار الأوامر الهاتلرية في هذا الصدد . ولتكنا ننسى التذكير بأن وراء منظر هذه الممارسة الشنيعة رجال السياسة الأميركيين وعلى رأسهم كيسنجر :

وفي عام ١٩٣٤ كتب عالم الاقتصاد جونار مير DAL (Gunner Myrdal) في كتاب «أزمة الديموجرافيا» : «المشكلة مطروحة على كل الأفراد الذين هم ليسوا كاملين تماماً ، والذين هم في ظل الحياة الحديثة يجدون صعوبة في الاعتماد على أنفسهم ليعيشوا . فعشرون السكان بل خمسهم مهددون بالقضاء عليهم في هذا القتال التنافسي الصعب . وبمعالجة هذه المشكلة المتعددة ، علينا ألا ننسى أن التطور التكنولوجي والتنظيم الاجتماعي المرتبط به ، يميل إلى أن يرفع باستمرار المستويات المطلوبة في الذكاء والشخصية . والحل هو : الاستبعاد الجذرى للأفراد غير القادرين على العيش ، وهو ما يتحققه التعقيم» .

ومن المستحسن الوصول إلى هذا الإجراء بشكل «طوعي»، ولكن إذا بدا ذلك مستحيلاً، فينبغي تقوية القوانين الخاصة بالتعقيم، أو حق مؤسسات المجتمع في تعقيم الأشخاص برغم أنفهم.

وبعد الحرب، عُدَّ مير DAL في الخمسينيات والستينيات خبيراً عالمياً في الاقتصاد والسكان، وأصبح مستشاراً للبنك الدولي بل أهلة ما سبق لأن يحصل عام ١٩٧٤ على جائزة نوبل !

وبعد الأضطرابات في عام ١٩٦٨ ، حازت الماليتوسية الجديدة والداروينية الاجتماعية على بعث جديد: لقد أصبح الفقراء بشراً زائدين عن الحاجة ، وخصوصاً في بلاد العالم الثالث . والحل الأكثر سهولة هو التخلص منهم .

ولهذا قام الجنرال دراپر (Draper) أحد مدیری شرکة دیلون Dillon ، وابنه مدیر بنك الاستيراد والتصدير ، أمام رونالد ریجان في ربيع عام ١٩٧٩ بمقارنة الشعوب المختلفة بالمحميات الطبيعية في كروجر پارك بجنوب إفريقيا :

«لقد زادت الفيلة عن الحد ، وبدأت تكسر الأشجار وتحرم الحيوانات الأخرى من الطعام . وقرر حراس المحمية (rangers) أن يخفضوا بعض الأنواع ليحافظوا على التوازن البيئي » .

ولكن من هم حراس محمية الجنس الإنساني؟!

وفي ٢٦ من نوفمبر عام ١٩٧٥ قدم هنرى كسينجر وزير الخارجية وبرنت سکوکروفت لرئيس الولايات المتحدة مذكرة عن قرار ٣١٤ لمجلس الأمن القومي حول ما يتضمنه نمو السكان العالمي من أخطار على الأمن القومي للولايات المتحدة ومصالحها عبر البحار^(٧) .

والمصدر هنا هو مؤتمر المستقبل الكوني عام ٢٠٠٠ (Global 2000) الذي قدم تقريراً إلى الرئيس عن حدود الزيادة السكانية (١٩٧٢) يتجاوز فيه البيان الشهير لنادي روما والذي كان يطالب بتحفيض الزيادة السكانية وفي نفس الوقت زيادة الإنتاج. وقد اقترح مؤتمر المستقبل الكوني ما يلى : أن يتم فرز سكان الجنوب لأن مرحلة النمو التكنولوجى هى السبب الأساسى فى الزيادة السكانية .

ويمكن أن يتم الفرز بواسطة ضغوط اقتصادية: معدل زائد للفائدة فى البنك الفيدرالى الاحتياطى فى الولايات المتحدة، والأهم من ذلك الشروط السياسية لصندوق النقد الدولى (F.M.I).

إن وثيقة الأمن القومى 200 NSSM تضع تصوراً مستقبلياً لإجراءات نشطة لإجبار البلاد المختلفة على قبول تحديد النسل، وبالأساس حرمانها من الغذاء .

«هناك سوابق واضحة ، إذا أثبت بلد حسن إرادته فيما يخص تحديد النسل ، فإننا سنأخذ هذا المسلك فى الحسبان عندما تأتى اللحظة لتقييم ما يحتاج إليه من معونة من (البنك资料 الدولى) والهيئات الاستشارية الأخرى».

«وبما أن النمو السكاني هو الذى يحدد الاحتياجات الغذائية، فينبغي أن نأخذ فى الحسبان، عندما يتعلق الأمر بتوزيع الموارد المحدودة، الإجراءات التى اتخذها هذا البلد أو ذاك، ليس فقط من أجل إنتاج الغذاء، ولكن أيضاً من أجل تحديد النسل. فى مثل هذا.

المجال الحساس علينا تجنب أن نعطي انتساباً بأننا نستخدم طرقة من العقاب، سواء في الشكل أو في المضمون».

ويرى تقرير «الأمن القومي ٢٠٠» أنه سيصبح من الضروري فرض برامج إجبارية، وعليها أن تفك في هذه الاختيارات من الآن (...). هل الغذاء سيُعدّ أداة للقوة القومية؟ هل سيعين علينا أن نختار بين أولئك الذين يمكننا مساعدتهم بشكل معقول؟ وإذا كان الحال كذلك، فإن التحكم في المواليد ينبغي أن يصبح أحد المعايير لتسليم معوناتنا. هل سكان أمريكا أنفسهم مستعدون لقبول أن يصبح غذاؤهم حصصاً تموينية لمساعدة الشعوب التي تحتاج إليها، لكنها لا تستطيع التحكم في زيادتها السكانية؟

وفي الصفحة ١٣٨ يؤكد تقرير ٢٠٠ أن هناك خبرات متضاربة، لكن ناجحة تماماً في الهند، حيث إنه بعد منح مزيد من المساعدات المالية ومكافآت أخرى قبل كثير من الرجال الهنود أن يعمموا.

هذه الإبادة الوقائية (والتعبير لمنظمة اليونيسيف Unicef) قد تم وضعها بصورة عامة ومنظمة في العالم الثالث: فيكشف مدير مدرسة بوليتكنيك في ريو دي جانيرو وهو بوتيستو فيدال Botisto Vidal في كتابه «السيادة والكرامة الوطنية» (ص ٢٠٢) أنه «رسمياً وحسب أرقام IBGE، قد تم تعقيم ٤٤٪ من النساء البرازيليات في سن الإخصاب».

ويؤكد التقرير الصادر بشأن السكان عن منظمة اليونيسيف في ديسمبر عام ١٩٩٢ على أن «تعقيم النساء متشر بشكل خاص في أمريكا اللاتينية وآسيا: ٣٩٪ في جمهورية الدومينيكان، ٣٧٪ في كوريا الجنوبية».

ويستتتج من كل هذه الاحصاءات أنه من الكذب أن يقال لسكان الجنوب : أنت فقراء لأن عندكم كثيراً من الأولاد . وبذلك تتم تبرئة الشمال ، بدلاً من أن تقال الحقيقة : أنت فقراء لأن الاستعمار نهب مواردكم وفكك اقتصادكم ، وإن المنظمات الناتجة عن اتفاقية بريتون وودز^(*) (Bretton Woods) ، صندوق النقد الدولي والبنك الدولي والجات إلخ ، تستمر في هذا العمل بالاحتفاظ بالتبادل اللامتكافئ في تقسيم العمل الدولي ، فارضة على الجنوب نماذج من التنمية والبني السياسية التي تلبى فقط مصالح الشمال .

بعد كل هذا يمكن التعرض لمشكلات المواليد بين الشمال والجنوب في إطار موارد العالم وتوزيعها .

وهكذا فإن وحدانية السوق تقتضي الكثير من التضحيه والقربان كأى دين من أديان الماضي .

والهندسة الوراثية لم تولد في ألمانيا عام ١٩٣٣ مع وصول هتلر للسلطة ، فقد اخترع ألفريد پلوتيز Alfred Ploetz مصطلح الصحة الاجتماعية . وأصدر عام ١٩٠٤ أرشيفاً عن البيولوجيا للعرق والمجتمع . . وأسس عام ١٩٠٧ منظمة الصحة الاجتماعية .

وفي مارس عام ١٩٢٥ ، تأسست الرابطة الألمانية لإعادة الإنتاج الشعبي للخصائص الوراثية والتي تولى رئاستها ابتداء من عام ١٩٣٠ آرثر أوسترمان Arthur Osterman والذي كان يوله بنك جولد سميث - روتشيلد . (وعالم التناسل ريشارد جولد سميث ، الذي

(*) مؤتمر دولي عقد في يوركشاير في يوليه عام ١٩٤٤ بخصوص التبادل المالي والتجاري العالمي ، ونشأ عنه صندوق النقد الدولي ، وباقي المؤسسات والأليات الدولية الأخرى ، مثل البنك الدولي والجات .

اضطر باعتباره يهوديا في المنفى إلى نشر كتاب في البيولوچيا عام ١٩٢٧ : "Ascaries" ينادى فيه بتعقيم المتخلفين والمرضى).

وفي زمن جمهورية فايمار (*) Weimar في أثناء انفصال الثاني من يوليو عام ١٩٣٢ ، دافع أربعة أطباء اشتراكيين في المجلس البروسي للصحة (ومن بينهم أوسترمان Ostreman) عن قضية التعقيم. وعلى نفس المائدة المستديرة كان هناك ممثلون لرابطة الأطباء النازيين (دكتور كونتي Conti) ممثلون للمنظمة اليهودية للصحة . وقد صدق وزير الداخلية فيلهلم ثون جايل Wilhelm Von Gayl على المشروع الذي قدمه المجلس . وكانت قوانين النازى التي اقرّت عليها بعد ذلك هي النتيجة المنطقية لهذه الحركة .

وهذا يعني أنه في هذا المجال من انعدام الإنسانية ، كما في أي مجال آخر ، كان النظام النازى يسير مع منطق شناعة النظام الرأسمالي ، كما كانت أيضاً بعد ذلك بعده سنوات مساعدة الولايات المتحدة لپينوشيه والجنرالات الجلادين في الأرجنتين والبرازيل ، وفرق الموت التي شكلوها ، يسايرون نفس النظم .

لقد كانت العنصرية الهاتلرية الرهيبة هي الصيغة القصوى لخمسة قرون من الاستعمار ، حيث كانت عمليات الجستابو تطبق على الشعوب الملونة كما تطبق على السلافيين واليهود والمعارضين ورجال المقاومة .

(*) جمهورية فايمار ، أعلنت في ألمانيا عام ١٩١٨ بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وتنحى الإمبراطور غليوم الثاني . وكانت جمهورية ذات اتجاه اشتراكي معتدل ، وقد وقعت في أزمات اقتصادية عديدة كالبطالة والتضخم وكذلك صعود القومية المتطرفة ، مما أدى إلى انتصار النازى والقضاء على هذه الجمهورية .

هذا المِنْطَقَةُ التَّارِيْخِيَّةُ لَا غُنْيٌ عَنْهُ مِنْ أَجْلِ فَهْمِ التَّارِيْخِ، بَدْلًا مِنْ أَنْ نُرَى أَنَّ هِتْلِرَ كَانَ وَحْدَهُ مُخْتَارًا مِنْ قَبْلِ الشَّيْطَانِ، وَأَنَّ هُنَاكَ مُخْتَارِيْنَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ نَتْيَجَةً سَرِّ لَا يُمْكِنُ لِلتَّأْمِيلِ النَّقْدِيِّ أَنْ يَسْبِرَ غُورَهُ.

أَمَا فِيمَا يَخْصُّ الْاِنْشَطَارِ الثَّالِثِ وَالذِّي يَتَعَلَّقُ بِالسِّيَطَرَةِ عَلَى الْعَالَمِ، فَهُوَ يَنْضُوُ تَحْتَ الْمَشْرُوعِ الْهِتْلِرِيِّ لِلسِّيَطَرَةِ عَلَى الْعَالَمِ وَالذِّي لَمْ يَتَحَقَّقْ بِسَبِّبِ تَأْخِيرِ هِتْلِرِ فِي اِمْتِلاَكِ السَّلَاحِ الذَّرِّيِّ، وَالذِّي لَمْ يَكُنْ لِيَتَوَرَّعَ عَنْ اِسْتِخْدَامِهِ ضِدَّ الْاِتْحَادِ السُّوْقِيِّيِّ أَوْ إِنْجِلْتَرَا، مُثْلِمًا لَمْ يَتَوَرَّعْ تِرْوِمَانُ عَنْ تَدْمِيرِ السُّكَّانِ الْمَدْنِيِّينِ فِي هِيَرُوشِيمَا وَنَجَازَاكِيِّ، وَلَا تَشْرُشُلُ عَنْ اِسْتِخْدَامِ قَنَابِلِ الْفَوْسَفُورِ فِي قَتْلِ السُّكَّانِ الْمَدْنِيِّينِ فِي دِرْسَدَنِ (١٣٥ْ أَلْفَ قَتِيلٍ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ). وَفِي كُلَّتَيِ الْحَالَتَيْنِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيْ ضَرُورَةٌ عَسْكَرِيَّةٌ، حِيثُ كَانَ إِمْپَراَطُورُ اليَابَانِ قَدْ بَدَأَ فَعْلَةَ الْاسْتِسْلَامِ، وَكَانَتِ الْقَوَافِلُ الْأَلْمَانِيَّةُ قَدْ أَخْلَتَ بِالْفَعْلِ دِرْسَدَنَ وَتَجَاوِزَتْهَا الْجَيُوشُ السُّوْقِيِّيَّةُ.

إِنَّ أَهْدَافَ السِّيَطَرَةِ عَلَى الْعَالَمِ، وَالَّتِي كَانَتْ هِيَ نَفْسَهَا أَهْدَافَ هِتْلِرِ، قَدْ تَمَّ تَحْقِيقُهَا بِطَرِيقَةٍ لَمْ يَتَوَقَّعُهَا أَحَدٌ، وَلَكِنَّ هِتْلِرَ كَانَ قَدْ خَلَقَ شُروُطَهَا الْأَسَاسِيَّةَ: اِتْحَادُ سُوْقِيِّيَّتِيِّيِّيْنَ مِنْهُكُمْ بِشَدَّةٍ بِسَبِّبِ حَرْبِ كَانَ قَدْ تَحْمَلَ أَشَدَّ أَعْبَائِهَا، وَأُورُوپَا مَدْمُرَةٌ عَلَى أَرْضِهَا وَغَيْرُ قَادِرَةٌ عَلَى الاحْتِفَاظِ بِتَحْكُمِهَا الْاسْتِعْمَارِيِّ فِي بَاقِيِ الْعَالَمِ.

لَقَدْ تَمَّ تَطْبِيقُ الْبَرْنَامِجِ الْهِتْلِرِيِّ لِلسِّيَطَرَةِ عَلَى الْعَالَمِ نَقْطَةً فَنَقْطَةً: بِدَءُّا مِنْ انْهِيَارِ اِتْحَادِ السُّوْقِيِّيَّةِ ثُمَّ تَبَعِيْةُ أُورُوپَا وَمَحاوْلَةُ غَزوِ الْأَجْنَاسِ الْأَدْنِيِّ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ.

وَقَدْ تَمَّ ذَلِكَ بِوَاسْطَةِ خَصْبُومِ هِتْلِرِ الْمُؤْقَتِيْنَ فِي الْغَرْبِ، وَالَّذِينَ كَانُوا قَدْ حَبَذُوا صَعْوَدَهُ إِلَى السُّلْطَةِ حَتَّى عَشِيَّةِ الْحَرْبِ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَرُونُ فِيهِ

«حاجزاً ضد الاتحاد السوفييتي» (إمداد بالحديد والصلب من فرنسا، قروض من إنجلترا، والإعداد في عام ١٩٣٩ لحرب إنجليزية فرنسية ضد الاتحاد السوفييتي من فنلندا إلى القوقاز، مع وايجاند Weygand^(*)). وفي أعقاب الحرب قاموا باستخدام أفضل خبرائه (فون براون Von Braun للصواريخ، فون جيلين Von Gehlen للمخابرات في الشرق) لكي ينجزوا بوسائل أخرى (هذه المرة وسائل الليبرالية الشمولية والتي تساندها القوات المسلحة وقت الحاجة) حلم هتلر في السيطرة على العالم.

هذه الليبرالية الشمولية التي تعد تمويهاً للتوجه الاستعماري الجديد الموحد بواسطة تبعية الإمبراطوريات القديمة في أوروبا (إنجلترا وفرنسا، إلخ) لم تتوقف عن تأكيد انشطار العالم، ليس فقط بزيادة بؤس الجنوب، ولكن أيضاً بالعمل على تفاقم البطالة والتهميش في أوروبا.

إن نظام الملكية المطلقة للدولار قد تم إكماله بواسطة ديكاتورية الذرة وأسلحة أخرى. وقد أنجز انشطار العالم بواسطة التصور الشيطاني لعدو محتمل: بالأمس كانت البولشفية (والتي كان هتلر هو الدرع الواقية ضدها)، ثم كان انقسام أوروبا إلى شرق وغرب وال Herb الباردة ضد إمبراطورية الشر. لكن حدث انحراف الاتحاد السوفييتي الذي اتخذ اتجاهًا مخالفًا لماركس بتبنيه لنموذج النمو الغربي والذي تسبب في التعجيل ب نهايته. ثم كان التعارض

(*) چنرال فرنسي كان رئيساً لغرفة عمليات البحر المتوسط عام ١٩٣٩، ثم وزيراً للدفاع في عهد نظام فيشي (١٩٤٠).

بين الشمال والجنوب ضد إمبراطورية شر جديدة تهدد هي أيضاً، على المستوى العالمي، أمن المالكين والغذاء: وأصبح الإسلام مرادفاً للإرهاب وذلك من خلال خلط لغوي (سيمانطيقي) بين المقاومة والإرهاب.

المرحلة الأولى هي تبعية أوروبا، فأوروبا عام ١٩٩٨ هي بلد محظوظ.

أوروبا خاضعة لاحتلال مالي

تشحّم الأسواق أكثر فأكثر في الحكومات بفضل سياسة مستمرة من الخصخصة ومن التحلل المالي ووجود هيئات أجنبية كبرى ولا سيما أمريكية، تأخذ أنصبة متصاعدة من ثرواتنا.

ولن نستشهد إلا بأمثلة فرنسية.

صناديق ويلنجتون Wellington هو أول مساهم في شركة رون - پولان Rhône Poulenc . والصناديق الأمريكية لازار وتمبلتون Lazarus et Templeton تسلّل إلى شركة رون - پولان وشركة پشيني Pechiney وصار هو المساهم الأكبر فيها مع شركة فيديلتى Fidelity . وفي شركة شنايدر Schneider يرى المدير المالي لمجموعة كلود پيسان C.Pessin أن «رأسمالنا» من الآن فصاعداً سوف يستحوذ على نسبة ٣٠٪ منه مستثمرون أجانب، كما يمثل الاستثمار الأجنبي ٣٣٪ من رأس المال بنك بارى با Paris Bas و ٤٠٪ من شركة لافارج La farge للأسمنت و ٣٣٪ في شركة سان جوبان Saint Gobain و ٢٥٪ من شركة الليونز Lyonnaise للمياه و ٤٠٪ من شركة التأمين الفرنسية العامة A.G.F إلخ.

وفي ١٩ من نوفمبر عام ١٩٩٦ كتب إريك إسرائيليفتش Irac Izraelevicz في صحيفة لوموند أن «ما يفقأ العين هو أ Fowler الوطنية الصناعية في فرنسا . . . يمكن للمؤسسات الأجنبية من الآن أن تشتري كل الدرر الصناعية دون أن تستثير أي رد فعل».

باختصار، تتجه الصناعة الأوروبية إلى أن تصبح تحت قيادة الصناعة الأمريكية؛ فأى دولة عضو في المنظمة العالمية للتجارة OMC (عدا الولايات المتحدة التي تسمح لنفسها بكل شيء بما في ذلك أن تمد قوانينها الخاصة إلى المجال الدولي بالإكراه، مثل قانون هيلمز-بورتون Helms-Burton، الذي يمنع الاستثمار في كوبا، وقانون داماتو Damato الذي يمنعه في إيران ولibia) لا يمكنها مثلا:

- أن تحد من وارداتها الزراعية، ولا أن تدعم صادراتها.
- أن ترفض تأسيس شركات متعددة الجنسية، وهي التي يجب أن ينطبق عليها نفس شروط الصناعات الوطنية.

إن كل محاولة من بلد ما لانتهاك هذه الأوامر تجعله جانحة يستحق عقوبات اقتصادية وتهديدات رهيبة بالسلاح. والبلاد الخاضعة لشروط صندوق النقد الدولي تعرف جيداً ما كلفها هذا الانتهاك من تمردات وموته (من الجزائر عام ١٩٨٨ إلى إندونيسيا عام ١٩٩٨).

والتيار السائد لدى الاقتصاديين الرسميين ورجال السياسة هو الذي يدافع عن الليبرالية بلا حدود، داعياً إلى تلاشى الدولة أمام قوة السوق الكبرى، كى لا تقوم أى عقبة في وجه الاحتلال الاقتصادي. والأحزاب الاشتراكية والشيوعية على تنوعها تسير في نفس الاتجاه، وإن تسترت بورقة توت من اللغو حول العدالة وتوزيع أفضل للدخل والأعباء.

وفي كلتا الحالتين لا يوجد مخرج سوى النمو في أوروبا (ويقولون أوروبا أخرى) ودون أي محاولة للخروج من المنظور الغربي .. وبخدمتهم يهلون لكتاب فيفيان فورستر Viviane Forrester «الرعب الاقتصادي» جاعلين منه أكثر الكتب مبيعاً دون تحديد أي منظور واقعي للخروج، إذ يوجد رفض لتحديد المحتل أو تحديد لأفق عالم آخر في طور التكوين، أو لأى نماذج أخرى للتنمية.

أوروبا خاضعة للأحتلال السياسي

منذ التصديق على معاهدة ماستريخت^(*) أصبح أكثر من ٧٠٪ من القرارات السياسية المصيرية لا تصدر عن البرلمان، وإنما عن المجموعة الأوروبية المكونة من التكنوقراطيين في بروكسل (عاصمة الاتحاد الأوروبي)، وهم ليسوا مسئولين إلا أمام ١٢ رئيس وزارة يجتمعون عدة ساعات كل ستة شهور لكي يصدقوا على التوجهات التي تقرر مصير ٣٤٠ مليونا من الأشخاص.

أوروبا ماستريخت هي أوروبا أمريكية.

وفي النص نجد نفس الصيغة التي تقرر ذلك مكررة ثلاث مرات.
«هدف (المعاهدة) هو تنمية الاتحاد الأوروبي الغربي كوسيلة لدعم أوروبا لحلف الأطلنطي». (ص: ٤).

ولكى لا يخدع أحد بخصوص هذه التبعية الأوروبية لأمريكا، فإن التصريح الأول يقرر أن الدفاع المشترك المفترض ينبغي أن يكون

(*) ماستريخت مدينة صغيرة في هولندا تحمل اسمها اتفاقية الاتحاد الأوروبي والتي أقرت حرية انتقال السلع والأفراد والعملة الأوروبية الموحدة.

متواافقاً مع حلف الأطلنطي (الفقرة ١) وينبغي أن يظل في إطار الاتحاد الأوروبي الغربي وحلف الأطلنطي، وأن «الحلف سيبقى الصيغة الأساسية للتشاور». (ص: ٤).

لا يتعلّق الأمر إذن بتدعيم ميزان قوى ولكن فقط يجعل أوروبا عنصراً في السياسة الخارجية الأمريكية.

إن أوروبا ما استریخت تقع في سياق سياسة السيطرة العالمية للولايات المتحدة. وفي ٨ من مارس عام ١٩٩٢ نشرت صحيفة نيويورك تايمز وثيقة صادرة عن الپيتاجون نقرأ فيها:

«إن وزارة الدفاع تؤكّد أن الرسالة السياسية والعسكرية للولايات المتحدة في فترة ما بعد الحرب الباردة، تقوم على التأكّد من أنه لن يكون مسموحاً أن تقوم أيّ قوة كبرى منافسة لها في أوروبا الغربية أو آسيا».

«إن رسالة الولايات المتحدة هي إقناع الخصوم المفترضين بأنه لا حاجة بهم للطموح إلى دور أكثر أهمية ولا إلى تبني موقف أكثر هجومية، وإثناؤهم عن تحدي تفوقنا أو محاولة قلب النظام السياسي والاقتصادي القائم».

هذا التقرير يشدد على أهمية «الشعور بأن النظام الدولي تدعمه في نهاية الأمر الولايات المتحدة». ويرسم عالمًا توجد فيه سلطة عسكرية مسيطرة يجب على رؤسائها «الاحتفاظ بالآليات التي تهدف إلى تثبيط المنافسين المفترضين عن الطموح إلى القيام بدور إقليمي أو عالمي أكثر أهمية».

«عليينا أن نسعى لمنع ظهور أنظمة أمن أوروبية خالصة تهدّد حياة حلف الأطلنطي».

[إنترناشونال هيرالد تريبيون، ٩ من مارس عام ١٩٩٢]

وفي التقرير النهائي لمؤتمر ماستريخت، لا يترك الإعلان حول العلاقات مع حلف الأطلنطي أى شك حول هذا الموضوع: «الاتحاد الأوروبي سيتصرف وفقاً للقرارات التي يتخذها حلف الأطلنطي».

الاتفاقية تقر بأن المؤسسات الأوروبية تنفذ سياسة عامة «لكل مجالات السياسة الخارجية». وهذا يعني «بالحرف»، كما يكتب بول ماري دولا جورس Paul Marie de la Gorce، مدير مجلة الدفاع الوطني، «أنه لن يكون هناك على الإطلاق سياسة وطنية». وهذا الإجراء يظهر على رأس المادة 1.J في البند 7 وأيضاً في المادة 4.J. من الواضح إذن أن الأمر يتعلق بأوروبا أمريكية.

ويحدث الأمر نفسه مع السياسة الاقتصادية والاجتماعية ومع السياسة نفسها. كما أطلق بوش في عام 1991 مبادرة السوق الواحدة لكل أمريكا من آلاسكا إلى أرض النار. ودعا الرئيس السنغالي عبده ضيوف الإدارة الأمريكية لتوحيد اقتصادي سريع لإفريقيا، ودعا الرئيس ريجان منذ 8 من مايو عام 1985 إلى «توسيع الاتحاد الأوروبي ليمتد من لشبونة إلى داخل الأراضي السوفيتية». وقد رحب چورچ بوش بالقرارات التاريخية التي اتخذت في ماستريخت قائلاً: «إن أوروبا وهي أكثر اتحاداً تعطى للولايات المتحدة شريكاً أكثر فعالية، قادراً على تحمل مسئوليات أكبر». وكليتون عام 1998 يحيى بحماسة إنشاء العملة الأوروبية الموحدة. إن ماستريخت تعنى انحيازاً كاملاً ونهائياً، من حيث المبدأ، واقتصاد سوق بلا حد.

وقال فاليرى چيسكار دستان على محطة التليفزيون الفرنسى الأولى في 4 من يونيو عام 1993: إنه مع تطبيق ماستريخت لن يكون هناك أى تأمين ممكن بسبب المادة A102 المزودة بمراقبة وجزاءات مادة C104.

بل إن أحد الاقتصاديين البعيدين عن العداء لاقتصاد السوق المفتوح للرأسمالية الليبرالية يقول: «المشكلة تكمن في معرفة ما إذا كان هذا الاختيار مفروضاً بواسطة معاهدة لا يمكن الرجعة فيها من حيث المبدأ، أو ما إذا كانت الشعوب ستجد من نوعاً عليها - من جراء ذلك - أي اختيار آخر».

المادة ٣ . تشدد بوضوح على هذا الحظر في العودة في القرارات التي اتخذت . ويحدد روبيير بيلتييه Robbert Pelletier المدير العام السابق للخدمات الاقتصادية في النقابة الوطنية الفرنسية لرجال الأعمال وعضو اللجنة الاقتصادية والاجتماعية في المجموعة الأوروبية ، التوقعات الآتية (صحيفة لوموند ٣ من يونيو عام ١٩٩٢) : في إسبانيا ، من الآن إلى عام ١٩٩٧ ترتفع البطالة من ١٦٪ إلى ١٩٪ ، وفي إيطاليا ، انفجار في البطالة بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ ؛ حسابات تصيب الإنسان بالدوار في اليونان والبرتغال . أما فيما يخص الفرنسيين فإننا «لا نستطيع أن نخفي عنهم لوقت طويل أن السياسة النابعة من ماستريخت تحت الصيغة الليبرالية في العودة إلى اقتصاد السوق ، هي بالفعل النموذج الرجعي بجدارة خلال الستين عاماً الماضية» .

وهكذا فإن أوروبا المندمجة في السوق العالمية التي تسيطر عليها الولايات المتحدة تقوم بإخضاع زراعتها وصناعتها وتجارتها وأفلامها وثقافتها كلها لقواعد التبادل الحر الذي يقول عنه بوضوح اقتصادي حذر مثل موريس آليه Maurice Allais : «أستبعد ، على الأقل في المستقبل المنظور ، أي اتجاه للتبدال الحر ، مثلما يحدث في التوجه الحالي» .

هناك أمثلة حديثة ومؤلمة تبرر هذه المخاوف :
أولاً فيما يتعلق بالزراعة الأوروبية ، التي اغتيلت لخدمة مصالح
 أصحاب المزارع الأمريكيان .

اتفاقيات ١٨ من مارس عام ١٩٩٢ والتي أوجت بها مباشرة الولايات المتحدة ومديرها العام الأمريكي آرثر دونكل Arthur Dun-kel قد قوضت السياسة الزراعية المشتركة PAC لأوروبا والتي كانت تسمح بمساعدة المزارعين الأوروبيين في مواجهة السوق العالمية ، تحت التهديد بإجراءات انتقامية كتلك التي مارستها الولايات المتحدة لفرض على أوروبا استيراد اللحوم المزودة بهرمونات ممنوعة لدى المجموعة الأوروبية في بروكسل .

وسرعان ما أطاعت أوروبا الأوامر الأمريكية : الاتفاقية الأوروبية الصادرة في ٢١ من مايو عام ١٩٩٢ من أجل إصلاح السياسة الزراعية المشتركة تقضي تخفيض إنتاج الحبوب عبر التویر الإجباري لـ ١٥٪ من الأراضي الخصبة وتخفيض إنتاج لحوم البقر خلال ثلاثة شهور ١٥٪ وتخفيض الزبد ٥٪ . وبالنسبة لللحوم والألبان تم إلغاء المعونة التي كانت تدفع للبقرة المدرة للبن وذلك لتخفيض الإنتاجية ، كما ينخفض سقف إنتاج الألبان ٢٪ .

هذه الضربات القاسية للزراعة الأوروبية (في لحظة يعاني فيها خمس الإنسانية من الجوع) ترك المجال مفتوحاً للحبوب الأمريكية كى تلبى الطلب الموسر Solvable . مفتاح هذه السياسة الزراعية البشعة ، هو العمل على إنزال الإنتاج والإنتاجية بتخفيض الأسعار المضمونة والمساحات المنزرعة ليبقى السوق (المسمى خجلاً

الطلب الموسر) محمية أمريكية. أما الجموع غير الموسرين، فهم مشطوبون من على الخريطة، في حين أن هناك ٨٠٠ ألف طن من لحوم البقر و ٢٥ مليون طن من الحبوب و ٧٠٠ ألف طن من الزبد ولبن البودرة، مخزونة على حساب المجموعة الأوروبية، من أجل التوافق مع النظام الأمريكي.

* * *

الصناعة الأوروبية ليست أقل تعرضاً للخطر. لقد فتحت ذريعة الاحتفاظ بقواعد المنافسة في أوروبا، إذ قام الأمين الأوروبي للمنافسة ليون بريتان Léon Brittan بمنع شركتين، إحداهما فرنسية والأخرى إيطالية من شراء شركة الملاحة الجوية في هايلاند، وذلك لمنع مجموعة أوروبية من الوصول إلى مستوى من شأنه أن يزعج الشركات الأمريكية. ومارست الولايات المتحدة ضغطاً من أجل إلا تتجاوز العرابين المالية المقدمة لشركة الطائرات الأوروبية إيرباس Airbus ٢٥٪ من السعر بدلاً من ٣٥٪ التي لا يستطيع الأوروبيون أن يقبلوا أقل منها. والأمريكيون، دعاة التبادل الحر، يهددون على سبيل الانتقام برفع الجمارك أمام شركة إيرباس لإغلاق السوق الأمريكية في وجه الأوروبيين.

وهكذا الحال في جميع القطاعات من أول المياه المعدنية، حيث يعترض ليون بريتان على شراء شركة نستله Nestlé لشركة بيرييه Perrier لكي يمنع، كما يقول، تمركز السوق في أوروبا (في حين أن الأمر في الواقع يتعلق بعدم فتح سوق تنافسي في مواجهة مع الشركات الأمريكية)، وحتى الإلكترونيات؛ وبعد الشركة الهولندية فيليبس والشركة الفرنسية - الإيطالية تومسون، تخلت الشركة الألمانية

سيemens عن آمالها الكبرى، وتركت الإنتاج الضخم لشركة IBM الأمريكية. ويمكن أن نتخيل وقع الكارثة على العمل والبطالة بسبب هذه الوصاية التكنولوجية الأمريكية.

والمثال الأبرز هو تجارة السلاح. وبعد أقل من عام من وعود چورچ بوش بمنع انتشار الأسلحة، بما فيها الأسلحة التقليدية، سمح اتفاقية عقدت في مايو عام 1991 بين البيتاجون ووزير الدفاع ديك شيني، للحكومة الفيدرالية بمساعدة المصدررين الأمريكيين في تصدير وبيع أسلحتهم. ونتج عن ذلك أن ضاعفت الولايات المتحدة عام 1991 صادراتها من الأسلحة تقريرًا، والتي كانت حرب الخليج بالنسبة لها هي دعاية غير مسبوقة.

فقد زادت المبيعات عام 1991 بمعدل ٢٣٪، ٢٣ مليار دولار في مقابل ١٤ مليار دولار سنة ١٩٩٠.

في جميع المجالات، أوروبا هي التابعة.

فلنصف أن أوروبا المكونة من ١٢ دولة (المجموعة الأوروبية) هي عبارة عن ناد للمستعمرات القدامى يتقدمهم جميًعاً: إسبانيا والبرتغال، ثم الإمبراطوريات الكبرى إنجلترا وفرنسا وبولنديكا وهولندا، ثم آخر الوافدين، ألمانيا وإيطاليا. برغم كل هذا، فلا يوجد في اتفاقية ماستريخت سوى ٢١ سطراً فقط في ٦٦ صفحة لتحديد العلاقة بالعالم الثالث. (الفصل VII، المادة 130). كلام حسن عن تنميته، وعن محاربة الفقر، لكن الأطروحة الأساسية هي إدماج البلاد النامية في الاقتصاد العالمي، أى بالتحديد إدماجها فيما يقتلها.

القوى الاستعمارية الأوروبية القديمة قد وافقت اليوم، رغم

خصوصيتها الشديدة، على سيادة الريادة الأمريكية من أجل تكوين استعمار من نمط جديد، موحد وشمولي.

هكذا تبقى أوروبا استعمارية، ولكن ملحة - كما كان الحال في حرب الخليج - بالسادة الأمريكيان.

أوروبا خاضعة لاستعمار ثقافي

لقد بينا كيف أن النظام الاقتصادي المؤسس على وحدانية السوق في الولايات المتحدة، طليعة الانحطاط^(*)، يولد العنف والجريمة، والتشرد والمخدرات، وكل أشكال غسيل المخ (بداية من موسيقى الروك حتى الساعات ذات الوحدات الصوتية الضخمة، مفرغة الشباب من كل وعي نضدي، دافعة بهم إلى البلادة والحيوانية)، ويدمر كل ثقافة. لن نتعرض بالتفصيل لهذا التحليل وسنكتفى فقط بالجانب السائد والأكثر تدميراً في الاستعمار الثقافي: السينما والتليفزيون.

وفي إطار اندفاعه منظمة التجارة العالمية والجات، ترى واشنطن وهو ليود أن الثقافة هي أحد أقسام التجارة، وتريد فرض ذلك على أساس مبادئ معلنة في وثيقة بعنوان: «الإستراتيجية الشاملة للولايات المتحدة في مجال المنتجات المسموعة والمرئية»:

* تجنب تدعيم الإجراءات التقليدية (وخصوصاً فرض نسبة دنيا لبث الأعمال الأوروبية والوطنية) والمهتم بهذه الإجراءات إلى خدمات الاتصال.

(*) راجع كتاب: «أمريكا طليعة الانحطاط» نشر دار الشروق.

* تحسين شروط الاستثمار للشركات الأمريكية بتحرير القواعد الموجودة.

* ربط الوسائل المسموعة والمرئية بتنمية مستويات خدمة الاتصال والاتصالات اللاسلكية في اتجاه إلغاء القواعد.

* التأكد من أن القضية المثارة حالياً والمرتبطة بالوسائل الثقافية لا تمثل سابقة يقاس عليها في المناقشات التي ستبدأ في أي مجال دولي آخر.

* زيادة الاستثمارات في أوروبا.

* البحث - في كتمان - عن الانتماء للمواقف الأمريكية من جانب المنفذين الأوروبيين.

ويكفي أن نقرأ برنامج التليفزيون الأسبوعي لندرك حجم الغزو. وندرك مساوئه بلحظة تناهى العنف في الأفلام الأمريكية. ومن وجهة نظر شكلية، تدهور مستوى النص لصالح المؤثرات الخاصة، لدرجة أن صغارنا تتسمم عقولهم على الرغم منهم بهذه المشاهد، فيما يسمى أفلام الحركة، تلك الأفلام التي تمتلئ بالشجار وطلقات المسدسات وتحطيم السيارات والانفجارات.

إن نصيب السينما الفرنسية في السوق الأمريكي توقف عند نصف في المائة، في حين كان نصيب الأفلام الأمريكية في مجموعة أوروبا الخمس عشرة، من ٥٦٪ إلى ٦٧٪ ويصل أحياناً إلى ٩٠٪.

وتتمثل الأفلام الأمريكية في القنوات التليفزيونية الأوروبية الخمسين (حتى لو استبعدنا شبكة الكابل والمحطات المشفرة واكتفينا بالقنوات العادية) ٥٣٪ من البرامج في عام ١٩٩٣.

وفي الموازنة التجارية للإذاعة المسموعة والمرئية الأوروبية، زادت الخسائر من مواجهة الولايات المتحدة من مليار دولار عام 1985 إلى ٤ مليارات دولار عام 1995 . وهو ما أدى إلى فقدان ٢٥٠ ألف شخص لوظيفته خلال عشر سنوات.

وللاستعمار الثقافي نفس الحجم في مجال الاستثمارات: فالشركات الأمريكية العملاقة، مثل Time - Warner - تيرنر، ABC، وDisney، ووستنجهاوس، CBC، تسيطر في أوروبا على الاستديوهات، وتزيد من شبكة صالات العرض، وهم سادة شبكة الكابل ويعقدون الاتفاقيات مع المؤسسات المحلية محتفظين بنصيب الأسد.

وقد دخلوا كمنافسين لبلاد أوروبا الشرقية، فتملكوا أغلبية محطات التليفزيون الخاصة. لقد تم ابتلاع الـ ١٤٠ احتكاراً وطنياً للإذاعة المسموعة والمرئية في أوروبا من قبل الاحتكارات الكبرى التي تبلغ ٥ أو ٦ مجموعات تحت إدارة أمريكية، وفي هذا المجال أيضاً تتسع هذه الخسائر: من ١,٢ مليار دولار عام 1988 إلى ٣,٦ مليار عام 1995 .

وتعطى الاحتكارات الأمريكية لنفسها في المنظمات الدولية دور القائد في المفاوضات من أجل تدعيم تغلغلهم عن طريق الحصول على تسهيلات لاستثماراتهم، إلى الحد الذي جعلهم يطمعون في الاستفادة من المساعدة الأوروبية وصندوق الدعم الفرنسي.

لم يتوقف استسلام المديرين الفرنسيين، منذ اتفاقيات Blum-Burnes التي عقدت في صبيحة الحرب وأخضعت السينما الفرنسية للسينما الأمريكية، حتى الاعتراضات الخجولة

للمديرين الحاليين من أجل الحصول على الاستثناء الثقافي (*) في الغابة الاقتصادية للسوق الحرة. وأخيراً في ديسمبر عام 1996 ، في سنغافورة قبل مثلكو الحكومة الفرنسية إلغاء القواعد على الألياف الضوئية والتكنولوجيا الجديدة للإذاعات المسموعة والمرئية.

لقد تأكّلت ثقافات أوروبا والعالم كله عندما انحاز مديروها إلى الأنجلو - ساكسون ، بواسطة الثقافة الأمريكية المضادة القائمة على وحدانية السوق .

* * *

عندما يعلن الرئيس بوش أنه «ينبغي خلق منطقة سوق حرة من آلاسكا إلى أرض النار». وعندهما يضيف وزير خارجيته جيمس بيكر : «ينبغي خلق منطقة سوق حرة من فانكوفر إلى فالديستوك» يصبح سجال القرن هو الآتي :

اتركونا نصلب الإنسانية على هذا الصليب من الذهب!
فى بريتون وودز تأكّدت الهيمنة العالمية للدولار ، الذى أصبح كالذهب ، هو الغطاء العالمى للعملة.

والمؤسسات التى ولدت فى بريتون وودز كانت هى أدوات السيطرة الاقتصادية الكونية : صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ، إذ بهما أصبح يمكنهم بحرية ، بواسطة قروض منحونة تحت شروط سياسية (مثل مشروع مارشال فى أوروبا) أن ينهبوا كما يروق لهم

(*) الاستثناء الثقافي شعار رفعه الفنانون والكتاب الفرنسيون فى أثناء مفاوضات الجات للمطالبة بعدم التعامل مع النشر والإنتاج السينمائى والتليفزيونى باقى منتجات السوق الزراعية والصناعية.

خيرات مستعمرات أوروبا القديمة التي وقعت في تمزق بسبب زوال الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى في إفريقيا وأسيا، كما كان الحال قدّيماً في أمريكا الجنوبيّة من أجل إزاحة إنجلترا وإسبانيا.

وفي مرحلة ثانية، مرحلة الجات (الاتفاقية العامة للتجارة والضرائب) لعب التبادل الحر المفروض على مستوى الكون نفس الدور الذي لعبه مصلحة إنجلترا ومصلحة إمبراطوريتها خلال قرن ونصف القرن من الزمان.

(الجات تغير اسمها مؤخراً إلى «المنظمة العالمية للتجارة» ولكن دون تغيير الوظيفة).

هكذا أصبح من السهل جعل أوروبا الغربية تابعة لأمريكا، ليس فقط بالاندماج العسكري، ويجعل قواتها قوات احتياطية لخلف الأطلنطي، ولكن كذلك بعد هذا التفوق الأمريكي إلى جميع المجالات الأخرى (من الاقتصاد إلى الثقافة).

وقد تمت عملية تكريس هذا النظام في أمستردام، حيث أصبحت ثلاثة أرباع القوانين التي تحكم كل شعب تفرضها هيئة بروكسل الأوروبيّة.

بقيت بعض المراحل اللازم تجاوزها لتدمير كل ما يمكن أن يبقى من استقلال الأم، بداية من القانون الملكي، في سك العملة، والذي يمثل منذ قرون عديدة أحد المعايير الأساسية للسيادة، حتى جاء مشروع العملة الموحدة «الأورو»، التي سوف تختتم القرن العشرين وتفتح القرن الحادى والعشرين.

وبقى إنجاز المشروع الكبير للعولمة، أي التحطيم النهائي

لاقتصاديات وثقافات كل الشعوب لصالح عولمة الإمبراطورية الأمريكية ووحدانية سوقها.

وكان مشروع الاتفاق حول الاستثمار متعدد الأطراف، وقد ضمن تسميته بالفعل، (لأسباب وجيهة): «آلية جهنية لتفكيك العالم».

بالفعل بعد القوانين الاستبدادية التي تفرضها الولايات المتحدة على النظام النقدي العالمي (بواسطة صندوق النقد الدولي) وعلى التجارة الدولية (بواسطة منظمة التجارة العالمية)، فإن القيد النهائي يتضمن اتفاقاً متعدد الأطراف حول حرية الاستثمارات.

هذا الميثاق الأخير للبيروقراطية الهمجية، هدفه أن يقيم في العالم كله ملكية السوق المطلقة، هادماً كل العوائق في وجه الاستثمار: كل شركة متعددة الجنسيات لها أن تستفيد بنفس المزايا كالشركات الوطنية: حرية الاستثمار، وحرية تسريح العاملين، وتغيير أماكن مراكز الإنتاج والبحث، وانتهاك قوانين العمل والبيئة، والدول التي تقبل (بدون شروط) عليها أن تحيل الخلافات إلى هيئة تحكيم خاصة بغرفة «تجارية دولية»:

وكل حكم يصدر عن هذه الهيئة العابرة للقوميات ملزم ونهائي. ويستبعد بالتالي كل حق في الاستئناف. بل ويأخذ في الحسبان، أن يتمكن المستثمر من أن يقاضي الدولة المستقبلة له . . . إن الخسارة لو كانت وشيكـة، لا يجب بالضرورة أن تحدث قبل أن يخضع الخلاف للتحكـيم.

هذا النير الجديد والنهايـى الذى يجعل من السوق السيد المطلـق فى الكون، هو تعـمـيم لاتفـاقيـات اتحـاد الشـمال الـأمـريـكـى ALENA التـى

تمت بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك . يمكن إذن أن نعرف العواقب التي تترتب على تطبيقها بالحجم الطبيعي .

فكندا التي ترفض لشركة إيثيل Ethyl وشركاه أن تدخل إلى سوقها وقودا به مواد مضافة سامة ، طلب منها ٢٥١ مليون دولار تعويضا عن خسائر مقدرة في الأرباح !

وفي المكسيك ، حيث رفضت الحكومة إقامة مكان لتفریغ المنتجات السامة في موقع مخصوص ، طالبتها الشركة الأمريكية المعنية بـ ٤٠٠ مليون دولار . إن ضرائب المواطنين تعوض خسائر الشركات المتعددة الجنسيّة !

ويقر هذا المشروع بوقاحة : «إن الاتفاقيات متعددة الأطراف للاستثمار ، مثل كل اتفاقية دولية ذات سمة ملزمة وسوف تؤدي إلى حد ما إلى تخفيف ممارسة السلطة الوطنية» .

هذا المشروع الذي يدير كل بلاد العالم ، قد تم الاتفاق عليه بصورة سرية منذ ٣ سنوات من قبل أعضاء منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OCDE التي تجمع أغلب بلاد العالم وتستبعد كل من اصطلح على تسميتهم بالعالم الثالث . المشروع يتضمن عواقب وخيمة فيما يتعلق بالعمل والبطالة والصحة والخدمات العامة والضمان الاجتماعي والبيئة ويوجه عام الاستقلال الوطني . وهو يلح ، في الجانب الاجتماعي ، على مزايا عدم المساواة . فالمنظمة ترى أن تزايد هوة عدم المساواة أمر يتطلب منه المنطق الاقتصادي ، دون أي تساؤل حول مصداقية هذا المنطق . وهي حين تتعرض «مؤشر الفقر» تتهم التدخلات باسم المصلحة العامة بأنها تحصر الأفراد في إطار منطق من التبعية وعدم الاستقلال !

من الملاحظ أن هذا البرنامج يتضمن الخصخصة الشاملة للمؤسسات، وأيضاً استبعاد أي تدخل من الدولة.

القادة الفرنسيون (من اليمين إلى اليسار) لم يقدموا أي اعتراض إلا فيما يخص «الاستثناء الثقافي»: ف صحيح أن هذا مجال ذو حساسية خاصة، لأن مثل هذه الاتفاقيات ستؤدي إلى خراب السينما الفرنسية وتزيد من سيطرة سينما ليورود الدموية، تلك التي تملأ أصلاً شاشاتنا وتليفزيوننا وتケفل سيطرة الأباطرة الأميركيان على المعلومات بواسطة الاستثمار الجامح في الصحافة والنشر. بهذه الطريقة سيخضع إذن العقل والجسد لتلاعبات المنطق التجاري.

ولكنها حياتنا بأكملها، ومعنى هذه الحياة، هما اللذان ينبغي لهما أن يتحررا من أذرع الأخطبوط، أي من كل الشركات المتعددة الجنسية الكبرى التي تنتهي للبلاد الغنية الـ ٢٩، أعضاء منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية والتي تحكم في ثلثي الاستثمارات العالمية، أي في ٣٤٠ مليار دولار عام ١٩٩٦.

كيف يمكن أن يتم هذا التحرر من الاحتلال الجديد لبلدنا بدءاً من اقتصادها حتى ثقافتها؟

لا الأحزاب (يمين أو يسار) ولا الكنائس تجib عن هذه الأسئلة الكبرى لهمونا. لا هؤلاء ولا أولئك يقدمون حلولاً على مستوى العالم.

فالبعض لا يفكرون إلا في تداول السلطة، وهم غير قادرين على حل المشكلات، يتبعون على السلطة بحسب الإيقاع المتختلف للتعارض الزائف بين اليسار واليمين، كل حزب يعاقب بواسطة

المنتخبين على فشله في تطبيق نفس السياسة المحتسبة خلف أقنعة لغوية مختلفة.

أيا كان الحزب أو الائتلاف الموجود في السلطة، فإن البطالة والتهميش يزيدان بلا توقف، فمن ٤٠٠ ألف عاطل في فرنسا عام ١٩٧٨ إلى ٣ ملايين عام ١٩٩٨ رغم أنه قد تم تتبع حكومات من اليمين واليسار.

والكنائس الموجودة لا تفعل أفضل مما تفعل، حيث تقوم بتحويل بنيتها إلى نظام ملكي مطلق، ويتجميد عقائدها التي تطمح في السيطرة الشاملة على عالم لا تحمل إليه شيئاً.

هناك نزعة كاثوليكية، تدمر كل أمل ولد من مجلس الثاتيكان الثاني (**)، تمنح نفسها هيأكل أكثر فأكثر سلطاناً وشمولية، وتمارس بصورة منظمة اللغة المزدوجة وال فعل المزدوج، وتضع خلف قناع من تواضع مستعار من الإنجيل، سياسة تحالف مع الولايات المتحدة (الكى تناضل فيما سبق ضد الشيوعية في الشرق وضد رجال لاهوت التحرير في أمريكا الجنوبية)، متحاشية أن تجib (بصورة لا تقف فقط عند مجرد الكلام) عن هموم الشعوب فيما يتعلق بالبطالة وال الحرب والاستعباد. وتركز بصورة يشوبها الهوس على الموضوعات الجنسية،

(**) مجلس الثاتيكان الثاني دعا إليه البابا يوحنا ٢٣ وعقد عام ١٩٦١ . وحاول هذا المجلس أن يتتجاوز الحمود العقائدى الذي صبغ المجلس الأول للثاتيكان عام ١٨٧٠ والذى أقر مبدأ عصمة البابا. تميز المجلس الثاني بروح أكثر افتتاحاً، إذ قبل انضمام مثليين للكنيسة الإفريقية، ودعا إلى الحوار مع الأديان الأخرى والاعتراف بقيمتها، وأقر مبدأ حرية الممارسة الدينية.

وتضع مشهد عرض الرجل الواحد (البابا) محل الإرشاد الروحي التحريري .

الإسلام الذي كانت رسالته في زمن نبيه وعصور عظمته ، أن يقوم بتمثيل ما هو كوني في الثقافات وفي الإيمان ، والذى يمكنه اليوم أن يقدم هذا النموذج ، ينغلق في خصوصيته الشرق أو سطية . وكرجال الدين الرومان لا يفتح بابا لطموح الجميع ، وإنما ينغلق على عادات وطقوس الماضي ، بدلا من أن ينفتح على المشكلات الكبرى لشعوبنا وعصرنا . هكذا أصبح الإسلام موضوعا للتاريخ في حين أنه كان طوال قرون فاعل التاريخ الخلاق ، حيث كان مخصوصا بالاتحاد مع كل التجليات الروحية منذ حكمة الهند وحتى صوفية مسلمي الأندلس الأكثر اقترابا من التجلى الإنساني ليسوع المسيح .

كل شيء إذن مطروح لأن يصاغ من جديد ، الاقتصاد والسياسة ، التعليم والإيمان ، هي اليوم أكثر ارتباطا من ذى قبل بترقية الإنسان ، وتحتاج لأن تجد وحدتها الأساسية في تحقيق هذا الهدف .

ما هو مستقبل أوروبا أمام هذا الانحطاط للإمبراطورية الأخيرة (كما يسميها بول ماري دولاجورس)؟

لقد عزلت أوروبا نفسها طويلاً ، كما فعلت قديماً الإمبراطورية الرومانية ، رافضة انتماها إلى الجزيرة الكبرى أوراسيا والتي لا تمثل هي سوى شبه جزيرة منها ، عزلت نفسها في سيادة متمركة حول البحر المتوسط . وابتداء من هنا أقامت إمبراطوريتها الاستعمارية على العالم ، من الأمريكتين بذهبهما ، إلى إفريقيا بعيدها ، وأسيا حيث فرضت سيطرتها على الهند بواسطة الإنجليز ، وعلى الصين بتحالف

أوروبي من أجل حرب الأفيون، واغتصاب دول تابعة للشرق الأدنى، والشرق الأوسط بيتروله بواسطة اتفاق ثنائى إنجليزى- فرنسي حول العالم الإسلامى . وحدث اقتسام لإفريقيا، فصارت إفريقيا الشرقية للبعض وإفريقيا الغربية للبعض الآخر . هذا علاوة على العمليات الملحة لهولندا فى إندونيسيا ، وبليچيكا فى الكونغو ، وإسبانيا والبرتغال فى إنجلترا و MOZAMBIQUE حتى الرأس الأخضر ، وإيطاليا فى ليبيا والحبشة .

كوارث الحربين العالميتين اللتين حدثتا بين الأوروبيين سمحت للولايات المتحدة ، ليس فقط بأن تحل محل القوى الاستعمارية الأوروبية فى أمريكا الجنوبية والفيليبين والمحيط الهادى ، ولكن أيضاً بأن يصبح الأمريكيون سادة الشرق الأوسط بيتروله ، وأن يتغلبوا بقوة فى إفريقيا ، بل وتمكنوا حتى من أن يجعلوا من الاستعماريين القدامى مستعمرى لهم فى أوروبا نفسها .

الإمكانية الوحيدة لتحرير أوروبا التابعة وبالتالي إعادة تأسيسها ، (ليس علاقة مستعمرین بمستعمرين ، ولكن علاقة شركاء متكافئين ومتكملين على أساس جديدة جذرية) هي إعادة علاقاتها مع آسيا أولًا (خصوصاً الصين وليران) ثم مع إفريقيا وأمريكا الجنوبية والوسطى . هكذا فقط ، تستطيع أوروبا التى كانت أولًا سيدة على البحر المتوسط ، ثم بعد ذلك مستعمرة لثلاث قارات ، ثم أوروبا أطلنطية تابعة ، أن تعيد بعثها من جديد فيما هو كوني .

* * *

لقد كسب هتلر الحرب أولًا فى فرنسا بسهولة ، بسبب زحف

رجال السياسة تجاه العبودية . والتمزق الحالى للمجمھورية الخامسة
يشبه بشكل غريب تفكك الجھورية الثالثة .

التشابه بينهما مثير للدهشة ، فيما بين الفترة التي ثمت فيها تنازلات ميونيخ وحتى استسلام ريتوند^(*) ، والطريق الذى يقود من التنازلات فى ما سترىخت وحتى استسلام أمستردام وعملة الأورو ، التى تؤكد التخلى عن كل استقلال للاقتصاد والسياسة الفرنسيين أمام أوامر البنوك والشركات المتعددة الجنسية التى نزعت من فرنسا العلامة البدھيھية على سعادتها : وهى حق سک العملة کى تبقى سيدة لتشريعاتها الاجتماعية ، وسياساتها الخارجية في التصدير .

التشابه مثير للدهشة: بين التنكر للچنرال ديجول وبين المقاومة الفرنسية ، وهو ما نلاحظه في عبارة واحدة قالها رئيس الدولة تحت الضغط الأمريكية - الصهيوني (وتحت رئاسة المحاكم الأكبر سيتروك Sitruk) والذي أكد لشامير في ١٢ من يوليه عام ١٩٩٠ أن «كل يهودي فرنسي هو مثل لإسرائيل»؛ لقد صرخ الرئيس الحالى للدولة الفرنسية (چاك شيراك) الذى ينسب نفسه للديجولية بأن «الجنون الإجرامي للمحتل النازى قد أكمله الفرنسيون والدولة الفرنسية» .

وهو النقيض تماماً لما كان ديجول يقوله عن شعبنا: «حتى في أحلك اللحظات ، لم يتخل شعبنا عن نفسه (مذكرات ديجول ، الجزء

(*) ريتوند Rethondes قرية تقع في فرنسا في غرب باريس ، تم فيها توقيع معاهدة استسلام ألمانيا عام ١٩١٨ في عربة قطار . وفي عام ١٩٤٠ بعد احتلال النازى لفرنسا ، أصر هتلر على توقيع معاهدة استسلام فرنسا في نفس القرية وفي حربة قطار .

الثالث، ص ١٩٤) وما كان يقوله عن نظام فيشي: «إنه قبح بشع على سطح جسم سليم». الجزء الثالث، ١٤٢): «لقد أعلنت عدم شرعية نظام كان يعمل لحساب العدو» (الجزء الأول ٦٧). «هتلر صنع فيشي (الجزء الأول - ٣٨٩).

واللوبى الذى نظم المظاهره، حيا بحماسة هذا التنكر، والذى بواسطته تم الإقرار باستمرارية الدولة الفرنسية فيما بين عامى ١٩٤٠ و ١٩٤٤.

وحدث نفس الانقلاب فيما اصطلح على تسميته باليسار والذى يدير قادته الاشتراكيون ظهرهم لچان جوريس Jean Jaurès^(*) والاشتراكية (كما يدير آخرون ظهرهم لديجول والمقاومة الفرنسية) بانضمامهم لأوروبا رجال البنوك، بلا أدنى اهتمام (إلا بالكلمات) بالبطالة وعدم المساواة الناتجين عن هذا الانضمام، وفقدان كل استقلال فى مجال السياسة الاجتماعية بل والسياسة نفسها.

التشابه بين هذين الضربين من الانحطاط للجمهورية لا يتوقف عند هذا الحد: إذ كانت الصحف الفاشية مثل صحيفة جرانجوار Gringoire لم تكن تتوقف عن أن تحقر فرنسا وثقافتها وشعبها وأخلاقها، لدرجة أن ترى في هتلر عنصراً التجديد فرنسا وتكتب: «هتلر أفضل من الجبهة الشعبية». وأخرون عدواً الهزيمة مفاجأة إلهية، واليوم يرى برنارد هنري ليڤي Bernard Henri Levy أن نظام

(*) چان چوريس زعيم الحزب الاشتراكي الفرنسي، حاول منع قيام الحرب العالمية الأولى، ودعا العمال والشباب إلى عدم الاشتراك في هذه الحرب التي تجري لتحقيق مصالح البرجوازيات الاستعمارية. اغتيل عام ١٩١٤ قبيل الحرب وعرف باسم شهيد السلام.

فيشي هو نتيجة ضرورية للتاريخ والثقافة في فرنسا في مجملهما. فهو يرى أنه من ثولتير إلى الثورة الفرنسية، ومن كل التراث المسيحي وحتى شارل بيجي Charles Peguy - دون أن ينسى برنارد لازار Bernard Lazard (المحلل المؤرخ اليهودي للعداء للسامية) ومتقداً إياه في طريقه - إن كل ماضينا، يجعل من فرنسا «وطن الاشتراكية الوطنية». (الأيديولوجية الفرنسية ص ١٢٥) وهو يؤكد أن «الثقافة الفرنسية... تشهد على قدم البشاعة (ص ٦١)، فرنسا هذه أعرف وجهها القذر، وكل سيرك الغيلان الذين يسكنونها» (ص ٢٥٣). وكان فرنسا هي قبل كل شيء وطن بيير لافال P. Lavalle^(*) وفيليب هنريو Ph. Henriot^(**) والكتائب النازية.

نرى اليوم تفكك الطغمة السياسية، بدلاً من شعار «لا يمين ولا يسار وإنما فرنسا» والذي كان نداء الجنرال ديغول للمقاومة وللنهاية، وهذا التفكك نراه اليوم كالأمس في مجلس بوردو Bordeaux حيث يختلط كل من يهرون إلى العبودية. وقد فيما كان من دواعي فخر الحزب الشيوعي أن يقول إنه ليس حزباً مثل باقي الأحزاب؛ واليوم مع بهلوانيات السياسة التقليدية ينضم مع الحزب

(*) بيير لافال، رئيس وزراء حكومة فيشي، كان ميالاً أكثر من بستان للتعاون مع المستعمر النازي، وشجع على تشكيل كتائب مسلحة تساعد الجستابو في القبض على رجال المقاومة الفرنسة. وحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص بعد تحرير فرنسا على يد ديغول.

(**) فيليب هنريو، وزير الإعلام في حكومة لافال، ومن أشد المتحمسين للتعاون مع النازي. وأعدم بعد تحرير فرنسا.

الاشتراكى ، ومع أوروبا ، أى يتوجه لخيانة طموحات كل من يعمل فى فرنسا بجدية ولا يضارب فى البورصة .

نفس الظاهرة تحدث فى صفوف اليمين ، حيث - بسبب من التناقضات والطموحات التى تؤدى إلى الانشقاق - نشأت حركة تريد أن تكون وطنية تتجاوز الفوارق بين الأحزاب ، وهى فى الواقع تعمل من أجل تحقيق انتصار دموى على جثث العديد من الضحايا فى المعركة الانتخابية - تحت تأثير رجل سياسة ، كان من قبل عضواً فى حزب التجمع من أجل الجمهورية (R.P.R) - وبعد توجهه أكثر نحو اليمين ، يصبح فى تجمعات تثير الغثيان سيد اللعبة - سيد المجزرة (**).

إن رد الفعل المتمثل فى رفض النظام من قبل الشعب الفرنسي لهو أمرٌ بالغ الدلالة ، فقد بدأ الشعب يدرك تدليس الديمقراطية بوصفها تمثيلية واغتراباً . وتقوى جبهة رفض الفرق السياسية يوماً بعد يوم فى الانتخابات المحلية عام ١٩٩٨ ، إذا أضفنا إلى الرقم القياسي فى الامتناع عن التصويت ٥٪٤٢ ، نجد أن الـ ١٥٪ من الذين صوتوا لصالح الجبهة الوطنية معتقدين أنها توجد خارج الأحزاب ، والـ ٥٪ من اليسار المتطرف الذى يدين انضمام الحزب الشيوعى لكاريكاتير الاشتراكية ، وإذا كان طباخو المطبخ الانتخابى يستمرون بعدد متساو إلى حد ما فى اقتسام الأقاليم والدخول ، لذا نلاحظ أن ثلثى المنتخبين يرفضونهم ، وأن كل إقليم سوف يدار بواسطة الثلث الباقي ، أى بواسطة منتخبين من ١٥ إلى ٢٠٪ من إجمالي المنتخبين . ديمقراطية غريبة تقترب أكثر فأكثر من نموذج هذا الغرب : الولايات المتحدة

(*) يقصد جارودى هنا ، چان ماري لوين ، زعيم حزب الجبهة الوطنية العنصري المتطرف المعادى للعرب واليهود فى فرنسا .

وإسرائيل وإنجلترا حيث يزدهر اليوم تحت لافتة الاشتراكية استنساخ من مدام تاتشر.

هكذا يتم مرة ثانية، خضوع شعبنا أمام السيطرة الأجنبية. ليست هذه سيطرة هتلر، ولكنها سيطرة اللوبي الأمريكي - الصهيوني القوى؛ الذي يمسك بمقاتيل الخارجية^(*) وصمويل بيرجر على الدفاع ومدام أولبرايت في الشئون الخارجية وأس مجلس الأمن القومي والقادة الثلاثة الرئيسيون للمخابرات الأمريكية، كى لا نذكر إلا أولئك الذين يمسكون بمقاليد الأمور فى الدولة.

هناك فاشية حاخامية تجاهيلية تحت الحماية غير المشروطة للولايات المتحدة، تحيل إلى «صدام الحضارات» لهانتنجتون Huntington والپستاجون، هي رأس الحربة «لكتيبتها المتقدمة للحضارة الغربية داخل همجية الشرق». إنه برنامج تيودور هرتزل المطبق، بعد قرن من الزمان، بواسطة النازيين الجدد في بروكلين (الولايات المتحدة) والخليل (فلسطين).

الرأس المفكر لهذه السياسة ذات الرأسين، ولكن يسكنها نفس الهدف: صدام الحضارات لهانتنجتون أو «الكتيبة المتقدمة للحضارة اليهودية - المسيحية ضد الهمجية الشرقية» يبقى صامداً: إن فاعل هذه الجرائم الكثيرة ضد الإنسانية في لبنان وهو آريل شارون، ما زال وزيراً مهماً للسياسة الاستعمارية لنتنياهو.

(*) وقد استدرك المؤلف هذه العبارة في لقاء لاحق معه، إذ لم تكن مثبتة في النص الأصلي.

نعم، هتلر كسب الحرب، وتحقق أهدافه: تدمير الاتحاد السوفييتي وتبعية أوروبا، والسيطرة على العالم بواسطة شعب مختار، آرى بالأمس وأمريكى- إسرائيلى اليوم. إنه احتلال جديد، إنه صراع جديد بين رجال المقاومة والتعاونيين مع المحتل، يحل محل التمييز الاصطناعى والغابر بين اليمين واليسار، والذى يقبل قادته فى مجملهم العبودية وأوامر المحتل الأطلنطى الجديد وقادته المتحكمين فى ماستريخت والأورو.

الجزء الثاني

كيف تبني الوحدة الإنسانية لمنع انتشار الكوكب؟

- ١ - بواسطة تحول في الاقتصاد.
- ٢ - بواسطة تحول في السياسة.
- ٣ - بواسطة تحول في التعليم.
- ٤ - بواسطة تحول للإيمان.

الفصل الأول
بواسطة تحول في الاقتصاد

أ- بريتون وودز Bretton-Woods مضادة (*) ،

السياسة الوحيدة التي لها اليوم مستقبل هي تلك التي تحل
المشكلات الأساسية المطروحة علينا :

البطالة .

الهجرة .

الجوع في العالم .

مع كل الآثار الثقافية والأخلاقية التي تنتج عنها .

هذه المشكلات الثلاث هي في الحقيقة مشكلة واحدة .

وهم لا يقدمون لنا سوى حلول زائفة .

والحلان الأكثر وهمًا هما :

- هذه المشكلات يحلها النمو الاقتصادي .

- هذه المشكلات تحلها أوروبا .

هذه هي الأكاذيب الأشد فتكاً.

(*) راجع هامش صفحة ٧٤ .

فلا يمكن لأى من مشكلاتنا الحيوية أن تجد حلّاً لها في النمو الاقتصادي. الدول والأحزاب السياسية في البلاد الغربية لا تتعامل أبداً مع المشكلة، بل على العكس.

هذا النمو الاقتصادي يقدمه رجال السياسة وأجهزة الإعلام كطريق للخروج من الأزمة والبطالة، في حين أنه منذ عام ١٩٧٥ لم يؤد النمو الاقتصادي، الذي تم بسبب زيادة الإنتاجية بفضل تطور العلوم والتكنولوجيات، إلى خلق فرص عمل، ولكن على العكس قضى عليها بإحلال عمل الآلة محل عمل الإنسان.

ففي عام ١٩٨٠، كانت بلجيكا تنتج ١٠ ملايين طن من الصلب بتشغيل ٤٠ ألف عامل، وفي عام ١٩٩٢ أنتجت ١٢ مليون طن ونصفطن بتشغيل ٢٢ ألف عامل.

النمو الاقتصادي ينطلق بواسطة أرباح الإنتاجية التي تمت بفضل العلم والتكنولوجيات التي تسمح باستبدال الآلات بجزء أكبر من عمل الإنسان. والأمر اليوم أفحى بسبب تطور المعلوماتية والإنسان الآلي والحواسيب الإلكترونية.

ولكن من العبث تجريم العلوم والتكنولوجيات، فالشقاء يأتي من الاستخدام الذي نقوم به.

على سبيل المثال، زادت الإنتاجية منذ عام ١٩٧٠ بفضل هذه الاكتشافات، زيادة قدرها ٨٩٪، وهي فرصة للإنسانية لتجنبها المهام التكرارية، ولكنها وبالعليها عندما لا تقل في نفس الفترة عدد ساعات العمل وتتضاعف البطالة. وهذا يعني أن نمو الإنتاجية لم يخدم عموم الإنسانية، بل يخدم مالكي وسائل الإنتاج وحدهم.

في حين أنه سيكون خيراً للجميع ، إذا كانت مدة العمل أسبوعياً لا تتفصل عن الإنتاجية .

سيكون خيراً إذا لم تكن هذه الزيادة في الترفيه قد احتوتها سوق الترفيه التي تحول وقت الفراغ إلى وقت فارغ ، مفرغ من الإنسانية بواسطة أنواع التسليات التي تقترحها ، والتي لا تجذب الازدهار البدني ولا الثقافي . هذا النشاط من أنشطة الحياة ، بدلاً من أن يساعد الإنسان على أن يكون إنساناً ، أى مبدعاً ، نجده يميل ، بسبب نظام السوق ، إلى أن يجعل من العاطل في أحسن الأحوال مستهلكاً .

ولا يعني هذا أننا معادون للنمو ، أو لتقدير العلوم والتقنيات حين تسمح بتخفيض مشقة الرجال والنساء ، وحين لا تؤدي إلى عبوديتهم واغترابهم ، كما يحدث على سبيل المثال في أوتوستراد المعلومات الذي يهدف للتلاعب بالرأي لخدمة الهيمنة الأمريكية .

ولكن النمو الاقتصادي وتزايد الإنتاجية لا يحلان مشكلة البطالة ، حتى وإن ثُمت إجراءات مثل ربط قياس وقت العمل بالإنتاجية ، بل الأولى هو أن يرتبط كما يريد أرباب العمل والحكومة ، بتخفيض الأجر وتخفيض الضمانات الاجتماعية . حتى يمكنهم أن يسمحوا لأنفسهم بالتهام بعض ح�ص السوق من منافسهم الأوروبي أو الأمريكي أو الياباني ، ولكنهم يبقون في نهاية الأمر مجرد تابعين تافهين .

الكلبة الثانية بعد النمو الاقتصادي كعلاج للمشكلات هي أوروبا .

لا تجد مشكلة واحدة حلّ لها في إطار أوروبا .

إنهم يعدوننا مع أوروبا الموحدة بسوق من ٣٠٠ مليون من الزبائن متجاهلين أن الأمر يتعلق بـ ٣٠٠ مليون منافس في سوق العمل ؛

لأن اقتصاديات أوروبا في جوهرها لا يكمل بعضها بعضاً ولكنها متنافسة، وذلك بالإضافة إلى منافسة الاقتصاد الأمريكي والاقتصاد الياباني.

هل هذا يعني أن البديل الوحيد لمشروع أوروبا الموحدة هو انطواء فرنسا الوطني وحبسها في إطار من أسوار الحماية الجمركية؟ على العكس سيكون ذلك هو الاختناق.

الحل الوحيد الممكن هو الانفتاح على العالم في مجمله، لأنه طوال ٥٠٠ سنة من الاستعمار، وأخرها خمسون سنة من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، يبقى هذا العالم المتتصدع واقتصاده المشوه وفيه ثلثا سكانه منهويون بواسطة الغرب، وليس لديهم قدرة شرائية. سيبقى هناك إذن عمالان متباينان: عالم الجموع وعالم البطالة. ولكن بالتفكير فقط في إطار السوق، كيف يمكن أن نأمل في إعطاء عمل للبعض في حين أن هناك مليارات من البشر ليس لديهم الحد الأدنى الضروري لشراء طعامهم؟

الحل الوحيد الممكن لجوع البعض وبطالة البعض الآخر وهجرة الجياع في بحثهم الوهمي عن العمل، هو تغيير جذرى لعلاقتنا مع العالم الثالث، مع وضع نهاية لسيادة الغرب ولتبعية الجنوب لأن التبعية هي التي تنتج التخلف.

نحن نعيش عالماً مشطوراً بين الشمال والجنوب، وفي الشمال كما في الجنوب، بين من يملكون ومن لا يملكون شيئاً: الى ٢٠٪ الأكثر ثراء على الكوكب يحوزون ٨٣٪ من الدخل العالمي. والـ ٢٠٪ الأكثر فقراً يحوزون ٤٪^(٩).

وحيث إن الاستعمار خلال خمسة قرون، ونظام بريتون وودز خلال نصف قرن قد خلقا عدم المساواة هذا بين الشعوب، فإن التبادل الحر يعمل على تفاقم السيطرة والتبعية.

كيف يمكن أن نغير الانحرافات الراهنة؟

أولاً بتدمير الأسطورة التي تضفي كلمة ديمقراطية على حرية السوق.... فالسوق الحر قاتل للديمقراطية.... «بواسطة تراكم الثروة في قطب والبؤس والفقر في القطب الآخر».

وهذا يتضمن بعض القرارات السياسية التي تعمل على التحرر من العولمة المزعومة للاقتصاد، أي من الإرادة الأمريكية التي تريد أن تجعل من أوروبا ومن باقي العالم مستعمرة تفتح منافذ أمام اقتصادها الخاص في جميع المجالات: من المنتجات الزراعية إلى الصناعات الفضائية ومن المعلومات إلى السينما.

يتضح كل يوم أن ماستريخت هي سبب كبير لتعاسات، ليس فقط المزارعين بفرضها التبويه، ولكن أيضا كل العاملين، بتشجيعها تحت ذريعة الكفاءة التنافسية الأوروبية، التسوية من المنبع (تحت اسم «المرونة») لشروط العمل، بتصفيه كل صناعاتنا، من الطيران إلى المعلومات، فهي تطيح بثقافتنا بواسطة غزو السينما والتليفزيون الأمريكيين، وتجعل من جيșتنا احتياطيا للتدخلات العسكرية الأمريكية.

فيما يخص الاقتصاد، تسمح المادة 301 من القانون الأمريكي بحماية إنتاجها الخاص، في حين أن الجهات تفرض على كل البلاد الأخرى تبادلا حرّا يترك المكان لكل الاستبدادات الأمريكية. قانون هيلمز-بيرتون Helms-Burton لعام 1996 وداماتو-كنيدى

يريد أن يفرض نفسه على كل المجتمع الدولي ويحرم عليه التجارة مع البلاد التي يحددها هو وحده. وهكذا يشرع القادة الأمريكيون للعالم بأكمله.

إن مقاومة جديدة تقتضى، ليس فقط أن ننسحب من ماستريخت، ولكن أيضاً أن ننسحب من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومن كل المؤسسات الأخرى التي هي أداة لهذه الإرادة في الهيمنة العالمية تحت دعوى خلق عملة أوروبية موحدة (الأورو). أوروبا والأورو (الذى يلغى الحق السيادى للدولة le droit souvrin فى سك العملة كأول ملمح من ملامح السيادة الوطنية) لا يمكنهما أن يؤدياً (عن طريق خصومة بلا كابح بهدف زيادة التنافس) إلا لتفاوت في المنبع للأجور والضمادات الاجتماعية، من أجل تخفيض سعر التكلفة بين اقتصاديات متنافسة.

من هنا تأتى ضرورة إعادة حرية تأسيس علاقات جديدة جذرية مع العالم الثالث، مع هدف محدد هو تشجيع شعوب أوروبية أخرى على الالتزام بنفس الطريق:

- ١ - إلغاء كامل للديون التي لا أساس تاريخي لها ولا مبرر.
- ٢ - إلغاء كل معونة مالية لحكومات العالم الثالث.

على سبيل المثال، ٤٠ مليار فرنك للتنمية، هو مبلغ ميزانية المعونة العامة في فرنسا، والتي هدفها الرسمي هو مساعدة الأكثرب فقرًا في الكوكب. ولكن ٩٥٪ من هذا المبلغ ليس مساعدة ولا يؤدي إلى تنمية. بل على أفضل تقدير هو إفراغ جيوب دافعي الضرائب وملء جيوب بعض المنتفعين من الحكوميين في الشمال والجنوب، وعلى أسوأ تقدير، تستخدم المعونة للقتل.

وآخر مثال استخدمت فيه المعونة:

في رواندا، في تمويل حكومة القتلة، لتبقى أطول وقت ممكن في الحكم، وفي تمويل عملية «تركواز»^(*) Turquoise لتسهيل مرورهم لرائير لكي يمكنهم التهيئة للانتقام.

٣- قروض عامة وخاصة ، لا تعطى للحكومات، وإنما تعطى مباشرة إلى منظمات القاعدة والتعاونيات والنقابات وجمعيات المنتجين ، بل وحتى الحث عليها ، ومشروعات محددة للمنفعة العامة ، والأولوية في ذلك للأقاليم الزراعية مع هدف الاكتفاء الذاتي الغذائي (تجهيزات زراعية ، حفر آبار ، تعبيد طرق ، مستشفيات ، مدارس ، إلخ .).

٤- قبول أن يكون سداد هذه الديون في غالبيتها ، إما بعملة البلد تخفِّيزاً على الاستثمار في المنطقة ، بدلاً من إخراج العملة الصعبة ، الأمر الذي يقضى على مشكلة الفوائد ، وإما أن تدفع في صورة متوجات .

٥- العمل على موازنة شريفة لأسعار المنتجات المباعة بواسطة بلاد الجنوب مع أسعار المنتجات المباعة بواسطة بلاد الشمال .

٦- مواجهة التضخم العملاق للمؤسسات الإنتاجية التي تهدف قبل كل شيء لزيادة استثمارات الشركات الكبيرة ، واحترام التاريخ وثقافات كل شعب ، واستخدام التقنيات المحلية

(*) تركواز هو الاسم الحركي الذي أطلقته الحكومة الفرنسية على تدخل قواتها لصالح الحكومة الموجودة في أثناء الحرب الأهلية في رواندا .

بأوسع ما يمكن، والتى هى فى الغالب أكثر توافقاً مع الحاجات المحلية.

ستكون التنمية فى هذه الحال أصلية متوطنة فى البلد، بدلاً من أن تكون أجنبية مستوردة بغض النظر عن الحاجة المحلية الحقيقة، فضلاً عن كون الأخيرة نموذجاً غريباً مستورداً حسب مصلحة المشروعات الأجنبية الكبرى.

هذا التكيف الضرورى، لتلبية حاجات الجنوب، قد يقتضى تكييفاً لعقلياتنا، محبذاً ما يلبي أيضاً حاجتنا الواقعية وليس التسلح والمنتجات الترفية التافهة.

بـ-من أجل باندونج^(*) جديدة:

باندونج جديدة ضرورية من أجل أن يكون القرن الحادى والعشرون علامة على نهاية عصر ما قبل التاريخ الحيوانى للإنسان، حيث كانت الثروة فى عالم مشطور، حكراً على أقلية ضئيلة وتقتضى التبعية والاستغلال، بل وموت الجزء الأكبر من البشرية.

١ - إن بعث الوحدة الإنسانية لا يمكن أن يتم بواسطة العنف والسلاح اللذين كانا يفصلمان عراها، ولكنه يتم بواسطة تحالف كل القوى الإنسانية حقاً: من الاقتصاد إلى الثقافة إلى الإيمان.

(*) باندونج مدينة فى إندونيسيا، عقد فيها فى إبريل عام ١٩٥٥ أول مؤتمر للدول غير المنحازة، حضره لأول مرة ممثلو تسعة وعشرين دولة.

٢- إن ضعف الشعوب المضطهدة الحالية راجع في جزء كبير منه إلى انقسامها نتيجة خلافات وحروب استشارتها ودعمها سادة العالم الحاليون. فالمهمة الأولى هي وضع نهاية لهذا التمزق عن طريق التفاوض السلمي بشأن كل هذه الصراعات التي تخدم القاهرين .

٣- أن يرفضوا بشكل جماعي دفع الديون المزعومة لصندوق النقد الدولي ، وذلك للأسباب الآتية :

(أ) من الدائن؟

-إن على الغرب دينا ثقيلاً تجاه العالم الثالث :

* من يسد لهنود أمريكا استنزاف كل قاراتهم؟

* من يعيد إلى الهند القديمة ، مصدرة النسيج ، ملابسهن الأطنان من القطن التي أخذت من المزارعين بشمن بخس ، وأدت لتحطيم الصناعة الحرافية للنساجين الهنود ، لصالح الشركات الكبرى في لانكشاير؟

* من يعيد لإفريقيا حياة ملابسهن من أبنائهما الأقواء ، الذين حملوا كعبيد لأمريكا بواسطة جلابي العبيد الغربيين طوال ثلاثة قرون؟

(ب) ما سبب هذا الدين؟

لقد حطمت البلاد الاستعمارية القديمة الاقتصاديات المحلية ، وخصوصاً بالتضحيه بالزراعة المتعددة لصالح زراعة المحصول الواحد والإنتاج الواحد ، والتي جعلت منها تابعاً لاقتصاديات البلاد الاستعمارية ولصالحها فقط . مثل هذه الاقتصاديات لا يمكنها أن تكفل استقلال البلاد ولا حتى الاكتفاء الذاتي الغذائي ، حتى اليد

العاملة الصناعية لا ترتبط بحاجة البلاد. التبعية إذن مستمرة والقروض أصبح لا يمكن تفاديها.

(ج) هذه الديون قد تم سدادها منذ زمن طويل بالفوائد الربوية التي دفعت للدائنين الأجانب.

* فلترفض إذن بلاد العالم الثالث أن تدفع جباية لصندوق النقد الدولي.

* ولترفض المعونات التافهة الموجهة إلى وضع قناع على هذا الظلم المتداين عبر مئات السنين.

* وليشكل، عبر إلغاء الدين وفوائده، صندوق تضامن يعرض المعونة المزعومة.

٤ - معارضه أي مقاطعة مفروضة تعسفًا بواسطة سادة العالم الحاليين على البلاد التي ترفض سيطرتهم. ينبغي من الآن فصاعداً ألا يحسب لهم حساب، ولنناجر بحرية مع أشقاءنا الخاضعين للمقاطعة.

٥ - مضاعفة التبادلات بين الجنوب والجنوب بصورة عامة، وبين البلاد التي تمتلك ٨٠٪ من مصادر الطاقة في العالم.

* قيام هذه التبادلات على أساس نظام المقايضة، حتى لا تتم عبر العملات النقدية للشمال، وخصوصاً الدولار، مع الحرص على أن يؤدي ذلك تدريجياً للقضاء على المضاربة، وذلك لأن يكون له سعر عالمي.

٦ - وهذا يتضمن مقاطعة عامة للولايات المتحدة وأتباعها وخصوصاً إسرائيل، مرتزقة الغرب ضد الثقافات المحلية وضد السلام.

* القضاء على الهيمنات الاقتصادية والاعتداءات الثقافية،
المضادة المصنوعة في هوليوود وكذلك متجاراتها التافهة وكل
التجليات الأخلاقية والمادية لأنحطاطهم.

- يتضمن هذا، حسب الخطة السياسية، الانسحاب الجماعي من كل مؤسسة ذات اختصاص عالمي، أصبحت أداة لسيطرة سيد واحد، وتستخدم لتغطية اعتداءاته العسكرية والاقتصادية والثقافية: الأمم المتحدة، صندوق النقد الدولي، البنك الدولي، منظمة التجارة العالمية وكل مشتقاتها من المؤسسات التي تقوم مثلها بالتواطؤ لحساب سيطرة إمبريالية على العالم وعلى مفهوم احترازى للإنسان، باحتسابه فقط مستهلكا أو متتبراً، تحركه فقط مصلحته وحدها، ولا تعطى للإنسان أي معنى آخر لحياته، إلا العمل كعبد، كى يستهلك أكثر، هذا إذا لم يكن عاطلاً أو مستعمرًا أو مستعبدًا.

- التهديدات أو الاعتداءات التي تتم ضد أي بلد عضو، سيواجهها المجتمع العالمي بجميع الوسائل.

- هذا المجتمع العالمي الذي يهدف لخلق عالم ذي وجه إنساني، لا يتضمن أي امتيازات دينية ولا سياسية، لأن هدفه هو أن يخلق وحدة ليست إمبريالية، ولكن وحدة سيمفونية للإنسانية التي يساهم فيها كل شعب وكل مجتمع بشروطه الخاصة، ثروات أرضه وثقافته وإيمانه.

بالتالي فهو مقترن للدول والأقليات المضطهدة، على شرط أن وافق كل بلد وحدتهم انطلاقاً من هذه الأسس.

إن باندونج الأولى كان هدفها، في عالم مزدوج القطبية، أن ترفض الانحياز لأحدى الكتلتين لتحتفظ باستقلالها. وما زال هذا المثل الأعلى مستمراً.

ولكن الشروط التاريخية تغيرت، فنحن نعيش في عالم أحادى القطب، ولكن علينا أن ندافع عن هوياتنا، من الثقافة إلى الاقتصاد، ضد الأصولية المتفاوتة للطامحين في السيطرة العالمية بواسطة لعبة وحدانية السوق، التي تجعل من السوق، أى من النقود، المنظم الوحيد للعلاقات الاجتماعية.

نحن نرفض هذه الرؤية للعالم بدون الإنسان، وحياة بلا مشروع إنساني هي حياة بلا معنى. نتحد من أجل أن نبني عالماً واحداً، غنياً في تنوعه ومطمئناً على مستقبله بواسطة التقاء الشعوب والثقافات في إيمان مشترك، تغذيه خبرات وثقافة كل شخص، ويدفعه مشروع مشترك في أن يعطى لكل طفل ولكل امرأة ولكل رجل، أيا كان أصله وتراثه الخاص، كل الوسائل الازمة لاستخدام كل الإمكانيات الإنسانية التي يحملها في داخله.

* * *

وأخيراً من الضروري في عالم تجني فيه النقود بالمضاربة (على أسعار المواد الخام، وعلى قيمة العملات المختلفة، وعلى المنتجات المشتقة، إلخ.) أرباح أزيد من ٤٠ ضعفاً مما تجنيه من أرباح استثمارها على المدى الطويل عبر اقتصاد حقيقي متوج للسلع والخدمات (على سبيل المثال، المستثمرون المفترض أنهم يقومون بتطوير البنية التحتية، والمؤسسات التي تلبى الحاجات الأساسية، ووسائل النقل لتسهيل

التبادلات)، من الضروري أن يقام تحكم حقيقي صارم في التبادلات. وهذا يفترض أن يتمتع كل شعب باستقلاله كى يخطط احتياجاته وتبادلاته. هذا لا غنى عنه حتى يمكن للمبالغ الطائلة المستخدمة في عمليات المضاربة العقيمة بالنسبة للمجتمع، أن تستثمر في اقتصاد حقيقي، يتبع ليلبي حاجات ٥ مليارات من سكان الكوكب، وبذلك يتم وضع نهاية لبطالة ملايين الرجال والنساء عبر العالم، لأنهم، ولنكرر ذلك، وقعوا في البطالة لسبعين أساسين:

- ١ - لأن انشطار العالم جعل أكثر من ثلث سكان العالم غير قادر على الشراء.
- ٢ - لأن رءوس الأموال المستثمرة في المضاربة، قد انحرفت عن الاستثمار في اقتصاد حقيقي يلبى حاجات الجميع.

الفصل الثاني
بواسطة تحول في السياسة

كيف يمكن خلق نظام سياسي ذي وجه إنساني؟

كل ديمقراطية قائمة على الدفاع عن فرد مجرد دون أن تأخذ في حسبانها قدرته الحقيقية (مثال: قدرة المالك وقدرة العاطل) لا يمكن أن تؤدي إلا إلى انتخاب أغلبية إحصائية، يسعى كل واحد فيها لصالحه الخاصة، وتدفع الآخرين إلى السوق (سوق العمل وسوق التجارة). التبيّحة، كما يقول ماركس، هو شئ لم يكن أحد يريده. وعلى سبيل التوضيح، عندما نتحدث عن الناتج القومي الخالص لكل فرد، فإن الأرقام لا تعنى شيئاً. إنها متوسط بين دخل ملياردير ودخل عاطل عن العمل، هذا الخد الأوسط لا يرتبط بأى واقع ملموس.

وأخيراً، وبالأخص في أيامنا هذه، فإن التلاعب بالرأي العام عن طريق وسائل الإعلام المملوكة بواسطة بعض الاحتكارات أو بعض القوى الكبرى (سواء كان بيل جيتس أو مردوκ، وسواء كانت CNN أو التليفزيونات المسماة بالوطنية والتي تخدم مصالح الحكومات القائمة، وأنواع اللobbies المختلفة ذات البنية والتمويل الكبيرين) - نقول إن هذا التلاعب يؤدي إلى خلق فكر وحيد ومستقيم سياسياً.

إن تحالفات اليمين واليسار تمارس نفس السياسية، كما أن عدم اهتمام السكان (في فرنسا كما في الولايات المتحدة) الذي

يعبر عن نفسه بالامتناع عن التصويت فى الانتخابات يزداد حجمه يوماً بعد يوم (*).

هذه هى العناصر الأساسية لتدليس الديمقراطية الغربية ، التى لا تمثل عقبة فى مواجهة الديكتاتورية ، بل تؤدى إليها فى نهاية المطاف سواء بطريقة مباشرة - كما كان الحال مع هتلر الذى وصل إلى السلطة باللعبة القانونية لمثل هذا النوع من الديمقراطية ، عن طريق الحصول على أغلبية برلمانية مطلقة - أو بصورة غير مباشرة ، كأن تجلب دولة ديمقراطية شديدة القوة إلى السلطة ديكاتوريات لحماية مصالحها الخاصة . الولايات المتحدة هى نموذج للتمويه على حكم الحزب الواحد ، حيث تقدم للجمهور تنوعين رسميين : ديمقراطي أو جمهورى ، مكونة بالفعل حزبا واحدا لرأس المال وفرقًا مختلفة يتقاسمون الغنائم (أى الوظائف القيادية والدخول) حينما يحوزون النصر . إنهم يساعدون بنفس القوة ديكاتوريات أمريكا الأخرى ، ويصوتون بنفس الإجماع على القروض لإسرائيل ، وبينما يتغيبون على أى جراءات ضد انتهاكاتها للقرارات الأممية ، أو نفس الاعتداءات ضد أى شخص يزعم معارضته سيطرتهم العالمية ويتحدى المقاطعة التى يفرضونها .

(*) لم يذهب لصياديق انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٩٦ إلا أقل من ٥٠٪ من المسجلين ، وعلى وجه التحديد أقل من ٧٥ مليون صوت ، في دولة عدد سكانها ٢٧٥ مليونا ، وعلى ذلك فأغلبية كلنتون قائمة على سدس عدد السكان ، أي ١٥٪ تقريبا . (الناشر)

ما هي الديمocratie؟

من حيث أصل معنى الكلمة، تعنى الديمocratie حكم الشعب بالشعب وللشعب. ولذا كان المُنظّر الأساسي للديمocratie والذى تنتسب إليه الثورة الفرنسية هو چان چاك روسو. فى كتابه العقد الاجتماعى يقول مُعِزّا كل أكاذيب الديمocratiات الغربية المزعومة: إذا أخذنا المصطلح بمعناه الأصيل والدقيق، لوجدنا أنه لم توجد أبداً «الديمocratiات الحقيقية»، وذلك لسبعين:

- ١ - عدم تكافؤ الثروات، التى تجعل من المستحيل تكوين إرادة عامة تضع من يملكون فى مواجهة من لا يملكون.
- ٢ - غياب الإيمان بقيم مطلقة تجعل كل فرد يقدس واجباته بدلاً من أن تسسيطر شريعة الغاب الفردية، حيث يعتقد كل فرد أنه مركز معيار الأشياء وأنه منافس وخصم الآخرين (العقد الاجتماعى .) Contrat Social, Ed. Pléade-P408

لم يكن إذن هناك سوى نموذج تاريخي للديمocratie المزعومة: هو نموذج اليونان القديمة. ونحن نعلم اليوم لطلاب المدارس أنها أم الديمocratiات، دون أن نذكرهم بأنه فى إطار هذه الديمocratie الأثينية وهى فى قمة ازدهارها (زمن بركليز فى القرن الخامس ق.م)، هناك ٢٠ ألف مواطن حر يشكلون الشعب الذى يمتلك حق الانتخاب، و ١١٠ ألف عبد ليس لهم أى حق. الاسم الحقيقى لهذه الديمocratie هو حكم نخبوى عبودى.

ومنذ ذلك الوقت، لم يكف الاستخدام الكاذب لكلمة الديمocratie عن السيادة فى الغرب.

- إعلان الاستقلال الأمريكي: الذي أُعلن في 4 من يوليه عام 1776 (السنة التي مات فيها روسو) يَعْدِّ كحقائق بدائية واضحة بذاتها أن البشر يولدون متساوين، وقد زودهم خالقهم بحقوق لا تقبل التغيير: الحياة، الحرية . . في حين أن الدستور المولود من هذا التصريح الرسمي الاحتفالي، يحتفظ بالعبودية لأكثر من قرن!

ديمocrاطية للبيض وديمocrاطية للسود.

- إعلان حقوق الإنسان والمواطن في الثورة الفرنسية عام 1789 ، يؤكد أن كل البشر يولدون متساوين في الحقوق. وحتى في مادتيه ١٤ ، ١٥ يحدد: «لكل المواطنين الحق في المشاركة في صياغة القانون». في حين أن الدستور الذي يُعَدُّ هذا التصريح تمهدًا له، لا يمنح حق الاقتراع إلا للملوك: أما الآخرون، أي ٣ ملايين فرنسي، فقد عُدوا مواطنين سلبيين: أما المواطنون الإيجابيون، حسب تعريف سييس Sieyes ، أبي هذا الدستور، فهم: الفاعلون الحقيقيون للمؤسسة الاجتماعية؛ وقبله أكبر الفلسفه الفرنسيين في ذلك القرن وهو دiderot ، الذي كتب في موسوعته (مادة: مندوب)، «المالك وحده هو المواطن».

ديمocratie للملك وليس للشعب.

وفي عام ١٨٤٨ ، تم إجراء الاقتراع العام ولكن فقط للرجال. ونصف الأمة (أى النساء) كان مستبعداً.

ديمocratie للرجال، وليس للنساء.

وييمكن أن نعدد الأمثلة.

إسرائيل مثال نموذجي١

فهو يقدم لنا على أنه نموذج للديمقراطية. والپروفسور كلود كلاين Claude Klein مدير معهد القانون المقارن في الجامعة العبرية بالقدس، في كتابه ذي العنوان الدال: «الخاصية اليهودية لدولة إسرائيل» يعرفنا (في الصفحة ٤٧ من كتابه) أن القانون الذي شرعه الكنيست في عام ١٩٧٠ في مادته ٤ يعطى هذا المفهوم لليهودي (الذي يحصل على حق العودة والمواطنة): «يُعَدْ يهودياً كل من ولد من أم يهودية أو من اعتنق اليهودية، ولا يتسمى إلى أي دين آخر». معيار عنصري وأخر عقائدي، يقوداننا إلى عصر محاكم التفتيش الإسباني الذي كان يقتضي نقاء الدم واعتناق الكاثوليكية.

ديمقراطية لليهود وليس للأخرين.

ولكن المثل الأكثـر دلالة على تدليس الديمقراطية على الطريقة الغريبة، والأكثـر حداة، لأنـه يعطـي المبرـر لكل أشكـال الحقـ في التـدخل باسـم الدـفاع عن حقوقـ الإنسـان، هو: «الـإعلانـ العالميـ لـحقـوقـ الإنسـان» الصادرـ عن الأمـمـ المتـحدـةـ فيـ عامـ ١٩٤٨ـ .

وسـنكتـفىـ بـبعـضـ القرـائـنـ، فهوـ يـنـادـىـ بـالـآـتـىـ:

مادة: كلـ البشرـ أحـرارـ وـمـتسـاـوـونـ فـيـ الـكـرـامـةـ وـالـحـقـوقـ . . .

معـ التـحدـيدـاتـ الـآـتـيـةـ:

مادة ١/٢٣: «لـكـلـ فـردـ الحـقـ فـيـ الـعـملـ» فـيـ حينـ أـنـ هـنـاكـ ٣٥ـ مـلـيـونـ عـاطـلـ فـيـ الـعـالـمـ الـغـنـىـ وـمـئـاتـ الـمـلـاـيـنـ بلاـ عـملـ وـهـامـشـيـنـ فـيـ الـعـالـمـ الثـالـثـ .

مادة ١/٢٥ : «لكل فرد الحق في مستوى معيشة يضمن له الصحة والرفاهية . . . » في حين أنه في الولايات المتحدة هناك ٣٥ مليوناً يعيشون تحت خط الفقر، ونفس الأمر في الجنوب حيث يعيش ثلاثة أخماس البشرية.

مادة ٢/٢٥ : «الأمهات والأطفال لهم الحق في مساعدة ورعاية خاصة». في حين أن تقرير اليونيسيف لعام ١٩٩٤ يبيّن أن ١٣ مليون طفل يموتون سنويًا من الجوع ومن سوء التغذية وأمراض من السهل علاجها، وأنه في الولايات المتحدة هناك طفل من ثمانية أطفال لا يأخذ كفايته من الغذاء (١٠)(*) .

هناك سؤالان أساسيان يطرحان نفسيهما بشدة :

١ - عندما نتحدث عن الإنسانية، فعن أي إنسان نتحدث؟
الأبيض؟ المالك؟ الغربي؟

٢ - ماذا يعني «الحق» لإنسان ليس لديه وسائل ممارسة هذا الحق؟
ماذا يعني على سبيل المثال الحق في العمل لملايين العاطلين؟ والحق في الحياة لملايين البشر الذين يموتون في العالم غير الغربي كي يستمر أصحاب الامتيازات في الغرب في متابعة نهبهم بحرية؟

علاوة على ذلك: من يمتلك حق التدخل؟ هل يوجد شعب إفريقي يمتلك هذا الحق كي يضع حدًا للتمييز العنصري في الولايات المتحدة؟ أو لكتى يعاقب مرتكبي جرائم مدينة لوس أنجلوس؟

(*) أصبحت النسبة الآن «واحد من كل سبعة أطفال». (الناشر)

التدخلات العسكرية للدفاع عن الحدود تمارس بطريقة همجية ، بينما لا يوجد أى جزاء ، برغم التصويت الإجماعى فى الأمم المتحدة ، عندما تضم إسرائيل القدس .

يمكنا أن نعدد الأمثلة لهذه الغابة ، حيث يسود قانون الأقوى تحت مسوغ الدفاع عن الديمقراطية : مساندة بینو شيه وكل ديكاتوريات العالم عندما تخدم المصالح الأمريكية ، وسحقها عندما تتوقف عن خدمتها ، من أمثال العژراں نوري سجا في پنما الذى كان يتلقى من بوش عندما كان مديرًا للمخابرات الأمريكية نفس معاملة رؤساء الولايات المتحدة ، بما أنه عميل مخلص ، ولكن تعرض بلاده للغزو عندما يطالب بحقوق مشروعة في قناته پنما . وصدام حسين الذى أطلق عليه في فرنسا في بعض الكتب «ديجول العراق» عندما كان يتلقى المال والسلاح ليحارب إيران ، يصبح فجأة هتلر الجديد عندما يحاول أن يقاوم التدخل الاستعماري للولايات المتحدة وحلفائها .

الكذب الأساسي الذى يسُوَّغ كل الجرائم باسم الديمقراطية (مثل الإبقاء على مقاطعة العراق التي تقتلآلاف الأطفال باسم الدفاع عن حقوق الإنسان) قائم على التوحيد المنافق بين حرية السوق وحرية الإنسان .

إن ديمقراطية حقيقة لا يمكنها أن تشيد على تصريح عالمي لحقوق الإنسان والمواطن يكون دائمًا مزيفاً وكاذباً ، ولكن على إعلان واع بواجبات الإنسان .

يمكن أن تكون مبادئه الملهمة هي الآتية :

الإعلان العالمي لواجبات الإنسان ديباجة:

الإنسانية في تنوع عناصرها هي كلٌ واحد لا ينقسم.

الواجب الرئيسي للجماعات والأعضاء هو خدمة هذه الوحدة وتطورها الخلاق بالتمييز بين الإنسان والحيوان، ويكون هذا الواجب هو أساس كل الواجبات الأخرى.

يُستبعد كل تسلط وتضمن كل الحقوق.

يُستبعد كل زعم في الخصوصية (exclusivité) وفي سيطرة معتقد أو أمة أو جماعة أو فرد.

تُضمن حرية التعبير لكل نزعة إنسانية (أى كل مذهب يخدم مصالح الإنسانية ككل لا يتجزأ، وكذلك حرية التعبير، وحرية الإيمان أو ممارسة كل دين «أى كل معتقد يمنح هذه الوحدة أصلاً إلهياً»). وكل تطلع قومي يساهم بثقافته الخاصة في سيمفونية هذه الوحدة العالمية، وفي ازدهار الإمكانيات الخلاقة التي يحملها كل فرد في داخله (أيا كان جنسه وأصله وإيمانه).

العالم اليوم واحد.

ووحدته الموجدة هي في الواقع خاضعة للتهديدات.

ووحدته المزمع صنعها هي حاملة للأمل.

* * *

الوحدة الموجدة هي الواقع محملة بالتهديدات،

كل أشكال التقدم الرائع للعلم والتقنية، تستخدم في الغالب في

تدمير ما هو إنساني أكثر مما تستخدم في ازدهاره، هذا بحسبانها غير موجهة بأى تخطيط عالمي وبأى تأمل حول معنى الحياة.

إن العلم والتقنية يعطيانا في الواقع قدرات وإمكانيات غير محدودة. ولكنهما غير قادرين على أن يحددا لنا غايتنا النهائية.

إن عالما قائما على مفهوم كمى للسعادة، لا هدف له سوى الإنتاج والاستهلاك بشكل متزايد ومتسرع لأى شيء، لدرجة أن التجارة الأكثر إثماراً اليوم هي السلاح والمخدرات.

في هذا العالم حيث تكتسب الثروات بواسطة المضاربة المالية أكثر مما هي بالعمل المنتج للسلع والخدمات، تقود كل الانحرافات إلى شريعة الغاب، دون أى قانون آخر سوى قانون الأقوى، وقانون العنف والغوضى.

إن تدمير ما هو إنساني بواسطة وحدانية السوق وعبادة المال، تستثير ردود أفعال للتمرد والهروب، كالهرب في المخدرات أو المهدئات، وفي انحدار الفن إلى تسليمة لنسيان الواقع والمعنى، والولع بالجديد لأنه جديد حتى ولو كان عبثياً، أو الفرجة لا من أجل اليقظ ولكن من أجل البلادة وغياب الوعي.

يتمثل رد الفعل أيضاً في التمرد الذي يولد من انفجار الإطار القديم للحياة الاجتماعية؛ العائلة، الكنيسة، الأمة. تدهور الإيمان الذي يتجلّى في انتشار الأصوليات والغيببيات وقراءة الطالع، وجماعات البدع الدينية. وتفاقم القوميات القديمة بواسطة أساطير الكيان العرقي، والذي يؤدي إلى تفكك النسيج الاجتماعي لوحدات متضائلة وغير قادرة على الحياة.

هذا التفكك للقوميات السياسية والأصوليات الدينية والعرقية يعولم العنف في فوضى دولية جديدة لا قانون لها ، ولا حق . وحيوات شخصية تحرمها هذه الفوضى من المعنى ومن المستقبل .

الوحدة المزمع صناعتها هي حامل للأمل :

أن يكون للحياة معنى هو أمر لا مجال لإثباته .

أن يكون لا معنى لها أمر لا مجال لإثباته أيضا .

هناك إذن رهان أساسى لإيقاف الانحرافات المتوجهة إلى انتحار الكوكب .

رهان مع كل ما يتضمن من أنواع الرفض .

رهان مع كل ما يتضمن من مشروعات .

رفض نظام قديم تم تجاوزه :

* الملكية لم يعد يمكنها أن تكون هي الحق الفردي في الانتفاع وإساءة الاستخدام ، والذى أدى إلى تجميع الثروة في يد قلة على حساب الغالبية .

* الأمة لم يعد يمكن لها أن تكون غاية في ذاتها ، تؤدي إرادة القوة فيها وإرادة النمو إلى حروب ومواجهات لا تنتهي .

* الذين لم يعد هو الزعم بامتلاك الحقيقة المطلقة ، هذا الزعم الذي أدى إلى الحق ، بل قل الواجب ، في فرضه على الآخرين ، وهو ما سوّغ محاكم التفتيش والاستعمار .

هي مشروعات مستقبل لا يكون كما سيكون ، ولكن كما نصنعه نحن .

التحول الجذري والذى يمكنه وحده أن يكفل ازدهاراً جديداً للإنسانية، أو على الأقل بقاءها على قيد الحياة، يقتضى الانتقال من النزعة الفردية التى يَعُدُّ كل فرد فيها نفسه مركزاً ومقاييساً لـكل شيء، إلى الجماعية التى يشعر كل عضو فيها أنه مسئول عن مصير كل الآخرين (إن حرية الآخر ليست هي الحد الذى تقف عنده حريرتى، ولكن هى شرط حريرتى)؛ كما يقتضى الانتقال من الوضعية القائمة على الاعتقاد الزائف فى أن العلم والتكنيك يمكنهما حل كل المشكلات بما فيها مشكلة معنى حياتنا، والتي أصبحت دين الوسائل وعبادتها، إلى الإيمان الذى يسميه البعض الإيمان بالله والبعض الآخر الإيمان بالإنسان، ولكنه دائماً إيمان بمعنى الحياة وبوحدة العالم. وذلك فضلاً عن الانتقال من الخصوصية التى تحابى مصالح فرد أو جماعة أو أمة ضد مصالح الكل. أى فعل لا يمكن أن يكون خلائقاً مستقبلاً ذى وجه إنسانى إن لم يكن قائماً على الاعتبار الأول للكل.

إن وضع العالم على عتبة الألف الثالثة يفرض علينا هذا الاختيار:

- إما عدم الوعى بفوضى حرب الجميع ضد الجميع^(*)، والتي فى مستوى قدراتنا الحالية تقود إلى الموت.
- وإما الوعى بالأولوية المطلقة من أجل إنقاذ الأمل، أى الحياة.

(*) من المصطلحات الأمريكية الشائعة في مجال الأعمال «قتل المنافسين» أو «دفعهم للجحون». (الناشر)

مشروع إعلان واجبات أى إنسان وكل إنسان

١ - الإنسانية مجتمع واحد، ولكن ليس بواسطة وحدة إمبريالية قائمة على سيطرة دولة أو ثقافة . هذه الوحدة هي على النقيض سيمفونية ، أى غنية بمشاركة كل الشعوب وثقافاتها .

٢ - كل واجبات الإنسان والمجتمعات التي ينتمي إليها تنبع من مساهمته في هذه الوحدة : أى تجمع إنساني : مهنى ، قومى ، اقتصادى ، ثقافى ، دينى ، لا يمكن أن يكون مشروعًا للدفاع عن مصالح وامتيازات خاصة ، ولكن لترقية أى إنسان وكل إنسان أيًّا كان جنسه أو أصله الاجتماعي أو العرقى أو الدينى ، كى يعطى كل فرد الإمكانية المادية والروحية من أجل استخدام كل القدرات الخلاقة التي يحملها في داخله .

٣ - الملكية ، عامة أو خاصة ، لا شرعية لها إلا إذا أقيمت على العمل وساعدت على تنمية الجميع ، وبالتالي حائزها هو مجرد مدير مسئول عنها . لا مصلحة شخصية أو قومية أو طائفية أو دينية يمكنها أن تجعل غايتها التنافس والسيطرة واستغلال عمل الآخرين ، أو الاستغلال المنحرف لوقت الفراغ .

٤ - السلطة ، على أى مستوى كانت ، لا يمكن أن تمارس أو تسحب إلا بواسطة توكيل من قبل من يتزمون ، التزاماً مكتوباً للوصول إلى المواطننة ومراقبة الواجبات .

**والحاizون يمكن أن يستبعدوا بواسطة أقرانهم إذا تعدوا .
وهي لا تتضمن أى امتياز ، لكن فقط واجبات واقتضاءات .**

وبتابعة نفس الهدف العالمي ، لا يمكن أن نقف كخصم لأى سلطة أخرى .

٥ - لا يجوز لأحد أن يزعم امتلاكه المعرفة الكاملة والحقيقة المطلقة ، لأن هذه الأصولية الثقافية تولد بالضرورة محاكم التفتيش والشمولية .

والإبداع خاصية من خصائص الإنسان تحول بينه وبين الاغتراب ، وتعمل على ألا تخل محله أى آلة ، مهما كانت درجة تعقيدها ، فلا يسقط في عبادة الوسائل (التي تستبعد كل أساس للواجب) .

٦ - هدف كل مؤسسة شعبية لا يمكن إلا أن يكون دستوراً لجماعة حقيقة ، أى على عكس النزعة الفردية ، هى رابطة يعي كل مشترك فيها أنه مسئول عن قدر كل الآخرين .

تليقزيون ضد المجتمع

هذا الإعلان للواجبات مع القسم والجزاءات التي يتضمنها ، لن تكون له فائدة في أى مكان إلا إذا التفت إلى ما هو اليوم السرطان القاتل للديمقراطيات الغربية : التليقزيون . سوف تعالج هذا الموضوع هنا في باب السياسة ، لأنه يمارس هنا بوضوح كل سلطاته وتخربيه : فلا العائلة ولا الكنيسة ولا المدرسة لهم اليوم تأثير مواز على العقول والسلوك .

وقد قلنا من قبل عن الديمقراطية الأثنينية ، إن كل شيء يعتمد على الشعوب ، وإن الشعب يعتمد على الكلام (أى السفسطائيين والبلغاء) .

الرأى العام، الذى من المفترض أن يعبر عن نفسه فى الانتخابات (أصبح سلبياً بسبب الامتناع عن التصويت فى الانتخابات، بما أن تأثيرها على الحياة الواقعية قليل) يعتمد على التليفزيون، سواء كان لسان حال دولة أو حكومة، أو قنوات خاصة فى يد المؤسسات الكبرى أو مفروضة دولياً بواسطة الاحتكار العالمى للمعلومات مثل CNN الأمريكية.

سماته المشتركة جمیعاً هي أن يكونوا خاضعين لقوانين السوق ولوحدانية السوق التى تسهر الولايات المتحدة على متابعة تطبيقها بصورة أرثوذك司ية وصارمة.

المعلومات (كلام أو صورة) هي سلعة خاضعة لاقتضاءات المنافسة والتسابق، وفيها يمارس المال رقابة أشد هولاً من النظم الأكثر شمولية.

إنها تملى البرامج بمقتضى معدل الاستماع (audimat) الذى يكرس التلاعب المثير بالعواطف والعنف والجنس، أو الجديد بأى شكل، بذرية أن المستهلك يحب ذلك. السباق إلى تقديم حدث جديد (scoop) يستبعد أى تحليل وأى تأمل نقدى، وأى ثقافة وفهم للحدث، فى سبيل أن يكون أول من يلقى الخبر.

المثير له الأولوية.

ما الحدث الصحفى؟ ليس هو ما يساعدك على الوعى بالاتجاهات الفكرية فى المجتمع، وما يضعك فى قلبها ويرز لك مسئولياتك تجاهها، إنما هو ما يؤدى إلى البيع فى حالة الصحافة المكتوبة، أو يزيد معدل الاستماع فى حالة قنوات التليفزيون (وبالتالى حجم وسعر الدعاية المترتب على ذلك).

أن تحب زوجتك، هذا لا يهم أى شخص، لكن لو قتلتها للدخل الأمر فى باب الحوادث وأشارت لك الصحيفة أو حصلت على ٢٧ ثانية فى الأخبار التليفزيونية، ولكن لو قمت بتنطيطها سيكون لك عمود أو ثلاث دقائق من البرنامج. أما لو أكلتها (كما فعل أخيراً شخص يابانى) فهذا هو المجد الإعلامى!

الاستغلال التجارى لهذه السادية لا يعرف الحدود، منذ العرض المباشر على الهواء لاحتضار فتاة صغيرة فى إحدى البرك، إلى التقديم الإخبارى لإعدام امرأة محكوم عليها بالإعدام ونفذ الحكم بعد ١٤ سنة من ارتكابها الجريمة، مضافاً لها صورة الهرس السادى لمن يتلقون النبأ ويحتفلون به فى حانة بكثوس من ال威iski.

العنف أيضاً ثمنه فيه: العرض المستمر لأفلام الرعب الأمريكية يشهد على ذلك. ومثلها مثل الماكدونالدز تستهوى الأطفال بشكل خاص، فهم يجدون فيها علاوة على العدوانية المتزايدة وجنوح الصبية، نماذج تكنولوجية للقتل الذى يحدث غالباً ويستلهمه صغار السن.

وبالنسبة للكبار، الصورة الكاذبة أو الحوار بالخدع لهما نتائج أكثر فتكاً:

فى مدينة تيميسوارا Timisoara الرومانية نخرج من المدافن جثثاً: أم و طفل (ماتا فى وقتين مختلفين) وبمونتاج ناجح بحيث نعتقد أنها مجرزة همجية تؤثر على الرأى العام لصياغته حسب الحاجة السياسية الآنية.

وهذا دليل كبير على فعالية الصورة ليس فقط كسلعة ولكن كسلاح في الصراعات.

والتدريب وترويج العنف بدأ مبكراً، إذ تقدر الإحصاءات الأمريكية أن الطفل بين ٦ - ١٥ سنة ينفق ٤٠ ساعة في الأسبوع في مشاهدة التليفزيون وفي اللعب بألعاب القيديو (حيث يمكن أن يُعد نفسه بطلاً رياضياً بالضغط على أزرار بلا مجهد ليحقق إنجازاً).

على جميع المستويات يغذي التليفزيون السلبية ويتوجه إلى التنميط هكذا يريد الجمهور من المطبع، تحت ذريعة أن «الجمهور عاوز كده»، وهذا الجمهور ليس لديه بالفعل الاختيار إلا بين منتجات هؤلاء الموجهين للوعي غير الواقعين وأشباه الرجال الذين يظهرون كنجمو لبرامج النوعات ومبرمجين للأفلام.

ثقافة مضادة مصنوعة في هوليوود بواسطة النخب المالية للعالم، مرتبطة من داكار إلى باريس أو إلى تايبيه، بواسطة السينما والتليفزيون وشرائط القيديو.

إن ارتياح السينما، ونسبة دخول الأفلام، وقائمة تأجير شرائط القيديو، ومعدل الاستماع التليفزيوني - كل هذا يشهد بأن: الغالبية الساحقة لصور الحياة التي تبث في العالم، تمثل إلى ترويج العنف والروع، وهي أفلام الرعب والإثارة التي تجد أسطورة الأقوى، الذي لا يقهرون، من طرزان إلى جيمس بوند، والعنصرية في أفلام رعاة البقر، والنظام القانوني في الأفلام البوليسية.

إنها ديانة معبدى الجماهير، وعبادة حيواتهم الزائفية، مع كل

بديل للمخدرات والضجيج العالى . وهذه هى نتيجة دخول التليفزيون فى ساحة السوق والشعائر الدعائية .

السيد هرسان Hersant^(*) كان يعلن بوضوح القانون السائد : «أقول إن هناك فيلماً جيداً أو برنامجاً جيداً، عندما يكون جاذباً جيداً للرسائل الإعلانية» .

هكذا تقوم ديكتاتورية معدل الاستماع ، التى هى عدد المشاهدين لبرنامج معين . ومعدل الاستماع يحدد ثمن الدعاية ومصداقية البرامج فى وقت واحد . وقد صرخ أحد متجمى برامج المجموعات فى القناة الأولى فى التليفزيون الفرنسي وهو ألبير إنسالم A.Ensalme في صحيفه تليراما (Télérama) :

«كلما هبط مستوى إللى أقصى حد، زاد معدل الاستماع . هذا هو الواقع . هل يجب علينا أن نتظاهر بالذكاء على المشاهدين؟ إنهم لا يميلون للتفكير، فلنكتف عن القيام بدور من يعطيمهم دروساً» .

هنا دعوة دائمة وحاسمة إلى الإغواء وإلى الديماجوجية وإلى الخلاعة المداهنة لرأى عام تتلاعب به الإعلانات ووسائل الإعلام والتليفزيون نفسه الذى لا يحكى التاريخ ولكن يصنعه ، فى اتجاه الإهمال وتضليل السوق وتفكيك كل عقلية نقدية وكل شعور بالمسؤولية . ابتداء من الاستقصاءات التى تتم لا للتعرف على الرأى ولكن لتوجيهه ، والبلاهة الخانقة للألعاب التليفزيونية واليابانصيب الذى يزيد من بريق فرص الحصول على النقود السهلة ، وصولاً إلى أخبار ليست فى حقيقتها كذلك ، والتى تستحدث فيها المشاهد على

(*) من أكبر مالكى الصحف وقنوات التليفزيون الخاصة فى فرنسا .

التأمل البليد لكوراث العالم. كل شيء يميل، بسبب الانتهازية التجارية، إلى التعامل مع الجمهور كأطفال سذج دون أي شيء يمكن أن يساعدنا في فهم أحداث هذا العالم في نهاية الألفية الثانية أو يظهر لنا مشاهد حياة إنسانية حقا (اللهم إلا بجرعات محدودة وبعد الساعة الحادية عشر ليلاً).

والحججة التي تستند إلى أن الجمهور لا يريد شيئاً آخر هي تدليس. فنحن لا نترك له الاختيار - في استطلاعات الرأي - إلا بين المكروه والأسوء.

كان جيرار فيليب Gérard Philippe يمثل مسرحية «السيد» أمام جمهور من ١٥٠٠ مشاهد متحمس، وكان چان فيلار Jean Vilar يجذب جمهوراً يملأ بهو في قصر شايو أو في مسرح الضاحية بتمثيله سواء للترقيديات اليونانية أو مسرحيات برترولد بريخت.

ليس الجمهور إذن هو المذنب، لكن أولئك الذين يجردونه من تحضره. هنا شكل من أشكال تلوث العقول، أكثر خطراً من أي إساءة إلى صحة البيئة الطبيعية أو الجسدية.

ولهذا، ووفقاً لروح إعلان الواجبات، لا ينبغي أن ننح اللبرالية المزعومة حق قتل العقل والجسد بواسطة نجوم مزعومين من الإعلاميين لا وعي لهم بالغايات والمسؤوليات التعليمية لرسالتهم.

ومن المفارقة أن نطلب من الأطباء، بعد دراستهم المهنية، كى يعالجو المرضى، أن يقسموا قسم أبقراط. وأولئك الذين تكون رسالتهم كل يوم هى أن يعلموا الملائكة من المستمعين والمشاهدين والقراء، وأن يتسائلوا عن مصير العالم وعن مسؤوليتهم الشخصية والنقدية في الإعداد للمستقبل، لأننا نطلب منهم شيئاً مشابهاً. وقد تم تعينهم إما من مدارس الإعلام التي تميّل لتدريس تقنيات الفعالية

أكثر من التأمل حول الغايات، هذا في أحسن الأحوال، وإنما يكون تعيينهم من الناشئين في مهنة أخرى: مذيع فني أو موسيقى لذلك الذي لم يستطع أن يصبح مبدعاً في الفن التشكيلي أو في الموسيقى، والذين لا يمتلكون سوى مبادئ أولية للثقافة تساعدهم فقط على إجراء متابعة الموضة الجارية أو حساب التجار، ولا يطلب منهم أي تعهد بالمسؤولية.

وكما يحدث في نهاية الدراسة الطبية إذ يكون هناك قسم أبقراط، لماذا لا نطلب منهم، بعد أن نعلمهم على الأقل مبادئ أولية في الثقافة وتساؤلات حقيقة عن الغايات الإنسانية لهم، قسم هرمس على استقامة حاملي الرسالة.

هذا لا يكفي، ولكنه يجذب الانتباه إلى أحداث كل عصرنا المهمة. إن مدرسة لا تكفي ل القيام بالأمر.

كل أعضاء المجتمع المدني، ينبغي أن يشتركوا في الإشراف على خريطة البرامج وعلى إدارة التليفزيون، كروابط المستمعين ومشاركة الهيئات الأساسية للمجتمع؛ نقابات عمالية وزراعية، وجامعات وتجمعات ثقافية لفنانين أو أعضاء المهن الحرة والحرفيين. يتعلق الأمر بالحصول على إشراف كل الشعب، لا الخضوع لسلط أو رقابة هذا الحزب أو ذاك، وهذه المؤسسة في الاتصالات ذات الهدف التجاري أو تلك الإعلانات التي تحول وتوجه البرامج. لا يتعلق الأمر هنا بإصلاح ولكن بتحول. لأنه في هذا المجال كما في أي مجال آخر، من الاقتصاد إلى السياسة والتعليم، فإن أسوأ الاليتوبيات هي الأمر الواقع.

الفصل الثالث

بواسطة تحول فى التعليم

كيف ننشئ تعليماً ذا طابع إنساني؟

إن الإنسان هو الحيوان الذي ابتكر الأدوات والقبور. ومنذ داروين شُغلَ العلماء بالبحث عن الحلقات المفقودة، التي يوجبهاتم تحول التركيب الداخلي لجسم القرد إلى التركيب التشريفي المعاكس بالإنسان.

ومنذ اكتشافات دوبوا Dubois عام ١٨٩٠ في چافا Java (بإندونيسيا)، واكتشافات ليكى Leaky Year ١٩٥٩ في أولدواي Oldoway (في شرق إفريقيا)، واكتشافات تابعيهما، وهذه الحلقات المفقودة تتزايد. ولكن، وعلى افتراض، أن ثمة عينات تشريفية لم تكتشف بعد، وعلى الرغم من تتبع جهود الباحثين في الحفريات عن أصول الحياة، من أجل سد هذه الثغرة، فلن تكون المشكلة هي مجرد تماثل البنى التشريفية بين القرد والإنسان: فنحن نتأكد من ميلاد الإنسان، فقط عندما نجد بجوار هذه الهياكل العظمية - التي ترجع إلى ما قبل التاريخ - أدوات وقبورا.

هنا بالضبط يقع ميلاد الإنسان.

لقد لاحظ ماركس الاختلاف الأساسي بين التطور البيولوجي وبين تاريخ الإنسان: لقد خضعت الحيوانات للتطور البيولوجي حين

أبقيت على الغرائز، في حين أن الإنسان صنع التاريخ حين طور أدواته وغير بيته.

يستطيع القرد - بلا شك - أن يكسر غصناً أو أن يلتقط حجراً، ليدافع عن نفسه، ولكنه يستغنى عنهما بمجرد أن يزول الخطر. أما الإنسان، فهو يشذب العصا أو ينحت الصوان، ويحتفظ بهما كوسيلة لإنجاز مئات المهام فيما بعد.

لقد كان في استعادة الإنسان لهذه الوسائل - لأغراض متعددة - شكل أولى من أشكال التجريد لفعل الدفاع أو النحت أو البناء.

أما القبر، فهو يقدم لنا شاهداً آخر على هذا التجريد؛ إذ لم تترك جثة الإنسان في العراء لتفسدة أو لتلتهمها الأنواع الأخرى من الحيوانات. فعملية حفر الأرض وتغطية جثة الميت، أو ترتيب الحجارة لحماية الجثة، أو في أحيان كثيرة دفن الجثة مصحوبة بأسلحتها وأدواتها وطعامها: كل هذا يؤكّد أن الموت بالنسبة للإنسان لا يعني نهاية الحياة البيولوجية، وإنما هو بالأحرى مرحلة إلى شكل آخر من أشكال الوجود. إن أول إنسان نظم هذا الاحتفال بشكل يتجاوز الحياة الحيوانية، طرح على الأقل على نفسه تساؤلاً عن المستقبل، حتى وإن كان هذا المستقبل غامضاً.

وسوف تقدم الأسطورة تعبيراً عن هذا التجاوز. فالأسطورة هي ميلاد للمعنى بمنأى عن المحدث. إنها إرهاص للتعالي، لتجاوز الواقع الملاحظ والمعيش ببساطة، من أجل تفسير الأصل أو تشكيل الغایات.

هذا هو الإنسان، كبيراً منذ البدء حتى لا يكتفى بذاته. فهو يعكس نفسه في مرايا أبطال تتجاوزه حتى يهدى الطريق لإنجازاته الكبرى

الآتية : پروميثيوس يخترع النار والفنون ، وبالنسبة للصينيين يتحكم الإمبراطور الملحمي العظيم يو لا في السيول ويخترع نظاماً لتوزيع الماء .

هذه الأساطير ليست تشكيلاً بدائيّاً للتصرّفات المجردة ، وإنما هي مساهمات في تجاوز هذه التصورات ، إذ إنها لا تكتفي - شأن كل تصور - بتجزئ الواقع ، إنما تتجاوز ذلك إلى الإرهاص بالمستقبل .

* * *

الأسطورة

إن نقطة انطلاق التعليم ، هو هذا الفعل المبدع للإنسان .
وهو أيضاً نقطة الوصول : أن نصنع من كل إنسان إنساناً ، أي مبدعاً ، شاعراً .

كيف يمكن إذن وضع الإبداع الفني في مسيرة تطور العمل الإنساني ، أو في المسيرة المستمرة لإبداع الإنسان للإنسان ؟

كيف تكون الأسطورة أحد مكونات الفعل من أجل تغيير العالم ؟

إذا كانت الأسطورة هي لغة التعالي ، فهذا التعالي لا يمكن توقعه من الخارج أو من موقع سلطة : فليس هناك تعال من أعلى ، أي من قبل الله ، ولا تعال من أسفل ، أي من قبل طبيعة معطاة كاملة التمام .

والأسطورة عند ماركس ، ليست - كما هو الحال عند فرويد - ترجمة وإن تكن متسامية للرغبة الغريزية ، وإنما هي لحظة عمل .

وهناك فارق أساسي بين الاثنين ، فالرغبة هي امتداد للطبيعة ، في حين أن العمل يتعالى بالطبيعة .

أن يصبح العمل هو رحم الأسطورة، كما أصبحت الثقافة هي المقابل للطبيعة - في مقام آخر -، فإن هذا يسمح لنا بأن نضع خطأ فارقاً بين الرمز في الحلم وبين الرمز في الأسطورة، الأول تعبير أو ترجمة للرغبة، أما الثاني فهو لحظة في إبداع الإنسان المستمر للإنسان من خلال شكل : شعري ، نبوئي ، مجاهد ، ولكنه دائمًا إبداع مستقبلى .

هكذا، نتجنب الخلط بين الأسطورة بمعناها الحقيقي ، وبين ماندعوه خطأ بالأسطورة : فإذا كانت الأسطورة هي لحظة العمل التي تأكد من خلالها ظهور الإنسان كمعيار جديد للوجود، أي كفاعلية للمستقبل ، فإننا لا نستطيع أن نطلق لفظ أسطورة على ما هو مجرد استمرار بسيط للماضي ، ذلك لأن الأسطورة تفوق العقل الكسول ، بما تنطوي عليه من الحكايات الرمزية والحكايات الخرافية التي تتعلق بالبحث عن الأسباب . فأى خير فيما هو إعادة إنتاج بسيطة أو تشبيت للحاضر عن طريق صورة تصبح نمطًا تقليديًا للسلوك؟ مثلها مثل النمط الاجتماعي الذي يتضاعف بفعل الدعاية أو الإعلان ، وهو وهم واغتراب . إذ ينزع ، لا إلى ترقية التاريخ ، بل على العكس ، إلى إيقاف التاريخ . وذلك لأنه يكون مجرد وجه للرغبة ، ويدفع الإنسان للدوران حول نفسه في دائرة الغريزة المغلقة . الأمثلة على هذا النموذج النمطي عديدة ، بدءًا من الدعاية الهاتلرية العنصرية ، أو استخدام الجنس كوسيلة للدعاية ، وحتى انتشار البديل المتدهور للبطل الأسطوري والذى يتمثل في النجم ، ذلك الذى يمنع الشباب الوهم التعبويضى عن حياة مفتربة ، حياة مزيفة نتيجة لتضخم الأسطورة : فديانا Diana تحمل الإلهة بيرينيس Bérénice ومادونا Madonna تحمل ملائكة Aphrodite .

هناك أساطير لا تفيينا بشيء، أو بالأحرى تستعبدنا، فهي لا تصل بنا إلى أي اتجاه . وهناك أساطير أخرى توجهنا نحو المركز الخالق في أنفسنا، وتفتح لنا آفاقاً جديدة، وتساعدنا دائمًا على تجاوز حدودنا. هناك أساطير مغلقة، وأخرى مفتوحة هي وحدها – في الحقيقة – الأساطير الأصيلة.

سوف نحفظ اسم الأسطورة لكل سرد رمزي يُذَكِّر الإنسان بحقيقة كائن مبدع، ويُعرِّفه بما يبتكره في المستقبل ، لا بما يشده إلى ماضي النوع من غريزة ورغبة .

مثل هذه الأساطير ليست بالضرورة نتاج عقلية بدائية .

إنها تنطوي على انتزاع مزدوج مما هو معطى لنا : أي من الطبيعة الخارجية ، ومن طبيعتنا الخاصة . إنها عودة إلى ما هو أساسى : الإنسان الذي يتصرف على قدميه ، ويستطيع أن يقول : "لا" في مواجهة ما هو معطى له بوصفه الواقع .

كان ماركس يدعونا إلى تفسير هذا الإعجاب الدائم بالأساطير الكبرى على مر القرون ، بوصفها تعبيراً عن طفولة الإنسان التي تتأبى على تعريف الواقع من خلال ضرورة واحدة ، ضرورة النظام السائد في الطبيعة أو المجتمع . وسواء تعلق الأمر بپروميثيوس ، أو إيكاروس ، أو أنتيرون ، أو جلجماش ، فكلهم يواجهون المستقبل فيما هو أبعد من الممكن .

في كل أسطورة كبرى ، شورية كانت أو دينية ، يلتقط الإنسان شيئاً من تعاليه الخاص في مواجهة كل ما هو ضرورة معطاة . وذلك انطلاقاً من معيار إنساني خالص يتمثل في العمل : إنه معيار وجود المستقبل كخمررة في الحاضر .

إن أهم ما يميز الأساطير الكبرى «كانتفاح نحو التعالي» هو التحكم في الزمن أكثر مما هو الخروج من الزمن. «الزمن العظيم للأسطورة» يسمح للإنسان بأن يحيا صباح العالم ولحظة الخلق، فلا يدرك ذاته كمقطوع من الكون، أو كجزء من نسيج قوانينه فحسب، وإنما يعي ذاته بوصفه قادرًا على التعالي بهذا الكون، والتدخل فيه كمبدع، أيضًا.

پروميثيوس أو أنتيوجون، مثلهم مثل أنبياء إسرائيل، أو مثل القصص الإنجيلية، يقولون لنا إن ثمة خروجاً ممكناً. «إنني أستطيع أن أعيد حياتي، وأن أغير العالم». هذا هو أعظم ما في قدرة الأسطورة على إثارة التساؤل.

لقد جاء المسيح ليبشر كل واحد منا بأن الحاضر ليس هو حلقة الوصل الضرورية بين الماضي والمستقبل في مسيرة القدر. ولكن «الحاضر هو زمن اتخاذ القرار»، والتعالي هو إمكانية البدء المطلق.

التعالي ليس صفة الله فحسب، ولكنه شرط الإنسان. والأسطورة هي تذكرة بهذا التعالي، ونداء موجه للإنسان ليمارس قدرته على المبادرة التاريخية.

لقد ولد معنى التاريخ مع الإنسان الأول، مع العمل الأول، مع المشروع الأول. هذا المعنى يزداد ثراءً بفعل كل مشروعات البشر، وسيظل دوماً مهمة ينبغي إنجازها وإبداعها.

فالأسطورة إذن ليست تكنيكًا للخروج من التاريخ، بل على العكس هي تذكرة بما هو تاريخي فعلاً.

إن البطل الأسطوري هو ذلك الذي يدرك أن ثمة سؤالاً مطروحاً على الإنسان بمقتضى ظرف تاريخي ما، وهو الذي يستطيع أن

يكشف - من خلال هذا الظرف - عن المعنى الإنساني ، أى أن يتجاوز الظرف التاريخي . وعلى هذا النحو يوقيظ انتصار أو فشل البطل لدينا حس المسئولة إزاء مشكلات عصرنا .

ليس من الممكن أن نقول مثلاً قال فرويد في كتابه «الوططم والتابو» : إن الأسطورة بالنسبة للجماعة مثلها مثل الحلم بالنسبة للفرد . فالحلم ليس إلا ترجمة لواقع سابق الوجود ، والأسطورة نداء لتجاوز حدودنا . الأسطورة - في الواقع - يصدق عليها ما قاله بودلير Baudelaire عن أعمال الرسام دلوكر دلacroix : «إنها تعليم للعظمة» (Péliade;1117).

«العمل» الدور المكونُ والأساسى في نشأة الأسطورة ، التي بدورها تُعدّ لحظة من لحظات العمل . وحين يقع العمل الحيوانى ببساطة على خط امتداد الرغبة وحاجات النوع ، يصبح أهم ما يتميز به العمل الإنسانى هو انبثاق المشروع ، وإبداع نموذج صالح لأن يكون قانوناً للفعل .

إن ما يميز الرمز في الأسطورة عن الرمز في الحلم ، هو بالتحديد هذا الانبثاق للنموذج . لقد كتب ليتشى شتراوس Levi-Strauss (*) يقول : «إن هدف الأسطورة هو تقديم نموذج منطقى لتناقض ما». ويضيف : «من الجائز أن نكتشف يوماً أن نفس المنطق هو الذى يعمل في الفكر الأسطورى والفكر العلمى» .

(*) كلود ليتشى شتراوس : عالم آثروبولوجيا فرنسي (1908 بروكسل) وأستاذ في الكوليج دى فرنس منذ عام 1959 - هو أول من وضع نظرية التحليل البنائى للأساطير . من أهم أعماله «الأثروبولوجية البنائية» ، «الفكر البدائى» .

لقد كان لليقى شتراوس - مثله مثل باشلار Bachelard^(*) -
الفضل فى إبراز الوحدة الوظيفية لكل من الأسطورة والفرضية
العلمية من خلال فكرة «النموذج» التى تشمل الاثنين .

إن أسطورة هيكتور Hector أو أوديب الملك ، مثلها مثل حكايات
الآلهة ، هى أسئلة عن المعنى ، الذى يمكن للإنسان أن يكتشفه أو أن
يجهبه حياته . الأسطورة ليست فقط تعبرا عما هو كائن ، ولكنها أيضاً
تساؤل عما سيكون ، واقتضاء للمضى إلى ما هو أبعد .

فالواقع ليس الطبيعة المعطاة وضروراتها الخاصة فحسب ، ولكن
الواقع هو طبيعة ثانية يصطنعها الإنسان عن طريق التقنية والفن ،
والواقع أيضاً هو كل ما لا يوجد بعد ، إنه الأفق المتحرك دائمًا فى إطار
الممكن الإنساني .

والأسطورة لا يمكن قبولها بوصفها علاقة بالوجود فقط ، وإنما
بوصفها نداء . فهى لا توحى بالشاهد وإنما بالغائب ، بفقد ما ، بفراغ
ما ، وتدعونا للتلئه .

هذه الأساطير هى شواهد على الخضور الحيوى الخلاق للإنسان
في عالم دائم التوالي والنمو . وكل عمل فنى كبير هو واحد من
هذه الأساطير .

الواقع ليس معطى ، ولكنه مهمة ينبغي إنجازها .

(*) باشلار: جاستون باشلار ١٨٨٤ - ١٩٦٢ فيلسوف فرنسي تخصص في
الأستمولوجيا ، وله فيها كتاب «الروح العلمي الجديد» ، كما قدم تحليلًا وجودياً
للمادة في كتابيه «الماء والأحلام» و«جماليات المكان» .

إن الانتقال من المفهوم إلى الرمز يسمح لنا بوضع كل نظام نهائى موضع مساءلة، والوعى ببساطة أنه نظام نهائى بالنسبة للأنهائى. يتعلق الأمر هذه المرة بانقلاب لمعنى الكلمة. فقد كان الإنسان موجهاً - في عنايته بالمعنى أو المفهوم - إلى ما تم عمله. أما مع الأسطورة، فهو مأمور بالتوجه إلى ما يجب عمله. فالإسطورة تدعونا لأن تكون مجرد مشكلين للأشياء، وحسابين للعلاقات، ولكن لأن تكون مانحين للمعنى، ومبتكرين للمستقبل. إن الرمز يقتضى منا هذا الانفصال عن الوجود، أو هذا التجاوز للوجود عن طريق استجلاء المعنى والابتكار. هناك مثل بوذى يقول: «عندما يشير الإصبع إلى القمر، فإن الغبي ينظر إلى الإصبع».

إن تعريف الأسطورة كلفة للتعالى، لا يعني نفي العقل، وإنما يعني التجاوز الجدلى من داخل عقل واع بتعاليه الدائم على القوانين المؤقتة التي كان قد أرساها من قبل.

إن الميثولوجيا^(*) هي انحطاط متغصب للأسطورة، تماماً مثل النزعة العلمية التي هي انحطاط دوجماتيقي متغصب للعلم. إن الميثولوجيا تطمح للاحتفاظ بحرفية الأسطورة دون روحها، وبجادة الزمن دون دلالته. غير أن أنتيرون^(**) Antigone لم تكن لتؤثر فينا

(*) الميثولوجيا: هي العلم الذى يكون موضوعه دراسة الأساطير، وهو يهتم بمجموعة التمثيلات الخيالية التى تتعالى موضوع ما، مثل القيم الخيالية المرتبطة بزىٰ ما أو بمقابلاته معينة، أو بشخص سينمائى، أو بضم فنان.

(**) أنتيرون: هو فى الأسطورة اليونانية ابنة أوديب وجوكاستا. وقد حكم عليها خالها الملك كريون بالدفن حية لأنها خالفت أوامره وأقامت الشعائر الجنائزية الالزمة لأخيها بولينيس الذى عده الحال خائناً للوطن وغير جدير بإقامة الطقوس الجنائزية عليه.

البطة إن لم تكن تحديا صامدا من أجل إتمام الشعائر الجنائزية لأخيها بولينيس Polynice، كما أن قيامة المسيح لم تكن لتزلزل حياة الناس منذ ألفى عام، لو كان الأمر يتعلق بمشكلة فسيولوجية خاصة بالخلية، أو بحالة إنعاش.

الأسطورة في تحررها من الميثولوجيا تبدأ من حيث ينتهي المفهوم. بعبارة أخرى، تبدأ الأسطورة من معرفة الفعل الخلاق لا من معرفة الوجود المعطى. فالأسطورة ليست انعكاساً للوجود، ولكنها هدف للفعل. وعلى هذا النحو لا تعبر الأسطورة عن نفسها من خلال مفاهيم ولكن من خلال الرموز.

الأسطورة هي الفعل الخلاق منظورا إليه من داخله، من خلال النوايا التي تحركه. وليس الهدف من هذه المعرفة - أو بالأحرى هذا المستوى من المعرفة - الوصول إلى ما هو عالمي، ولكن إلى ما هو شخصي ومعيش. فالأسطورة تعطي معنى للابداع وتحفز الفعل المبدع. إنها نداء، إنها أفعال، إنها شخصيات: فهاامت Hamlet، وأرچونة Arjuna، وفاوست Faust لا يمكن اختزالهم في مفاهيم، ولكنهم شخصيات تعبّر عن نفسها من خلال أسلوب السلوك الشخصي لكل منهم، حين يجددون نشاط المبادرة التاريخية لدى البطل.

تقع الأسطورة إذن - في معناها الأعلى - عند حدود المعرفة الشعرية^(*) والقرار الحر المسؤول للإنسان. عند هذا المستوى فقط، أي

(*) الشعرية ترجمة عربية لمصطلح Poetique: ولفظ البوطيقيا يرجع إلى أرسقو، ويقصد به قوانين صناعة الشعر، وقد استخدم اللفظ في النقد الأدبي الحديث عند الشكليين الروس ومن بعدهم بمعنى العناصر والأنساق التي تحدد أدبية النصوص، أي ما يجعل النص أدباً وليس كلاماً عادياً أو كلاماً علمياً.

مستوى الإمساك بالفعل الخلاق المختار، نستطيع أن نؤسس وأن نكتشف معنى الحياة والتاريخ. لأننا لا نكتشف هذا المعنى كمن ينظر من على قمة الجبل إلى منظر طبيعي فحسب: إنما تلقاء من خلال المعرفة وشكّله من خلال الفعل. إننا نحيّاه في الأسطورة كمعرفة وكمسؤولية للماضي قدماً. والمسافة التي نقطعها لمعرفة التاريخ الماضي كمنظر عريض وشامل، تسمح لنا بإدراك ما في الأسطورة من دلالة النمو، والمشاركة بشكل عملي ومكافحة في تحقيق هذه الدلالة. فالأسطورة تتجلّى كنظام مزدوج من الانسجام والإيعاز.

* * *

هذه التذكرة بما يميز الإنسان عن الحيوان، ويميز الأسطورة عن المفهوم أو التصور المجرد، هي طريقة تفكير ضرورية، ودرس تمهدى لكل محاولة لفهم ما هو التعليم. بهذه التذكرة نضع خطأً موجهاً ومجدداً للتعليم يتمثل في التساؤل عن الغايات، وعن معنى الحياة الإنسانية الخالصة، وعن دور الفن كدعوة للفعل الخلاق.

* * *

إن التغيير الجذري السريع - بصفة استثنائية - للعالم في القرن العشرين يشبه التغيير الذي لاقاه رجل في سنى (٨٥ عاماً) ولد في غمرة التاريخ الإنساني، ذلك أنه قد حدث في هذا القرن من التجديفات والتغييرات أكثر مما حدث على مدى ستة آلاف عام من التاريخ المكتوب.

ولن نذكر في هذا الصدد إلا الاكتشافات الثلاثة الرئيسية التي هيأت الظروف للنهضة الغربية في القرن السادس عشر:

أولاً: اكتشاف الطباعة بالحروف المتحركة في القرن السادس عشر، (تلك الحروف التي لم يخترعها جوتنبرج Gutenberg، وإنما اخترعها الصينيون في القرن الأول من التاريخ)، مما أدى إلى ديمقراطية الثقافة.

ثانياً: اختراع البوصلة الذي سمح بالإبحار في البحار العليا، وربط البشر في جميع أنحاء العالم بعضهم ببعض.

ثالثاً: البارود (الذي اخترعه الصينيون، كما اخترعوا الورق والطباعة والبوصلة من قبل، ونقل العرب هذه المخترعات إلى أوروبا) وكانت أداة أوروبا لفرض هيمنتها على العالم. ومن الواضح أن هذه الاختراعات مكنت القرن العشرين من إحراز تطور جذري.

لقد سمح الورق والمطبعة للنخبة - حتى هذه الأونة - بابتکار النزعة الإنسانية في القرن السادس عشر. كما سمحوا بتحقق ثقافة الأقلية في القرن التاسع عشر (فموسوعة ديدرو Diderot^(*) مثلاً طبع منها ١٥٠٠ نسخة). أما في نهاية القرن العشرين، فيطبع من رواية حائزه على جائزة ما، مئات الآلاف من النسخ، ويوزع من إسطوانة ما عددة ملايين من النسخ، ويصل التلفزيون إلى عدة مليارات من المشاهدين. فالاتصال - سواء أكان بعرض الإعلام أو احتكار العقول - لا يقارن بأى حال من الأحوال في نهاية هذا القرن بما كان عليه في بداية القرن.

(*) ديدرو: (١٧١٣ - ١٧٨٤) كاتب وفيلسوف فرنسي من رموز عصر التنوير. كان مسؤولاً عن تحرير موسوعة لعلوم عصره. وكان يراهن على التقدم العلمي.

نفس الشيء يمكن أن نقوله بالنسبة لتنقلات البشر، وانتقال الأفكار: فيوليوس قيصر ونابليون، على ما يفصل بينهما من ٢٠٠٠ عام، كانا يستغرقان نفس الزمن للذهاب من روما إلى باريس (على ظهر الحصان).

وقد حلقت طائرة رايت Wright في أول رحلة لها عام ١٩٠٣ لمسافة عدة مئات من الأمتار. في حين أن الطائرة - في عام ١٩٩٧ - يمكن لها أن تقوم بدورة حول العالم بدون توقف في مدة أقل من يومين. وفي عام ١٩٩٧ أيضاً يمكن لمحطة فضائية أن تقوم بعدة دورات حول الأرض في بضع ساعات، ويمكن لها أن تحمل إنساناً إلى القمر.

أما بالنسبة لوسائل الدمار، فإن مدفع ووترلو Waterloo، لم يكن مداه يتتجاوز كثيراً المدى الذي كانت تصل إليه المقذوفات النارية في بيزنطة في القرن الثامن. أما چنكيز خان، فكان يلزمته عشرة أيام ليقيم في أصفهان هرماً مكوناً من عشرة آلاف جمجمة. وفي عام ١٩٤٤ أدى قذف جوى بالفوسفور إلى تدمير حوالي ١٣٠ ألف من سكان مدينة دريسدن Dresden في ألمانيا، واستطاعت القنبلة النووية أن تدمر هيرشيميا في عدة ثوان. وفي نهاية هذا القرن نجد مخزوناً هائلاً من القنابل النووية ذات فعالية أكبر من قنبلة هيرشيميا.

* * *

مثل هذا التطور الجذري يقتضى منا أن نعيد التفكير بطريقة جذرية في مشكلات التعليم سواء في ذلك محتوى التعليم أو أبنية نظام التثقيف.

فالملاحظ أن الإصلاحات المزعومة للتعليم منذ القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين هي عبارة عن ترميمات ونزاعات لانهائية حول مدى الجرعة المدرسية من الكلاسيكيات (اليوناني واللاتيني) ومن المواد الحديثة (الرياضيات ثم الحاسوب). أو حول الهيكل الوظيفي والمتضيقات المهنية للمعلمين .

غير أن السؤال الرئيسي لم يطرح البتة : ألا وهو الاستفهام عن غايات التعليم . في حين أن هذا وحده هو الذي يسمح بتوسيعه المحتوى والأبنية التعليمية معاً . في المجال التعليمي كسائر مجالات الحياة الاجتماعية ، تم تغليب مبدأ الختمية على مبدأ التعالي .

لقد كانت « الختمية » déterminisme التعليمية - ومنذ قرون - هدفاً يجعل من التعليم منهجاً لإعادة إنتاج النظام القائم . ففي العصور الوسطى ، كان التعليم مؤسساً على نظام الفئات : بالنسبة للنبلاء ، هناك تعليم للفرسان لتكونين محاربين وقادة . بالنسبة للكنيسة ، هناك إعداد للرهبان الذين سيصبحون قساوسة وقضاة أو أحياناً رجال دولة . وكان المهني يعلم العمال ليصبحوا زملاء له أو أساتذة مهنيين فيما بعد . أما الفلاح - الذي كان منعزلأً في إطار العائلى والمحلى - فقد كان مقدراً له خدمة سيد القرية ، الذي كان يقدم له بدوره الخدمة الأدنى من التعليم الدينى ليضمن خصوصيته له .

وقد شكلت الثورة الفرنسية - بلا شك - انقطاعاً مع هذا النوع من التعليم . فقد لزمها - منذ البدء - تنظيم عملية إحلال التمايزات الجديدة - التي أحدثتها تدفق الأموال الناتج عن تطور الصناعة - محل المراتب القديمة للنبلاء .

وهكذا ارتفعت قيمة التعليم والأهمية الاجتماعية للعلوم والتكنيك فى كتابات كوندورسيه Condorcet^(*) ولاكانال Lakanal^(**) وهو ما نجد شاهداً عليه فى إنشاء المدارس المركزية فى العام الثالث للثورة الفرنسية Les Ecoles Centrales de l'an III.

كان يلزم أيضاً إعداد الكوادر وفرق النظام الصناعى الجديد، وتهيئة الأطفال للوظائف الاجتماعية والمهنية الجديدة، بل ومحاولة إحلال دين جديد - يكون عامل انسجام وطني - محل الدين الكاثوليكى التقليدى. لقد انطلق التقرير المقدم إلى الجمعية الوطنية الفرنسية من هذا التعريف الموسوعى (الذى كان قد أقره من قبل ديدرو) : «يتمثل فن التعليم فى تقديم كل المعارف الإنسانية فى إطار نظام عام ».

* * *

لقد قامت الحضارة الغربية - التى تدعى أنها حضارة استثنائية - منذ عصر النهضة، على ثلاث مسلمات كانت قد أثرت ثمارها الكبرى - بصفة خاصة - على يد الفلسفة الإنجليزية، والفلسفة الفرنسية، والفلسفة الألمانية .

(*) كوندورسيه: فيلسوف وعالم رياضيات فرنسي (1799 - 1843)، وهو من كتاب الموسوعة الفرنسية. قبض عليه فى أثناء الثورة الفرنسية بحسبانه متمياً بلناح چيروند المعتدل. كتب فى السجن كتابه الشهير: «مخطط لتقدم العقل الإنساني» الذى ذهب فيه إلى أن هناك تقدماً مطرداً للعلم سوف يؤدى إلى تقدم مماثل في الأخلاق. حكم عليه بالإعدام، فتجرّع السيم ليقتل من المصلحة.

(**) لاكانال: سياسى فرنسي (1762 - 1845) أدى دوراً كبيراً في رسم سياسة الثورة الفرنسية في التعليم وتنظيم المدارس .

فعلى الرغم من نزوع هذه الفلسفات إلى العالمية ، وانفصالها عمّا هو محلي ، فإن كل واحدة منها هي - تاريخياً - مرتبطة بتجربة خاصة لنمو الطبقة البورجوازية القومية في كل بلد على حدة.

إن من نطلق عليهم الفلسفه الإنجليز ، يرتبطون جميعاً بمرحلة نمو الليبرالية الاقتصادية التي سمحـت بالتوسيع الاستعماري لشركة الهند الشرقية ، ومعظم هؤلاء الفلسفـة ، بل أكثرهم أهمية كانوا موظفين أو مثقفين عضويـن (بحسب تعبير جرامشـي Gramsci (**)).

أما المدرسة الفلسفـية الفرنسـية - التي كان ديكارت Descartes الأـب الروحي لها - فقد ارتبطـت بشدة بنـمو الثورة الصناعـية ، فقد كانت الآلـية الـديكارـتـية هي المـحرك لـهذه الثـورة . كما كان فـلـاسـفة التـنوـير هـم الـورـثـة الأـكـثـر تـشـدـداً لـهـذـا النـظـام . كما وـاءـمتـتـ الثـورـة الفـرـنسـية بـينـ العـلـاقـاتـ السـيـاسـيـةـ وـالـسـلـطـاتـ الـاـقـتصـادـيـةـ الـجـدـيدـةـ . فأـصـبـحـتـ سـيـادـةـ الـبـورـجـواـزـيةـ حـقاـ مـكـتـسـباـ مـنـ خـلـالـ الثـورـةـ الفـرـنسـيةـ . وـقـتـ هـيـكـلـتـهاـ بـاتـظـامـ مـنـذـ نـاـپـلـيـوـنـ . لـكـنـهاـ أـصـبـحـتـ مـوـضـعـ تـسـائـلـ إـلـىـ حـينـ - فـيـ عـصـرـ الإـصـلاحـ . وـلـمـ تـجـدـ الـبـورـجـواـزـيةـ قـوـتهاـ إـلـاـ فـيـ إـطـارـ وـضـعـيـةـ أوـجـسـتـ كـوـنـتـ كـوـنـتـ August Comte (***) ، الـذـيـ تـمـسـكـ باـسـتـقـرـارـ هـذـاـ النـظـامـ ضـدـ أـىـ اـنـبـاثـاقـ لـلـنـظـامـ الـقـدـيمـ أوـ لـلـدـينـ ، بلـ أـيـضاـ ضـدـ كـلـ مـحاـولـةـ لـتـجـاـوزـ الـوـضـعـ القـائـمـ .

(*) جرامشـي (1891 - 1937) ، فـيلـسـوفـ وـرـجـلـ سـيـاسـةـ إـيـطـالـيـ ، سـاـمـهـ فـيـ تـشكـيلـ الحـزـبـ الشـيـوـعـيـ إـيـطـالـيـ عـامـ 1921 وـقـدـ أـسـلـمـ الـحـكـمـ الـفـاشـيـ فـيـ إـيـطـالـيـاـ إـلـىـ الـمـوتـ بـعـدـ حـكـمـ بـالـسـجـنـ مـلـدـةـ عـشـرـيـنـ عـامـاـ .

(***) أوـجـسـتـ كـوـنـتـ : 1798 - 1857 . فـيلـسـوفـ فـرـنـسـيـ ، مـؤـسـسـ المـدـرـسـةـ الـوـضـعـيـةـ . وـكـانـ يـؤـمـنـ بـأـنـهـ مـاـ مـنـ شـيـءـ مـطـلـقـ . وـلـكـنـهـ دـعـاـ فـيـ أـوـاـخـرـ حـيـاتـهـ إـلـىـ دـيـنـ جـدـيدـ لـلـإـنـسـانـيـةـ جـمـاعـاءـ .

لقد ظل التيار الوضعي تياراً مباطناً لمفهوم العالم لدى الكثيرين من علماء الطبيعة والبيولوجيا حتى القرن العشرين، ونضرب مثلاً على ذلك بكتاب چاك مونو ^(*) Jacques Monod «المصادفة والضرورة» *Le Hasard et la Nécessité*.

إن السرعة المتزايدة لنمو التاريخ، بالإضافة إلى المشكلات الجديدة التي تطرح نفسها بشكل جذري، تقتضي منا تحويلاً جذرياً للتعليم: غایاته وأبنيته.

غير أن مسار التعليم القومي كان يضى من تعديل ردىء إلى تعديل أرداً، ومن إصلاح إلى آخر، منذ چول فرى ^(**) Jules Ferry وحتى وزراء التعليم الحالين.

لقد كان كل من پانتجروں Pantagruel وإميل Emile، أبطال معظم البحوث الفلسفية حول التعليم (العلم بدون ضمير ليس إلا انهياراً للروح). ولكن ما من مؤسسة تعليمية كانت على استعداد لقبولهما. كما كان تلاميذ كل من الكوفريباس Maitre Al- cofribas وروسو Rousseau غير مرغوب فيهم بالنسبة لمدارسنا، لأنهم يلحون في التساؤل عن غایات التعليم، وهو ليس حال هذه المدارس.

(*) چاك مونو: (١٩١٠ - ١٩٧٦) طبيب وبيولوجي فرنسي. حصل على جائزة نوبل عام ١٩٦٥، وكان مديرًا لمعهد باستير حتى وفاته. وهو يضع في كتابه «المصادفة والضرورة» الأسس الفلسفية للاكتشافات البيولوجية الحديثة.

(**) چول فرى: (١٨٣٢ - ١٨٩٣) محام ورجل سياسة، تولى عملية إصلاح التعليم في فرنسا في بداية الجمهورية الثالثة (١٨٧١) وأرسى مبدأ التعليم العلماني والإلزامي والمجانى للجميع. وكان من أشد المتحمسين لسياسة فرنسا الاستعمارية.

هذه القضية وحدها كان من الممكن أن تعطى معنى للحياة ولأنسجام المجتمع من خلال هدف عظيم ومشروع كبير مشترك .
وطيلة القرن العشرين ، كان ثمة بحث عن البديل لهذه الغائية ، وهو العلمانية .

وعلى الرغم من الامتياز المبدئي لفكرة الفصل بين الكنيسة والدولة^(*) ، فإنه سرعان ما تم خلط هذا المبدأ - لا باحترام تدين أو عدم تدين المرء - وإنما بفكرة استبعاد جوهر العقيدة الدينية نفسه ، أي استبعاد التساؤل عن الغايات النهاية للحياة الشخصية والاجتماعية لفرد .

وهكذا لم يساهم هذا الدين الجمهوري الجديد في خلق الائتلاف ، بل بث التناحر بين أفراد الأمة ، سواء تعلق الأمر في هذا الصدد بمعارضة هذا الدين الجديد للمدارس الحرة (أى المدارس الطائفية

(*) كانت أوروبا خاضعة تماماً لسلطة الكنيسة الكاثوليكية التي انفردت بالتواء مع الملوك وبالإشراف على التعليم الذي كان دينياً بحتاً ، كما كان للبابوات سلطاناً هائلاً على تسيير أمور البلاد بما لهم من قداسة وعظمة ، كما ضمت الكنيسة العديد من أراضي الدولة إلى ملكيتها الخاصة .

وقد ضعف نفوذ الكنيسة منذ القرن السادس عشر نتيجة لحركة الإصلاح الديني التي تزعمها مارتن لوثر في ألمانيا ، ولتصاعد الطبقة البرجوازية المضادة لطبقة النبلاء من الإقطاعيين الذين كانت الكنيسة تحميهم . وقد توجت هذه الجهود الشائرة على التسلط الكنسي بالثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، والتي عملت على فصل الكنيسة عن الدولة ، وحرمان الكنيسة من قوتها وثروتها ، فقد قدرت الأراضي التي تملكتها الكنيسة في فرنسا وحدها في ذلك العهد بما يزيد على ثلاثة بلايين فرنك ، كما جعلت من رجال الدين مجرد موظفين في الدولة . وعلى ألا تتدخل الكنيسة في تعيين الأباطرة أو حرمانهم من الحكم وألا تتدخل في التعليم . وفي عام ١٩٠٤ أصبح هذا الفصل قانوناً رسمياً في الجمهورية الفرنسية .

بصفة عامة) أو الكاثوليكية بصفة خاصة ، أو حتى المنازعات العنصرية الخاصة بمحجوب بعض الفتيات المسلمات . تلك القضية التي شن فيها التطرف العلماني (وليست العلمانية) هجوماً دعائياً ضد التطرف الإسلامي (وليس الإسلام) . هذا على الرغم من أن هذا الاستنكار لم يشمل الصليبان المسيحية أو غطاء الرئيس اليهودي الذي يرتديه الطلاب . في هذا الهجوم البشع ضد ٤٢ فتاة بدأ حجابهن مهدداً للجمهورية !!

إنقاد الكثيرون من المعلمين السذج ، وكذلك الجمعيات الأهلية ، لهذا الهجوم ، مثلهم مثل الثور الهايج أمام الرداء الأحمر ، لا يفهون أن العنصرية هنا هي التي كانت تلبس قناع الدفاع عن العلمانية .

غير أن الخصومة بين المدرسة الدينية والمدرسة العلمانية كانت أكثر دواماً وأكثر عمقاً من هذا .

في هذا الإطار نستطيع أن نفهم دوافع المؤيدين للمدارس الطائفية (التي تسمى باسم المدرسة الحرة) إزاء تدهور أحوال المدارس العامة ، التي تصادر على ما هوأساسي بالنسبة للإنسان ، أي على بحثه عن معنى حياته ، ذلك أن هذه المدارس تستبعد كل النصوص التي تطرح هذه القضية في كل أدبيات التصوف والحكمة عند أنبياء بنى إسرائيل ، وآباء الكنيسة ، والصوفية المسلمين ، والزهاد الهندو . هذه المدارس العامة ترك الناس في طريق بلا معالم . وتسلّمهم إلى نزعة علمية مبرمجة للإنسان ، يعتقدون أنهم قد عثروا في الآلة ، كمورد هائل للوسائل ، على أدواتهم لاستكشاف الغايات . فصار حتمياً إذن ، أن يسود اعتقاد بأن هناك مدرسة أخرى يمكن لها أن تملأ هذا الفراغ في

العالم، الذى لا يعمل فقط بدون إله، ولكنه يعمل بدون إنسان أيضا، إنه عالم اللا معنى.

إن إرادة إرشاد الطفل التائه بين فراغ السماء وفوضى الأرض، إلى بعض العلامات والغايات لهو شيء قيم بالتأكيد.

وهذا الأمر كان من الممكن تنفيذه لو كانت هناك استجابة لنداء الأب يوحنا الثالث والعشرين ومجلس القاتيكان الذى قضى بأن تظل مهمة الكنيسة على الطريق الذى افتحه السيد المسيح، أى أن تكون مهمتها خدمة العالم لا إدارته. فمثل هذا اللقاء الرائع بالعالم كان من الممكن أن يرعب الصدوع.

ولكن، بعد قليل، عرفت الكنيسة الكاثوليكية مرحلة من التجدد بإقامة حكم كنسى مطلق، (تجلى بعد محاكمة أصحاب لاهوت التحرير الذين كانوا يترجمون أقوال ونوايا مجلس القاتيكان الثاني، وخصوصا دستور جوديوم وسب Gaudium et Spes، إلى أفعال) فى كتاب التعاليم المسيحية لعام ١٩٩٢ والذى يعود بنا إلى مجلس الثلاثين لعام ١٥٥٤ (*).

(*) مجلس الثلاثين (١٥٥٤ - ١٥٦٣) هو اجتماع للأساقفة وعلماء اللاهوت للكنيسة الكاثوليكية، والذى عقدت ضماده وضفت أصول العقيدة المسيحية والكنيسة. وقد أعقده استقرار للفاتيكان فى عام ١٥٨٨ كأصغر دولة فى العالم يرأسها البابا وتعنى بأمور المسيحيين الكاثوليك.

وقد مر بالفاتيكان حركتان للإصلاح، الأولى تعرف بالفاتيكان الأول فى عام ١٨٧٠، والثانية الفاتيكان الثانى عام ١٩٦٢. وقد أقرت الحركة الثانية بضرورة تجديد علاقة الكنيسة الكاثوليكية بالعالم المعاصر. لكن البابا يوحنا بولس الثانى أصدر حديثاً (عام ١٩٩٢) كتاب التعاليم المسيحية للكنيسة الكاثوليكية، وقد رأى البعض فى هذا الكتاب تشديداً يعود للتقاليد القدية.

وقد سجل راعي كنيسة متعصب على مدخل كنيسته هذه العبارة: «هنا سوف تجده الإجابة». في المقابل كتب طفل بالطباشير على باب الكنيسة: «ولكن أين هو السؤال؟».

وعلى هذا النحو، استطاع أبسط الناس أن يوجهنا إلى المسألة الأساسية: هل الإيمان سؤال أم إجابة؟

ذلك هو العمق الإنساني (آخرون سيقولون العمق الإلهي)، ولكنني أعتقد - وبصرف النظر عن هذا التمييز اللغوي البسيط - أنه ما من إنسان بدون إله، وما من إله بدون إنسان، وسوف نحاول تفصيل هذه الفكرة فيما بعد) لمشكلة العلمانية. فالسؤال يطرح دائماً بشكل مغلوط، ومن ثم فما من حل له، ذلك أننا نخلط العلمانية بالحادية، (كما لو كان للدولة دين)، ونخلط الإيمان بالطاعة للكنيسة (كما لو كانت الكنيسة الكهنوتية هي المملكة المثالية التي يجب على العالم أجمع أن يخضع لها).

ليس ثمة حوار يمكن بين شكلين متوازيين من التطرف، وإن كان هناك حوار فلن يسفر إلا عن تسوية بين مثالين ضالين.

ولا يمكن أن نطرح القضية الأساسية للتعليم بعيداً عن هذه التعارضات الزائفة.

في هذا الإطار لن نتحدث إلا عن ثلاث مواد: تعليم القراءة، والتاريخ، والفلسفة، ذلك أن كل شيء في نظامنا التعليمي يجب أن يعاد بناؤه انطلاقاً من البدايات والأسس. وتمثل البدايات في تعليم القراءة.

* * *

لقد كشف بحث لمنظمة التعاون للتنمية الاقتصادية OCDE النقاب عن أن ربع سكان العالم يعانون من صعوبات جادة في القراءة والكتابة.

كما أن ملايين البالغين يقفون عند حدود الأمية في البلاد النامية. كما أظهر بحث للمعهد الوطني للإحصاء بفرنسا Insee - كان قد تم تطبيقه على الشباب - أن حوالي ١٠٪ من هذه الشريحة العمرية في فرنسا يعانون من صعوبات في القراءة . أى أن مجموع ٣ ملايين و ٣آلاف شخص يعانون من الأمية في فرنسا (٩٪ من السكان البالغين). ونجد نتائج مشابهة في بلاد أوروبية أخرى ، ففي ألمانيا نجد نفس الرقم : ٣ ملايين أمريكي ، وذلك إذا ما رأينا أن الأمية بحسب تعريف اليونسكو «فهم لقطعة بسيطة ومحضرة عن وقائع الحياة اليومية مع عجز عن قراءتها وكتابتها».

وفي إنجلترا ، وطبقاً لبحث منشور من قبل المكتب الوطني للإحصائيات ONS ، نجد ٤,٨ مليون بريطاني يعانون من هذا المستوى من الأمية ، أى واحد ضمن كل خمسة أفراد من البالغين.

كما أن ٢٢٪ من البالغين مابين ٦٥ و ١٦ سنة يعجزون عن مقارنة معلومات مكتوبتين ، أو عن قراءة جريدة ، أو عن فهم جدول المواعيد ، أو عن ملء بطاقة بيانات .

وتضرب الولايات المتحدة الرقم القياسي في هذا النوع من الأمية ، وفي كل أشكال التدهور التعليمي التي سبق عدتها مقارنة بالبلاد التي يقال عنها نامية .

فخارج حدود الجامعات العليا التي تتكلف فيها الأسرة دفع مصروفات للطالب تبلغ من ٢٠ إلى ٣٠ ألف دولار في العام الواحد ، وفيما يخص الجماهير العريضة «نجد نظام التعليم العام الأمريكي

متدهوراً» كما يخلص إلى ذلك تقرير المتخصصين في جامعة كولومبيا (The global economy; 1990). فهناك ٤٠٪ من طلاب المدارس الثانوية الأمريكية يعرفون أنهم لا يجيدون القراءة الصحيحة. وهناك ٢٣ مليوناً من البالغين (أى ما يقرب من ١٠٪ من السكان) يعانون من الأمية.

إن تدهور المجتمع الذي تديره قوانين السوق العمياء وحدها، يعاني بالضرورة من افتقاد للمرتكزات وللمعنى، مما يؤدى إلى اضطراب المعلمين، وعدم أهمية المؤسسة المدرسية بالنسبة لقطاعات كبيرة من الشباب، وسيادة العنف الأعمى في مجتمع يقوم نظامه على حدة تنافس الكل ضد الكل، وغياب الشعور بالانتفاء لدى ملايين العاطلين عن العمل، والمطرودين من وظائفهم. فهو لاء يعانون من الشعور بعدم أهميتهم في المجتمع، وافتقادهم لأى منظور للمستقبل أو لأى معنى لهذا المجتمع.

إن درجة التدهور هذه ليست صناعة النظام التعليمي الحالى، بل هي صناعة المجتمع الذى يعكسه هذا النظام التعليمى. وهذا يقتضى شيئاً آخر غير إصلاح التعليم، أى غير مجرد التكيف مع الضرورات المستجدة، بما أن هذا المجتمع لا يتسمى إلى أى ضرورة إنسانية، وإنما إلى التغيير الجذري فحسب.

مثل هذا المجتمع يدعونا إلى تفكير أساسى حول غایات التعليم، وإلى قلب كامل لمعطيات المشكلة. فدرجة التناحر الاجتماعى التى بلغتها مجتمعات السوق اليوم تستدعي أفكاراً مختلفة فى الأساس، وهى أن هدف التعليم لا يمكن أن يكون تكيف الإنسان مع الفوضى القائمة، ولكن على عكس مسار الختمية الذى ساد لعدة قرون فى نظام التعليم، لابد أن نوفر للإنسان وسائل للتعالى بالإنسان، وسائل لابتكار مفهوم جديد للإنسان والمجتمع والعالم.

فالتعليم لا يمكن أن يكون انعكاسا وإنما يكون مشروعًا.
في هذا الإطار سوف نعرض لثلاثة أمثلة فقط لضرورة التغيير الجذري للتعليم: تعليم القراءة، التاريخ، الفلسفة.

* * *

كل شيء يبدأ مع القراءة، ومنها يكون الالتزام بأى مفهوم للثقافة. هنا أيضاً، إذا كان التاريخ المكتوب للإنسانية يرجع إلى حوالي ستة آلاف عام، فمن الضروري، أن نفهم - في البدء - التطور الجذري الذي أحدثته الكتابة في مرورها من مرحلة ما قبل التاريخ إلى مرحلة التاريخ المكتوب. تلك المرحلة التي استخدم فيها الإنسان الكلمة والعلامة - لا ليشير عن طريق الصوت إلى خطر يتهدد الجماعة - كما هو حال الحيوانات، التي تصدر أصواتاً للإشارة إلى حرب أو فرار أو طيران - وإنما ليبدع مستقبله الخاص.

ففى نهاية الأمر، لا يصنع الإنسان إلا تاريخه الخاص، والكلمة المكتوبة هى أداته للتغيير البيئة والجماعة، ولنقل المعرفة، وللإرهاص للتغيرات الجديدة.

عن تعليم القراءة، لن نتحدث إلا عن الخطوط العريضة، ذلك أن كتاب باولو فرييري ^(*) ⁽¹¹⁾ Paolo Freire يقدم لنا المناهج الأساسية لتحقيق هذا المشروع الكبير:

(*) باولو فرييري: مفكر معاصر من البرازيل يعمل في مجال التربية والتعليم، وقد قدم إسهامات مهمة في مجال التعليم البديل تميّز بالإبداع في طريقة التعليم، وخصوصاً في آليات التكيف مع شروط بلدان العالم الثالث. وأهم كتبه في هذا الصدد كتاب «ال فعل الثقافي في سبيل الحرية» وقد ترجم إلى العربية وصدر عام ١٩٩٥ عن مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان بالقاهرة.

وهو التعليم العملى للحرية، فى هذا المنهج يبدو تعليم القراءة نوعا من الوعى بالواقع (توعية).

أن تتعلم القراءة، فهذا لا يعني فقط أن تذكر أو أن تتهجى الكلمات، وإنما يعني أن تتعلم كيف تفسر الواقع، أى أن تدرك أن الكلمات لا تكشف، وإنما - على العكس - تخفى. إن الطلاب الأميين - في بداية المرحلة الثانوية - ليسوا أميين لأنهم لا يعرفون كيف يفهمون أو يلخصون نصا يستطيعون فك حروفه فحسب، بل لأنهم حتى لو استطاعوا الفهم والتلخيص، يعجزون عن فك شفرة الكلمات التقليدية، والفتنة إلى التناقضات والفخاخ التي تكمن خلف النص.

أن تعرف القراءة، لا يعني أن تترجم شفاهيا العلامات المكتوبة في جريدة أو كتاب ما، وإنما أن تجيد قراءة الواقع، وفك شفرات شراك الكلمات، أن تبصر العالم وتصدّعاته، لتجيئه.

لم يقبل باولو فريير التمييز المبدئى بين المعلمين والمتعلمين، فالتعليم هو أساسا حوار، ومهمة المعلم - في إطار هذه الدوائر الثقافية - هي الاستماع، والتعرف على مشاغل وحاجات هؤلاء الذين سوف يجري معهم حوارا تعليمياً.

المهمة الأولى للمعلم هي أن يستمع ويكتشف مع الجماعات - التي يشكل هو نفسه جزءا منها - الكلمات المفتاحية التي يجب على الجميع «فك شفرتها» معا، وذلك دون أن يفصل البة بين الكلمة وما تمثله. (فمثلاً نجد في عرض الشرائح المصورة، أن الكلمة تتبع بما تمثله)، وعلى المعلم أن يدير الحوار حول ما يضعه كل فرد تحت الكلمة وتحت الصورة من معنى بحسب تجربته المعيشة^(١٢).

إن تعلم القراءة، لا يمكن أن يكون مجرد تذكر للعلامات، وإنما وعى بما تعنيه، أى بالواقع الذى تستهدفه، والمشكلات والتناقضات والحركة التى تحفز إليها.

إن الصورة، أو بالأحرى مضاعفة الصور ومقابلاتها وتناقضاتها هو الذى يسمح بتحقيق مثل هذا الوعى، فهذه الصور تقوم بدور منبه للفكر، ولا تلعب مجرد دور تبسيطى توضيحي مثلما نرى فى كتب الأبجديات التعليمية التى ترسم فيها قطة بجانب كلمة «قطة».

فإذا تعلمت مثلاً كلمة «كساء»، فذلك ليس من أجل الوقوف على معناها فى المعجم: «كل ما يستخدم لتغطية الجسد»، ولكن من أجل أن أفكر - بواسطة صدمة الصور - في الحقيقة الاجتماعية والإنسانية التى يحيينا إليها اللفظ. سواء أكانت الصور مرسومة أو عبارة عن شرائح مصورة. فهناك البنطلون الواسع للأخ الأكبر، بما عليه من رقع، ومن حزام مصنوع من حبال تمنعه من السقوط على الأرض. وربما يكون هناك بجواره عرض لأزياء الموضة الراقية، وأزياء اجتماعية مجلة چور دى فرانس Jours de France الأسبوعية، ثمة طرق شتى - إذن - لتغطية الجسد.

فإذا ما كتبت على السبورة «مسكن»، وهو ما يعني فى قاموس لاروس: «المكان الذى نقىم فيه عادة»، فإن صورة المتسلول الذى ينام عند فتحة تفريغ الهواء الساخن فى محطة الترولى يحمى نفسه من البرد، يتلحف صفحات الجرائد، ويستدفى بها، وهذا هو «المكان الذى يقىم فيه عادة»، والضواحى العشوائية للعاطلين عن العمل، أو المساكن الشعبية التالفة، أو حجرة الصالون فى قيلا بحى نوبى Neuilly الراقى، وغيرها هى أى مكان آخر «نقىم فيه عادة».

يتعلق الأمر هنا بشيء أكثر من مجرد التعريف، إنه الوعى بالحركة
التي يفجرها اللفظ.

هكذا نخرج من مقام التجريد اللغظى ، إلى مقام تهيئة الطفل لأن
يكون إنساناً، أى بناء للمستقبل . وإن تلجلج فى نطق
العلامات ، وتكرار تعريفات القاموس المجردة—أمياً ، أى عاجزاً عن
تفسير الحياة ومعناها .

إذ إنه يصبح مؤهلاً لأن ينخدع بكل الكلمات المشبعة بالتجريد .

فالطفل الذى يتعلم بهذه الطريقة سوف يقرأ دون أن يرتجف أمام
المادة الخاصة بالمساواة فى الحقوق فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان
لعام ١٩٤٨ . أكثر من ذلك ، سوف تبدو له هذه المساواة أمام القانون
أكيدة . فكما هو محظوظ على العاطل عن العمل كما على المليونير أن
يسرق رغيفاً ، كذلك من المسموح أن يشيد الواحد منهمما أو الآخر
استراحة له فى كان Cannes أو ميجيف Mégive .

هذه المساواة غير المدانة أمام القانون ، هى أساس كل
نظام ديمقراطي .

فى كل مستويات التعليم ، من بدايات تعليم القراءة وحتى تعليم
الفلسفة أو مدرسة الإدارة العليا ENA ، كانت الوظيفة الأولى للتعليم
هى تطوير الفرد للفوضى القائمة ، أى تشكيله كذات هى قطب
للملكية وللسلطنة من جهة ، وإخضاعه للقبول بالأمر الواقع «هكذا
هو الحال ، يجب أن تتكيف معه» ، من جهة ثانية .

هذا هو السر الأكبر للفكر الأحادي ، أى لما لا يتفكر فيه ،
للحضور للموجود ، وللذى ما زال يعنى فى قاموس لاروس فى تجريد
تام «كل ما يوجد» .

أن تعرف القراءة، فهذا لا يعني أنك تستطيع فقط أن تقرأ الكلمات والعبارات، وإنما يعني أيضاً أنك تستطيع أن تقرأ العالم الواقع بكل تناقضاته ومقتضيات تغييره.

إنني أتحدث هنا بالضبط عن الوضع العكسي لما أسماه باولو فريري «الأمية البنكية» (نسبة إلى بنك المعلومات)، والتي تمثل في التذكر وتراكم المعلومات التي يتکفل التعليم ب تخزينها لدى المتعلمين، دون الاهتمام بال حاجات الخاصة لھؤلاء المتعلمين.

وهكذا، ومنذ الانطلاق الأولى للتعليم، نجد مفهوماً منحرفاً للثقافة وللنظام الاجتماعي معًا.

يجب أن يتيح التعليم للمجتمع وسيلة للتفكير في الواقع، وتحقيق هذه الأفكار.

في حين أن كل شيء في التعليم الحالى يغرق الطفل في عالم غير واقعى، ويرسخ في ذهنه أيدلوجياً مبررة للسلطات.

فإذا ما بدأنا بالتاريخ، الذي قال عنه بول فاليري Paul Valéry، في صفحات تنبئية، في كتابه «نظارات على العالم الحالى»، وهو يقارن بين مختلف الكتب المدرسية في أوروبا: «الظاهر أن أوروبا تطمح لأن تحكمها هيئة أمريكية، فكل سياستها تسير في هذا الاتجاه». (Ed. Péliade; p 930).

(*) بول فاليري: (1871 - 1945) كاتب فرنسي يتمتع بفكر لامع في مجال المعرفة. كتب الشعر والنشر والمقال. وكان مهتماً بقضايا عصره وبالثقف وأدبيات تكوينه وقدراته، والكتاب المذكور صدر عام ١٩٣٨، وهو من أهم كتبه في هذا الصدد.

١٩٣٨، أى عشر سنوات قبل خطة مارشال (Marshal Plan)، ومنذ أكثر من نصف قرن قبل معاهدة ماستريخت (Maastricht).

وبعد عدة صفحات يقول بول فاليرى، ملخصاً: «التاريخ هو النتاج الأكثـر خطراً للكيمياء، إنه يسلمنا للحلـم، إنه يخـدر الشعـوب، يجـلب لها الذـكريـات المـزيفـة، ويـقـودـها إـلـى هـذـيـانـ الـعـظـمةـ أوـ الـاضـطـهـادـ. إنـ التـارـيخـ يـبـرـرـ ماـ يـرـيدـهـ، لأنـهـ يـحـتـويـ عـلـىـ كـلـ شـىـءـ»، ويـقـدـمـ أمـثلـةـ لـكـلـ شـىـءـ، وـفـيـ الـوـضـعـ الـحـالـىـ لـلـعـالـمـ (كـنـاـ فـيـ عـامـ ١٩٣٨ـ عـنـدـ كـتـابـةـ هـذـاـ النـصـ، أـىـ قـبـلـ عـامـ مـنـ حدـوثـ الـحـربـ الـعـالـمـيـةـ الـثـانـيـةـ، ذـلـكـ أـنـ الـحـربـ الـعـالـمـيـةـ الـأـوـلـىـ لـمـ تـعـلـمـنـاـ شـيـئـاـ)ـ صـارـتـ غـواـيةـ التـارـيخـ أـكـبـرـ مـاـ كـانـتـ عـلـيـهـ فـيـ أـىـ فـتـرةـ مـضـتـ».

وبعد عشرين عاماً، وبما أن تجربة الحرب العالمية الثانية قد أثبتت الرأى المخيف لفاليرى، نجد كينيث بولدينج Kenneth Boulding يقول بشكل أكثر صراحة: «إن الدولة هي اختراع المؤرخين».

[Journal of conflict resolution III 1959; p122]

وقد كتب من قبل، هنرى پيران Henri Pirenne وهو من المتخصصين في هذه المادة، في عام ١٩٢٣، يقول: «إن المؤرخين يتعاملون مع الدولة كما يتعامل المهندسون المعماريون مع زبائنهم، إنهم يصنعون لهم تاريخاً صالحـاً لـلسـكـنـيـ» (عن المنهج المقارن للتـارـيخـ). (De la méthode comparative de l'histoire)

وفي هذا المقام سوف نذكر مثالين فقط على هذه المركزية الأوروبية التي تنفي وجودـ أوـ علىـ الأـقـلـ قـيـمةــ الآـخـرـ وـثـقاـفـتـهـ:

أولاً: دور التـارـيخـ الـمـدـرـسـيـ فـيـ اـخـتـرـاعـ الـأـسـاطـيـرـ الـمـؤـسـسـةـ لـلـانـسـجـامـ الـقـومـيـ.

ثانياً: الاحتقار الاستعماري وما بعد الاستعماري- Post-colonialist لقيم الآخر، الذي لا نتعلم منه شيئاً عن طريق الحوار بين الثقافات.

(أ) إضفاء الطابع الأسطوري على فكرة الدولة:

في البدء نجد إضفاءً للطابع الأسطوري على فكرة الدولة. مثلاً في دولة فرنسا الخالدة، تلك التي أعيد بناؤها بطريقة لاتراعي التاريخ، وإنما بأثر رجعي، تم فيه إسقاط فرنسا الحالية على الماضي، كما تتم تشكيل شخصية فاعلة للشعب الفرنسي موجهة نحو هدف بعيد، حتى قبل أن يوجد مثل هذا الشعب، وعلى الرغم من الأصل الأسطوري الذي نزعوه إليه.

لقد وجدت بلادنا منذ الأزل - أو ربما كانت سابقة على الوجود - على النحو الذي هي عليه في واقعها الحالى. إذ أصبح تاريخ فرنسا بالنسبة للمؤرخ لافيسي Lavisse^(*)، مثله مثل المؤرخ ميشيل ميشيل Michelet^(**) من قبل، قالا لصناعة الأسطورة، وذلك على الرغم من التقدم الهائل لمدارس التاريخ التي لم تفلح في تحطيم هذا القالب تماماً.

(*) إرنست لافيسي مؤرخ فرنسي (١٨٤٢ - ١٩٢٢)، وكان رائداً في تجديد مناهج التحليل التاريخي. من أهم كتبه «التاريخ العام منذ القرن الرابع حتى العصر الراهن» وكتاب «تاريخ فرنسا ١٩٠٠ - ١٩١٢».

(**) ميشيل: (١٧٩٨ - ١٨٧٤) مؤرخ فرنسي. كتب تاريخ فرنسا من عام ١٨٣٣ إلى عام ١٨٦٧ في ٦ مجلدات، ومن عام ١٨٥٥ إلى عام ١٨٦٧ في ١٢ مجلداً، وتاريخ الثورة الفرنسية في ٧ مجلدات. وهي كلها عبارات عن نشيد وطني للشعب الذي يعوده ميشيل المحرك الحقيقي للتاريخ.

«منذ ألفى عام، كانت فرنسا تسمى بلاد الغال La Gaule وبعد ذلك، غيرت هذه البلاد اسمها إلى فرنسا»، ولا يهمـ عندئذـ إذا ما كان مجموع الأراضي التي تتشكل منها فرنسا الحالية هو نتاج سلسلة من الحروب والغزوات والمذابح للبشر والثقافات .

هذه الإلهة الأسطورية الوهمية تتمتع بكل خصائص الشخصية التي كانت تستهدف هدفاً محدداً تماماً منذ البدء : ألا وهو مناهضة الوضع الحالى لفرنسا .

إن نقطة الانطلاق ، في مثل هذا التصورـ هى المصادفة ، وهى تستند إلى السلطة الحالية .

وفي كل الأحوال تصبـع «فرنسا خالدة» ، لأنـها «فرنسا الهاـبطة من عند الله» .

أما ملوكها ، الذين يـحكمـون ، وعلى مدى القرون ، بالحق الإلهى المنوح لأـسلافـهم فى التـورـاة ، فـهم وـحدـهـم يـجـسـدـون فـرـنـسا وـطـمـوـحـاتـهاـ الغـازـيةـ . وـعـلـيـناـ أنـ نـصـدـقـ عـلـىـ ماـ يـقـولـهـ چـانـ لـومـارـ دـوـ بـلـجـ Jean Lemaire de Belge ، فى كتابـهـ «ـمـلـامـحـ بـلـادـ الغـالـ وـتـفـرـدـ طـرـوـادـةـ Illustrations de Gaule et singularités de Troie » منـ أنـ مـلـوكـ فـرـنـساـ هـمـ سـلـالـةـ سـامـوـثـ الـابـنـ الـرـابـعـ ليـافـثـ بنـ نـوـحـ .

باختصار ، يـعودـ تـارـيـخـ فـرـنـساـ إـلـىـ آـدـمـ ، أوـ إـلـىـ كـوـنـهـاـ هـابـطـةـ منـ عندـ اللهـ .

وـإـلـىـ جـانـبـ مـثـلـ هـذـاـ التـرـاثـ الذـىـ يـرـجـعـ تـكـوـينـ فـرـنـساـ إـلـىـ أـصـوـلـ لاـهـوتـيةـ ، هـنـاكـ تـرـاثـ آـخـرـ يـرـجـعـ بـهـاـ إـلـىـ أـصـوـلـ يـوـنـانـيـةـ : فـقـدـ هـرـبـ أمـيرـ مـنـ هـذـهـ العـائـلـةـ الـمـالـكـةـ إـلـىـ آـسـيـاـ ، وـهـنـاكـ أـسـسـ طـرـوـادـةـ ، حـامـلاـ بـذـلـكـ حـضـارـةـ بـلـادـ الغـالـ إـلـىـ الـيـونـانـ وـرـوـماـ .

ونجد في كتب التاريخ الكبرى لفرنسا ، والتي كتبت في نهاية القرن الثالث عشر في بطريركية سان دونيس Saint Denis ، أن أول ملوك فرنسا هو الملك فارامون Pharamon ، (وهو نفس الملك الذي تشير إليه طبعة جديدة لتاريخ فرنسا للكاتب راجوا Rageois ظهرت في عام ١٨٣٨ ، على أنه أول ملوك فرنسا)

وفي كتاب ملحمة فرنسا Franciade الذي أهداه رونسار Ronsard إلى الملك المسيحي جداً شارل التاسع Charles IX ، نجد المؤرخ يستعيير النموذج الملحمي لأساطير طروادة لكتابة تاريخ الملكية الفرنسية ، وتاريخ مؤسسيها الملحميين فارامون ، وفرانسيون Francion ; Pharamon ... إلخ ، ولهذه الأسطورة تنوعاتها أيضاً ، فمثلاً ، نجد فيها أن التعارض القائم بين الغوغاء القادمين من بلاد الغال وبين الأرستقراطية ذات الأصل الچermanي ، لن يتهدى الجدل بشأنه إلا مع حلول الثورة الفرنسية ، تلك الثورة التي وضعت حدأً لهذه الخصومة حين أحلت امتيازات الشروة محل امتيازات الدم .

ولا يمكن أن نعد الإلحاد على هذه الأسطورة القومية ضرباً من اللهو ، ذلك أن المفهوم الأسطوري للتاريخ القومي ، يؤدي باستمرار إلى تدمير عقول وأجساد الشعوب .

إذ تظل فرنسا خالدة ، على الرغم من شهادتها على مذابح اليهود ، ومذابح المسيحيين في بيزنطة ، ومذابح المسلمين في القدس ، وعلى الرغم من التطهير العرقي لطائفة الكاثار Cathares^(*) ، وحتى بعد أن أجبر الملك الورع القديس لويس Saint Louis أو لويس التاسع ،

(*) الكاثار : فرقه دينية انتشرت في فرنسا وإيطاليا بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر ، تجمع بين المانوية والمسيحية ، وقد تعرضت لاضطهاد الكنيسة الكاثوليكية حتى انتهت تماماً في أوروبا .

اليهود على أن يحملوا شارة لتمييزهم عن غيرهم (وهي شارة القرص التي تتكون من قطعة قماش صفراء مستديرة، لم تكن قد أخذت بعد شكل النجمة). إنها فرنسا الخالدة التي احتملت فيها معارك سان بارثلماوس (*Saint Barthélémy) بين الكاثوليك والبروتستانت، وشهدت حملات الخيالة في عهد الملك لويس الرابع عشر Louis XIV، والقمع الشنيع الذي مارسته الثورة الفرنسية ضد سكان إقليم القانديه Vendée، والمذابح الأوروبية على يد نابليون، والذي ظل رغم ذلك بطلاً قومياً، مع أنه قد ترك فرنسا أصغر مما كانت عليه قبل أن يتولى الحكم. لقد ظلت فرنسا هي جندى الله والقانون، على الرغم من تشييدها لإمبراطورية استعمارية، باستباحتها للمذابح، وللاشتراك في حرب الأفيون في الصين، وتجارة العبيد السود في كل موانئها الواقعة على المحيط الأطلنطي.

هذا الماضي المجيد هو التبرير الرسمي للعنصرية الاستعمارية التي أقرها چول فيرى Jules Ferry في الجمعية الوطنية يوم ٢٨ من يوليو عام ١٨٨٥ حين قال :

« يجب أن نقولها بصراحة وبدون مواراة: في الواقع، إن الأجناس الأرقى لها حقوق على الأجناس الأدنى » J.O du 28 Juillet 1885.

(*) معركة سان بارثلماوس وهي التي قام فيها الكاثوليك بمذابح ضد البروتستانت، وكان مسؤولاً عنها البابا بيوس وفيليب الثاني ملك إسبانيا. بدأت في أغسطس عام ١٥٧٢ في عيد القديس بارثلماوس، انطلق فيها الجنود الكاثوليك يذبحون البروتستانت في الشوارع. ولقد عم الاستيء في جميع المالك التي أقرت الإصلاح في إنجلترا وألمانيا وسويسرا، وقد استمر ذبح الآلاف من البروتستانت ستة أسبعين كاملة، ونهبت بيوتهم، ومع ذلك احتفل البابا بهذه المجزرة، واستمر التمييز حتى عام ١٥٩٨ حينما انتهت الحرب برسوم نانتسي الملكي الشهير الذي أعطى البروتستانت حقوقهم.

وستظل فرنسا هذه للأبد جندي الله أو جندي القانون، وذلك بحسب المقام، سواء أكان المقام مقام احتفال بتعميد كلوثيس Clovis^(*) كما حدث في عام 1996 ، أم كان المقام مقام احتفال وقع ومبالغ فيه بالعيد المئوي الثاني للثورة الفرنسية. هذه الثورة التي لم يبق منها إلا إعلان على الورق يحرم ثلاثة أرباع الفرنسيين من حق الانتخاب.

أسطورة فرنسا هذه ليست خاصة بفرنسا وحدها، فنفس الطابع الأسطوري ينطبق على الإمبريالية الإنجليزية صاحبة المجازر في الهند، تلك التي وصفها روديار كipling بأنها المهمة الثقيلة للرجل الأبيض، وتنطبق أيضاً على وحشية النازى المستباحة باسم رقى الجنس الأرى، وتنطبق في النهاية على ممارسات الاغتصاب والنفي والاضطهاد الوحشي التي تمارسها دولة إسرائيل باسم الوعد القبلي للإله. أو باسم «المستقبل البارز» للولايات المتحدة الأمريكية، هناك حيث طابت الغزا الإنجليز البروتستانت الأوائل - أصحاب مذهب التمسك بأهداب الفضيلة - بين الهند وبين أعداء يشوع، يبررون بذلك اغتصاب أراضي الهند، ونفيهم، وقتلهم.

يمكن لنا أن نتأمل أيضاً، على هامش منتدى روما Forum de Rome، خريطة الإمبراطورية الرومانية، التي كان موسوليني يدعى أنه ورث لها، وراح بهذا الادعاء يبرر مجازره في إفريقيا، تلك التي امتدت حتى إثيوبيا.

(*) كلوثيس: ملك فرنسا في القرن الخامس، حررها من الرومان، ثم اعتنق الكاثوليكية، وبدأ معه اعتناق فرنسا للمسيحية. وفي عام 1996 أقيم احتفال هائل بمناسبة مرور 15 قرنا على تعميد كلوثيس ودخول الكاثوليكية لفرنسا. وقد حضر الاحتفال البابا يوحنا بولس الثاني.

إن استخدام مثل هذا الكيان المجرد الذى يدعى «فرنسا الخالدة»، فرنسا السابقة فى الوجود على شعبها وتاريخها، كان مسوّغاً لكـل الجرائم التـى اقـتـرـفت باـسـم هـذـاـ الكـيـان، وـظـلـ الـأـمـرـ كـذـلـكـ حتـىـ اللـمـحـةـ التـىـ تمـ فـيـهـاـ التـخـلـىـ عـنـ هـذـهـ الأـسـطـورـةـ لـصـالـحـ التـارـيخـ. فقد أـعـدـناـ التـعـرـفـ عـلـىـ فـرـنـسـاـ فـيـ عـامـ ١٩٩٨ـ كـإـبـادـاعـ مـسـتـمـرـ مـكـوـنـ مـنـ خـلـيـطـ مـنـ عـشـرـينـ عـرـقاـ. لـقدـ أـثـرـتـ ثـقـافـةـ فـرـنـسـاـ بـاـ حـمـلـهـ لـهـاـ كـلـ جـنـسـ مـنـ عـطـاءـ، سـوـاءـ فـيـ ذـلـكـ اـسـتـلـهـامـاتـ التـرـوـبـادـورـ(*).ـ كـمـاـ لـاحـظـ سـتـنـدـالـ Stendhalـ لـفـاهـيمـ الحـبـ وـالـشـعـرـ التـىـ حـمـلـوـهـاـ عـنـ الشـعـراءـ العـربـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ، أوـ مـلاـحـمـ الـمـلـكـ آـرـثـرـ Arthurـ فـيـ مقـاطـعـةـ بـرـيـتونـياـ Bretonـ، أوـ ثـقـافـاتـ الـبـحـرـ الـمـوـسـطـ الـيـونـانـيـ وـالـرـوـمـانـيـ، أوـ التـأـثـيرـاتـ الـجـرـمـانـيـ فـيـ الـمـوـسـيـقـيـ وـالـفـلـسـفـةـ، أوـ آـثـارـ زـحـفـ الـشـرـقـ إـلـىـ فـرـنـسـاـ الـذـىـ اـسـتـفـزـ الـثـقـافـةـ الـفـرـنـسـيـةـ وـأـثـرـاـهـ.

ولـتـلـلـ هـذـاـ النـقـدـ التـارـيخـىــ الـذـىـ يـضـعـ حـدـاـ لـلـكـيـانـاتـ الـمـيـتـافـيـزـيـقـيةـ لـأـسـطـورـةـ فـرـنـسـاـ الـخـالـدـةــ أـهـمـيـةـ كـبـرـىـ الـآنــ، مـنـ أـجـلـ حلـ الـصـرـاعـاتـ الـمـزـيـفـةـ الـتـىـ تـدـورـ حـوـلـ مشـكـلـاتـ الـمـواـطـنـةـ وـالـهـجـرـةـ.

إـنـهـ لـصـرـاعـ مـزـيـفـ، ذـلـكـ الـذـىـ يـدـورـ حـوـلـ مـفـهـومـ الـمـواـطـنـةـ، الـتـىـ تـمـنـحـ عـلـىـ أـسـاسـ حـقـ الـأـرـضـ وـحـقـ الدـمـ، كـمـاـ لـوـكـانـ الـاـنـتـمـاءـ إـلـىـ جـمـاعـةـ ماـ، يـرـتـبـطـ بـعـوـاـمـلـ خـارـجـةـ عـنـ إـلـيـانـ وـمـشـاعـرـهـ: أـنـ تـوـلـدـ فـيـ مـكـانـ بـعـيـنـهـ، فـهـذـاـ لـاـ يـعـتـمـدـ عـلـىـ رـغـبـةـ الـفـرـدـ عـلـىـ الإـطـلـاقـ، وـمـنـ ثـمـ فـهـوـ لـيـسـ مـدـعـاةـ لـلـفـخرـ وـالـخـجلـ.

(*) التـرـوـبـادـورـ: كـلـمـةـ تـعـنىـ الـمـطـرـيـنـ، وـهـىـ مـكـوـنـةـ فـيـ مـقـطـعـهـاـ الـأـوـلـ منـ الـكـلـمـةـ الـعـرـبـيـةـ «ـطـرـبـ»ـ، وـمـقـطـعـهـاـ الثـانـىـ هوـ الزـائـدـةـ الـخـاتـمـيـةـ التـىـ تـضـافـ لـلـفـاعـلـ فـيـ الـإـسـپـانـيـةـ.ـ وـكـانـواـ عـبـارـةـ عـنـ فـرـقـ مـنـ الـشـعـراءـ وـالـمـوـسـيـقـيـنـ الـجـوـالـيـنـ يـطـوـفـونـ بـأـنـحـاءـ أـورـوـپـاـ، وـقـدـ نـقـلـوـاـ إـلـيـهـاـ الـشـعـرـ الـعـدـرـيـ الـعـرـبـيـ.

أما عن حق الدم: فهو يعتمد على عامل آخر مستقل عن إرادتي، كما هو الحال مثلاً بالنسبة للحيوان، فهو يكون إما فيلأ وإما ضفدعًا بغير إرادته.

إن الرابطة الإنسانية الوحيدة حقاً، بجماعة إنسانية حقاً، تتمثل في اشتراك هذه الجماعة في مشروع عام، وتعاونها على تحقيق هذا المشروع، بوصفه مشروعاً مشتركة للإنسانية كلها كوحدة كلبية، وهكذا يساهم كل شعب من خلال ثقافته الأصلية في أنسنة الإنسان، ونموه وتقديره الحقيقي في الإنسانية.

كذلك هو الحال بالنسبة لمشكلة الهجرة، تلك المشكلة التي لا يمكن أن تظل - ووفقاً لقواعدها الحالية التي يتربّب عليها مبادئ عدم المساواة في إطار وحدانية السوق - مجرد أداة لتفادي المنافسين في مجال العمل أو السوق.

على مسألة الهجرة أن تصبح مجالاً للحوار الذي يشارك فيه كل طرف، بما يوسع الرؤية للإنسان، وللمشروع الإنساني، كما يراه كل على حدة. (مثلاً الحوار بين معنى الجماعة لدى البعض، ومعنى الشخصية الفردية لدى البعض الآخر، وتبادل هذه المعانى واقتسامها، من أجل كفاح مشترك ضد الفردية المتوجهة أو الشمولية الهدامة).

كذلك، يجب أن يكون هناك تبادل للأراء ومشاركة من أجل تجنب الرأى الدوجماتيقي والدين الذي يرمى إلى التسلط على المجتمع كله، والعلمانية التي تصادر على البحث عن الغايات النهائية للفعل. يجب أن نكافح معاً من أجل وحدة الإيمان، ومن أجل تلاقي خصب بين الثقافات والمؤسسات التي تعيش هذا الإيمان.

يجب أن يتم تغيير وضع مادة التاريخ في التعليم بشكل جذري:

لا يتعلّق الأمر هنا، بنقل المعلومات التاريخية، عن طريق الكتب المدرسية، التي يعقب بعضها بعضاً، وينقل بعضها عن بعض، اعتماداً على ثوّارٍ أو ثلاثةٍ تتنوع من حيث طريقة عرض المادة، ولكنها تخضع جمِيعاً لنفس المنطق، منطق الفكر الأحادي، فكر الأساطير المعبّرة عن الأصل، أو التكوين التاريخي للأمة، مما يؤدّي في النهاية إلى تشكيل مواطنين ذوي فكر أحادي مبرر لصحة الوضع السياسي القائم.

وتتّكشف لنا العواقب الوخيمة لهذه الأساطير أكثر فأكثر، كلما اقتربنا من الوضع المعاصر. أي من الحرب العالمية الأولى التي حقق فيها الجنود — المدافعون عن القانون — حلفاً مقدساً ضدّ أعداء لهم بالوراثة.

في أعقاب الحرب العالمية الثانية، كان محظوراً في محكمة نورمبرج، التعرّض للأسباب التي أدت إلى ميلاد المارد النازي (ابتداءً من معاهدة فرساي^(*)) التي جعلت من صعود النازى أمراً ممكناً، وحتى عام ١٩٣٣ الذي أصبح فيه هتلر - من خلال أكثر الأساليب ديقراطية في العالم - طاغية في شعبه).

هذا علاوة على أنّ العالم الرأسمالي كله كان يدعم هتلر، إذ كان يرى فيه «أفضل درع ضدّ البولشفية». وبذلك كان جديراً عقب

(*) معاهدة فرساي: هي معاهدة استسلام ألمانيا أمام الحلفاء بعد نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨، وكانت معاهدة مجحفة أجبرت ألمانيا على التخلّى عن كثير من أراضيها، وتخفيف عدد جيشه، ودفع تعويضات للحلفاء، وكانت هذه المعاهدة سبباً في تأجيج الروح الألمانية القومية وصعود النازى.

انتصاره بتحية تشرشل، وتحية رؤساء الكنيسة الألمانية، وبالتالي سائر الكنائس في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وكل أوروبا.

وبعد هزيمة هتلر، أصبح التاريخ غير مفهوم، إذ نُسبت - في إطار الوضع العكسي لعبادة الشخصية - كل مأسى العالم إلى هذا الهدىان العنصري العنيف لهتلر الجنون. هذا هو هتلر الذي كان من قبل ثمرة تدبير طويل، بدأ منذ اتفاقيات فرساي، واستمر في شكل الدعم الذي قدمه كل رجال البنوك في العالم بالمال والصلب، سواء في ذلك إنجلترا أو فرنسا أو الولايات المتحدة الأمريكية، وفي شكل التنازلات السياسية (التي كان مينيش Minich رمزاً لها)، وفي الاتفاقيات الألمانية السوفيتية التي جاءت كرد دفاعي ضد هؤلاء الذين كانوا يريدون توجيه هتلر نحو الشرق). وفي شكل الشركاء الصهاينة لهتلر (وهم الحلفاء الطبيعيون له ضد اليهود الألمان) الذين كانوا يريدون - عن طريق إنشاء دولة إسرائيل القوية - مساعدة هتلر على «إخلاص أوروبا من اليهود»، (Judenrein)، وهو ما كان هتلر يحلم به. في حين أن طائفة اليهود الألمان كانوا يريدون البقاء في ألمانيا، يطالبون فقط باحترام الدولة لديانتهم وثقافتهم. وهؤلاء كانوا محل اضطهاد النازيين، وكانوا يمثلون ٩٥٪ من الطائفة اليهودية في مقابل ٥٪ من الصهاينة.

ومنذ ذلك الحين، بدأ التاريخ في تشكيل محرّمات Tabou جديدة: إذ تحالف الصهاينة، وتعهدوا - في اتفاقيات هاقارا Haavara - بأن يكافحوا من أجل كسر المقاطعة المفروضة على ألمانيا - في مقابل ترحيل المليونيرات اليهود وثرواتهم. كما قدّمت اقتراحات للتعاون العسكري بين عصابات مسلحة من جماعة شترن Stern وإسحق

شامير وبين الجيش الهتلری . وهى اقتراحات نابعة من اشتراكهم فى هدف واحد . ومن هذه الاقتراحات أيضا ، الاقتراح الشنیع الذى قدمه هتلر في عام ١٩٤٤ - والذى قبله القادة الصهاينة - الذى يقضى بتبادل مليون يهودي مقابل ١٠ آلاف شاحنة ، على شرط ألا تستخدم إلا على الجبهة الشرقية . لم يكن هتلر وحلفاؤه يحلمون إلا بسلام منفرد ، وبواسطة الصهاينة . (Ed ; Liana Levi; 1996; pp;87; 227) . et 80 et 88

لقد صيغ - هذا التزيف المتعمد للتاريخ منذ سقوط هتلر - بوضوح في عام ١٩٩٠ ، وذلك في إطار قانون أثيم أطلق عليه قانون جيسو Gayssot ، ذلك القانون الذي وضع بالتواطؤ مع رئيس البرلمان الفرنسي لوران فابيوس Laurent Fabius ، وهو يشرع لمعاقبة كل محاولة تاريخية نقدية للجرائم الهتلرية . ويجعل من كل نقد لقرارات محكمة نورمبرج أمرا محرما (*). ذلك على الرغم من أن رئيس محكمة نورمبرج نفسه ، القاضي الأمريكي چاكسون ، كان قد اعترف بأن هذه المحكمة « كانت آخر عمل من أعمال الحرب » وبالتالي فإنها لم تلتزم « بالقواعد القانونية للمحاكم العادلة فيما يخص الأدلة » .

(*) لهذا القانون توافق في ألمانيا وسويسرا ، وحتى أقصى الغرب في كندا . فقد قام إرنست زوندل بتأليف كتاب سماه : Did Six Milion Really Die? ، وقدم المؤلف للمحاكمة ، وأدين وسجن ، برغم أن محامي استعان بـ « لوشترا » الخبير الأمريكي في تصميم غرف الغاز ، كلفه بالسفر في مهمة علمية إلى الواقع المزعوم لغرف الغاز في بولندا ، وأعد الخبير تقريره ، وخلاصته أن تلك الغرف لم تصمم ، ولم يكن ، ولا يمكن استخدامها كغرف إعدام بالغاز . (الناشر)

(ب) الاستعمار الثقافي:

من الدال^٩ والكافش، أنه في عصر الاستعمار الثقافي، يكون التاريخ هو تاريخ الغزو الشرعي للأراضي الجديدة من أجل حمل الحضارة إلى «البرابرة».

وهكذا يكتسب كل غزو أو عدوان استعماري شرعيته باسم الحضارة. أما مقاومة الشعوب المستعمرة، والمغتصبة، والمقتولة، فيسمى إرهاباً.

وليس للتاريخ المدرسي، أو بالأحرى للتاريخ المدرسي في الغرب، (كما هو حال الغرب كله) -بالتأكيد- إلا مصدران: التراث اليهودي المسيحي، والتراث اليوناني الروماني.

وفي عام ١٩٧٥، قام كل من برييسفرك Preisswerk ومارو Marrot بدراسة ثلاثة كتاباً مدرسياً هي من أكثر الكتب استخداماً في المدارس (٣ كتب ألمانية، ٦ إنجليزية، ١١ فرنسية، ٨ روسية). وقد استوقفهما في هذه الدراسة مشكلة تشويه التعلق القومي لكتب التاريخ، ومشكلة الاستعمار الثقافي الذي يجعل من التاريخ: تاريخاً للغرب بصفة أساسية مع ملاحق تشمل سائر الشعوب (Ethnocentrisme et histoire; Ed. Anthropos; 1957).

ويسمح هذا المنظور الخاص بالمركزية العرقية للغرب -المتأثر بالتقدم والحداثة، والمتخذ من التكنيك سلطة وحيدة على الطبيعة والبشر- بوضع قائمة لتوزيع الجوائز. وتأتي أوروبا على رأس القائمة، ليس فقط بمقتضى حقها الطبيعي في ذلك، ولكن أيضاً بمقتضى واجب ترقية البدائيين إلى مستوى الكفاءة الأوروبية. وعندما نجد كتاباً من هذه الكتب المدرسية يقول: «عند وصولهم إلى هذا البلد،

وَجَدَ الْأُورُوبِيُّونَ حِضَارَةً لَامِعَةً، نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْلَامِعَ لَيْسَ إِلَّا مَا يَتَوَافَقُ وَالْمَعايِيرُ الْخَاصَّةُ بِالْأُورُوبِيِّينَ.

فِي هَذَا الْمَقَامِ، نَبْدُو بَعِيدِينَ عَنِ الْحَيَاءِ الْعِلْمِيِّ، أَوْ بِبَسَاطَةِ عَنِ هَذِهِ الْمَوْضِوعِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ الَّتِي ضَرَبَ عَلَيْهَا لِيُشَى شِتْرَاوُس Levis Strauss مَثَلًاً فِي كِتَابِهِ «الْعَرَقُ وَالتَّارِيخُ» Race et Histoire إذ يَقُولُ: «فِي الْقَدْمِ كَانَ اسْمُ الْبَرَابِرَةِ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ مَنْ لَا يُشَارِكُ فِي الشَّفَاقَةِ الْبِيُونَانِيَّةِ، (أَوْ فِي الشَّفَاقَةِ الْيُونَانِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ فِي مَرْجَلَةِ مَتَّخِرَةٍ)، وَقَدْ اسْتَخَدَتِ الْحِضَارَةُ الْغَرْبِيَّةُ مَصْطَلِحَ «الْوَحْشِيِّ» بِنَفْسِ الْمَعْنَى، فَالْوَحْشِيُّ هُوَ مَنْ يَقْطُنُ الْفَيَابَةَ، وَهُوَ مَا يَدْلُلُ عَلَى نَوْعٍ مِنَ الْحَيَاةِ الْحِيُوانِيَّةِ، فِي مَقَابِلِ «الْشَّفَاقَةِ» (p20).

وَيَقْدِمُ لَنَا اسْتِعْمَارُ الْجَزَائِرِ، وَتَصْرِيْحَاتُ الْمَارْشَالِ بُوجُو Bugeaud (*) ثُمَّ ذِجا نَاصِعًا عَلَى مَثَلِ هَذَا الْفَكْرِ. فَقَدْ أُعْلِنَ بُوجُو فِي ١٤ مِنْ مَايُو عَامِ ١٨٤٠، فِي مَجْلِسِ النَّوَابِ «أَنَّهُ يَجُبُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ خَرْزٌ كَبِيرٌ لِإِفْرِيقِيَا عَلَى غَرَارِ غَزَوَاتِ الْفَرْنَجِ وَغَزَوَاتِ الْقَوْطِ (**)». Goths

(*) توماس: روبيير بوجو: (١٧٨٤ - ١٨٤٩) القائد العسكري الفرنسي، والحاكم العام للجزائر (١٨٤٠ - ١٨٤٧). وهو الذي مكن فرنسا من احتلال الجزائر، وأقر نظام الاحتلال، وقاتل المغاربة في عام ١٨٤٦.

(**) القوط: شعب من أصل چرماني - امتدت غزواؤهم إلى حوالي عام ٢٣٠ بعد ميلاد المسيح وشكلوا دولة قوية، غير أن غزواؤهم لهم أجبرتهم على التقلص داخل الإمبراطورية الرومانية. وقد شنوا في هذا الإطار غزواؤ مدمرة على الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي. وإليهم ينسب الفن القوطي الذي انتشر في أوروبا في القرن الثاني عشر الميلادي والذي حل محل الفن الروماني.

وقد أصبح بوجو هذا حاكما للجزائر، وفي إطار تطبيقه للدعوة التي نادى بها، وجه إلى قادة المقاومة الجزائرية هذا الإنذار: «اخضعوا لفرنسا، وإلا سوف أقتحم جبالكم، وأحرق قراكم ومنازلكم، وأقطع أشجاركم المشمرة، وعندئذ لا تلومون إلا أنفسكم، لأنني سأكون بريئا تماما أمام الله من كل هذه الكوارث التي ستتحيّط بكم» (Moniteur Algérien ; J.O; 14 Avril 1844).

برنامنج للتخرير والقتل، تم تنفيذه بدقة على يد المارشال بوجو وأموريه من أمثال سانت آرنو Saint Arnaud، الذي صار بدوره مارشاً فيما بعد وقال: «نحن نخرب، نحرق، نسلب، نسحق البيوت والأشجار» (رسائل سانت آرنو، في كل صفحات الرسائل Saint-Arnaud: Lettres du Maréchal de Saint Arnaud; à toutes les pages du receuil).

وفي كتاب «رسائل جندي Lettres d'un soldat» للكولونيل مونتانياك Montagnac، نجد هذه العبارة عن مقاطعة ماسكارا : Mascara

«نحن نتفى أثر العدو، ونسلبه نساءه وأطفاله وأنعامه وقممه وشعيره». ثم يضيف: «إن الچنرال بيدو Bedeau — وهو نبيل من الطراز الأول — قد عاقب قبيلة على الحدود في شيليف Chélif، وسلبها بالقوة النساء والأطفال والأنعام».

ويصف لنا الكونت إيريسون Le Conte D'Herisson في كتابه: «صيد الإنسان La Chasse à l'Homme (p133-347) الممارسات الاستعمارية التي كان مشددا عليها:

«لقد ظل زوج الأذن للرجل يساوى عشرة فرنكات لفترة طويلة، أما النساء فقد ظللن لفترة طويلة صيدا ثمينا».

وتدلنا كل هذه النصوص، وغيرها، على أن بناء الإمبراطورية، الذين صدروا في ذلك عن جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، لم يرد لهم ذكر في أي كتاب مدرسي. وقد أثر أن يتعلم الأطفال في هذا الكتاب قصائد لطيفة، ومقطوعات رقيقة عن قبة الأب بوجو^(١٢).

لا يتعلق الأمر هنا بإخراج الجثث من القبور: فهذه الأساطير الدامية ما زالت تؤثر وبشكل حاسم في الوضع الحالي، الذي تشكله هذه الأكاذيب التاريخية.

فحين عطلت العصبة العسكرية الحاكمة في الجزائر الانتخابات الحرة، لأنها لم تكن لصالحها، وافق الديمقراطيون المتحضرون الطيبون في بلادنا - والذين كانوا يطالبون من قبل بضرورة إجراء انتخابات نزيهة - على الفور، على هذا التعطيل، وعلى استتاب ديكتاتورية عسكرية في الجزائر، مع ما ترتب على ذلك من فوضى دموية لم يكن من الممكن تفاديتها، بسبب من استبعاد أغلبية السكان من الحياة العامة.

وترسم لنا المعلومات المنشورة في وسائل الإعلام - والتي تهدف إلى احتكار الرأي العام - صورة أشباح لم تنته بالنسبة لهم الحرب الصليبية، ولا حرب الجزائر بعد.

أشباح أناس كثيرين، يزجون بين الدفاع عن الذاكرة، وبين التراتيل المعتادة للكراهية التي تجتر على الدوام ثارا عمره ألف عام.

فقد نادى الجنرال جورو Goureaud في عام ١٩١٨ يقول: « يا صلاح الدين، ها نحن أولاء نعود »، وهو هو ذا قد عاد بالفعل إلى لبنان، ليؤسس حزبا دينيا عرقيا، حتى خيم الخراب التام على لبنان طيلة قرن من الزمان.

وأمام قبر صلاح الدين، وقف الجنرال الإنجليزي اللنبي Allenby^(*) في عام ١٩١٨ يقول: « اليوم انتهت الحروب الصليبية ». ووضع في فلسطين أسس نظام تمييز عنصري، يقضى بفصل الأهالي الأصليين في مناطق معزولة، مولدا بذلك الكراهية والحروب التي كان صلاح الدين قد وضع حدّا لها منذ عام ١١٨٧ ، وحتى عدة قرون من بعده، وذلك حين دخل متصرّاً إلى القدس، فأعاد فتح المعابد اليهودية والكنائس المسيحية.

اليوم، أيضا، وفيما يخص دراما الجزائر، نجد نفس الكلام المعاذـ عن الأسطورة التاريخية الألفيةـ طافيا على السطح في تصريحات كل أحزاب اليمين واليسار في الغربـ . ففي الجزائر مجازر تعيد إلى الذهن كل المذابح الاستعمارية السابقة، بوصفها نماذج مصغرة لهاـ فالبعض يلقى بالمسؤولية على عاتق العنصرية الوحشية للإسلاميينـ ، والبعض الآخر يدين الاستبداد الشرقي لرجال السلطةـ . كما كان الحال بالنسبة لروانداـ ، التي أدت فيها النزاعات القبلية العرقية البدائيةـ . ولكن لا بد من التصريح بأن الزعماء الفرنسيين (وبالمثل يفعل الإنجليزـ في بلد مجاور لروانداـ) هم الذين لم يكفوا عن الدعم الماليـ والعسكريـ للجلادين لحساب مصالحهم الخاصةـ ، أو أنهم هم الذين

(*) اللنبيـ : قائد عسكري بريطاني (١٨٦١ - ١٩٣٦)ـ . استطاع خلال الحرب العالمية الأولى أن يدخل فلسطين بعد هزيمته للأتراك وبمساعدة القوات العربية من شبه الجزيرةـ .

أفسدوا معاونيهم - كما فعلوا مع موبوتو مثلاً - للحفاظ على البقية الباقية من مصالحهم.

وسأعرض لشلين يعبران عن هذا الطموح الكاريكاتوري للمركزية العرقية الأوروبية :

المثل الأول هو القصة الرسمية لحروب ماراثون وپواتييه Marathon et Poitiers^(*)، التي تقدم بوصفها نموذجاً لانتصار الغرب على ببرية الشرق.

وحتى نزيل عن معركة ماراثون Marathon هذا الطابع الأسطوري الذي أسبغ عليها ، يكفي أن نستعيد قصص هيرودوت ، التي حذرنا منها پلوتارك Plutarque ، حين يذكرنا بأنها رويت في « مدح الاثنين من أجل الحصول على حصة كبيرة من الأموال ».

وقد وضع تيوسيديد Thucidide الحدث في حجمه الحقيقي إذ لم يخصص له إلا سطرين في كتابه حروب پيلوپونيس Péloponése^(**). ولكن ذلك لم يمنع أحد أفضل المتخصصين في الدراسات الهيلينية في جامعة السوربون ، فرنسو شامو François Chamoux ، من أن يكتب في عام ١٩٦٨ في كتابه عن الحضارة اليونانية La civilisation Grecque ما يلى عن هذه الحرب : « إن الأمر يتعلق هنا بانتصار حاسم للغرب على الشرق ، فاليونانيون لم يحاربوا فقط من أجلهم ، وإنما من أجل إرساء مفهوم للعالم سوف يصبح في فترة لاحقة ميراً مشتركاً للغرب كله ».

(*) معركة ماراثون التي هزم فيها الأtheniens الفرس في عام ٤٩٠ ق.م - ومعركة پواتييه التي هزم فيها شارل مارتل العرب في عام ٧٣٢ م.

(**) حروب پيلوپونيس : هي التي دارت بين أسبarta وأثينا ، والتي انتهت بهزيمة الأtheniens ، ومن ثم تدخل الفرس في شئون البلاد.

وقد كتب باحث آخر متخصص هو الأستاذ روبير كوهين Robert Cohen في كتابه: «اليونان وهيلينية العالم القديم»، عن حملات الإسكندر الأكبر يقول: «إن تاريخ اليونان يختلط وعلى الدوام بتاريخ العالم» (p396).

مع أنه في عصر الإسكندر كان هناك ، ومنذ حقبة بعيدة ، كتاب الأوپنچاد للهندوس Upanishads^(*) ، وتراث بوذا ولاوتسى Lao Tseu^(**) وكونفوشيوس في الصين^(***) ، وتراث شعوب أخرى كثيرة ، كانت تجاهل الإسكندر وملحمته ، ولكن وجهة النظر الغربية سرعان ما حضرت العالم في مجالها الخاص . مما جعلنا ننسى في دواخلنا حقيقتين تاريخيتين أساسيتين :

أن هذا النزاع لم يكن حاسما تماما ، فمن بعد ماراثون ، بحوالي قرن من الزمن ، أى في عام ٣٨٦ ق. م ، أملأى حاكم فارسي بسيط - من بلدة إيونيه Ionie يدعى تيريباز Tiribaz إرادته ، باسم ملكه العظيم ، على الوفود القادمة من أثينا وإسبرطة وأراجوس وتيبيس Athénes; Sparte: Aragos; Thébes;

(*) الأوپنچاد: الاسم الذي يطلق على نصوص سنسكريتية صوفية ضمن كتاب الشيدا الهندي.

(**) لاوتسى: فيلسوف صيني في القرن السادس ق. م. وقد كان لتعاليمه أثر واسع في التطور الثقافي والتاريخي في الصين ، وتعرف فلسفته باسم «الطاوية».

(***) كونفوشيوس: فيلسوف صيني يمثل الجناح الثاني المقابل للطاوية في التراث الصيني القديم في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد . وتدعى الكونفوشية إلى التمسك بأخلاقيات اجتماعية معينة وفضائل إنسانية عامة.

ويقول لنا زينفون Xénophon^(*) في كتابه الهيلانيات Helléniques (الكتاب الخامس الفصل الأول)، إن اليونانيين قد بادروا إلى دعوته. وأنه قد شاهد الأمر المفروض من ملك الفرس الطاغية كسرى Artax-ercés الذي يقول: «إنه من العدل أن تكون مدن آسيا ملكاً لي، وإنه في حالة عدم استجابتكم لهذا السلام، فسوف أعلن الحرب عليكم في البر والبحر». وقد حمل الرسل هذا الإنذار كلّا إلى دولته، وأقسموا جميعاً على تأييده.

ويعلق إيزوقراط Isocrate على ذلك بقوله: «والآن هاهو ذا البربرى يدير شئون اليونانيين، ألا ينبغي لنا أن نطلق عليه اسم الملك العظيم وكأننا أسرى له؟!» (Panégyrique p120 - 121).

في الغرب، عند أقصى الطرف المقابل، نجد نظيراً لعقدة ماراتون في فرنسا متمثلاً في حروب پواتييه Poitiers والتي ادعى أنها كانت تدفقاً للبربرية الآسيوية على الغرب.

إذ يتحدث إرنست لافيس Ernest Lavisse في الفصل الخاص بالعائلة المالكة وريثة شارلماں في كتاب تاريخ فرنسا الذي أشرف عليه عن پواتييه بنفس الطريقة التي ذكرنا بها ماراتون من قبل، فيقول: «إن معركة پواتييه هي يوم لا ينسى في تاريخنا - وقد استطاع مؤرخ آخر أن يطلق على جنود الفرنجة اسم جنود أوروبا - ذلك أن الأمر كان قد حسم في هذا اليوم، بـألا تكون الغال مثلها مثل إسبانيا عربية مسلمة، إنها أوروبا كلها التي كان يدافع عنها الفرنجة ضد الآسيويين والأفارقة».

(*) زينفون: كاتب أثيني، تلميد سocrates. تابع حروب اليونانيين في آسيا وكتب عنها في القرن الرابع ق.م.

هزيمة غير حاسمة تماماً، بدليل أنه بعد عامين، أى في عام ٧٣٤، أطلق ليشى بروفينسال Lévi-Provençal على هذه الحروب اسم «الغارات» أو «الهجمات» (ومثل هذا لا يقارن بالمرة بالاحتياج الساحق لحرب مثل حرب الهون Huns^(*) التي وقعت قبل ذلك بثلاثة قرون والتي شنت على إقليم فالنس Valence في مقاطعة الرون Rhone، وتمسكت بشدة بإقليم ناربون Narbonne).

وهنا أيضاً نجد أن المؤرخين المحترفين ليسوا هم الذين أتلفوا النسخة الأخرى المختلفة من أسطورة معارضة المانوية للحضارة الغريبة في هجومها على البربر - ففي رواية الحياة الوردية La vie en fleur لأناتول فرانس Anatole France نجد يقول: لقد سأله السيد دوبوا Dubois السيدة نوزيار Nozière عن أسوأ يوم في تاريخ فرنسا، ولم تكن السيدة تعرف الإجابة، فاستطرد السيد ديبوا يقول: «إنه يوم معركة بواتييه في عام ٧٣٢، حين تراجع العلم والفن في الحضارة العربية أمام ببرية الفرنجة».

أما أنا فسأحتفظ بهذه العبارة دوماً في ذاكرتي، إذ إنها كلفتني الاستبعاد من تونس عام ١٩٤٥، لأن فيها دعاية ضد فرنسا !! وكان محظوراً علينا أن نؤكد أن الحضارة العربية كانت تهيمن - وعلى نطاق واسع - على الحضارة الأوروبية في القرن الرابع عشر!

لقد بين الكاتب بلاسكو إيبانز Blasco Ibanez في كتابه «في ظل الكاتدرائية à L'ombre de la cathédrale» : «أن نهضة إسبانيا لم تأت

(*) الهون: شعب من أصل منغولي أتى إلى أوروبا في القرنين الرابع والخامس الميلاديين، وقد وصل الهون إلى بلاد الغال، وهزمهم الرومان، فتركوا الغال، وتوجلوا في إيطاليا وتركستان وإيران والهند، قبل أن يهزموا في الهند عام ٥٣٠ م.

من الشمال حيث يقطن البرابرة، ولكن من الوسط مع العرب الفاتحين». كما كتب عن الحضارة العربية يقول: «بمجرد أن ولدت الحضارة العربية، عرفت كيف تمثل أفضل ما في اليهودية والعلوم البيزنطية، لقد حملت التقاليد الهندوسية العظمى، والبرهان الفارسي، واستعارت الكثير من الصين الغامضة، وهذا هو الشرق الذي أثر تأثيراً عميقاً في أوروبا . لقد وصل دارا Darius وكسرى Xérxés إلى أوروبا لا عن طريق اليونان التي لفظتهما لتحافظ على حريتها، وإنما عن طريق إسبانيا التي كانت مستعبدة من قبل ملوكها الالاهوتين، وقساوستها الشغوفين بالحرب، والتي استقبلت بذراعين مفتوحتين فاحتياها (من العرب)».

ويضيف بلاسكيو: «القد استولى العرب خلال عامين على ما أمضينا سبعة قرون لاسترداده منهم، إذ لم يكن غزوهם مفروضاً بقوه السلاح، وإنما كانوا يمثلون مجتمعاً جديداً تضرّب جذوره في كل الاتجاهات».

ومن قبل كان ليثي بروفنسال في كتابه «تاريخ إسبانيا المسلمة» قد وضع الحدث العسكري في حجمه الصحيح، إذ خصص له عشرين سطراً في كتاب مكون من عدة مجلدات.

ولكن كان يجب الانتظار حتى الثلث الأخير من القرن العشرين حتى يستطيع هاو إسباني يدعى إينياكو أولاج Ignacio Olague أن يتبيّن من خلال التحليل الدقيق للمصادر، أن النص الذي اعتمد عليه لوصف الحدث في كتب التاريخ، وكان أكثر النصوص استخداماً، هو نص كتب في دير مواساك Moissac، ذلك الدير الذي قام في معركة بواتييه بنفس الدور الذي لعبه من قبل هيرودوت بالنسبة لمعركة ماراثون.

لقد قام أولاج فى كتابه : «الثورة الإسلامية في إسبانيا» ، الذى تم تحريفه عند ترجمته إلى الفرنسية ، وتفريغه من المصادر الأساسية ، بتحليل لكيفية نشأة الملحمة ، واحتراعها بعد وقوعها بعده قرون ، في عصر حروب الموحدين والمرابطين التي أدت إلى انحسار الإسلام في إسبانيا .

لقد قام الملوك الكاثوليك بدور في تطوير الملحمة التي عاشت حتى نهاية القرن العشرين .

أما عن دور شارل مارتيل Charles Martel كمنفذ للغرب ، فإنه يظهر بشكل أكثر جلاء حين نضعه في سياق عصره .

١ - فهذا المنفذ لفرنسا وللغرب بعد انتصاره على القائد العربي عبد الرحمن في عام ٧٣٢ ، واصل انتصاراته على البرابرة المسلمين من خلال غزوه لإقليم الأكيتان في جنوب فرنسا Provence ثم إقليم البرفانس Aquitaine de la Bergogne الذي كان حتى هذه اللحظة مستعمرة رومانية .

٢ - إن هزيمة العرب المسلمين كانت ساحقة إلى الحد الذي ظل معه العرب يسكنون إقليم ناربون Narbonne ، وأن يظللوا أسياداً لإقليم البرفانس ، وأن يحتفظوا بقاعدهم الأساسية في مدينة فريجوس Fréjus ، وأن يصعدوا إلى إقليم الرون ، كما تشهد على ذلك كاتدرائية بوي Puy التي مازالت تحمل واجهتها كتابات عربية بالخط الكوفي .

وفىما يخص «حالة اليقظة» ، فمن المناسب أن نذكر ، مثلاً أنه بعد مرور عدة قرون بعد معركة بواتييه ، كانت قرطبة هي المركز الثقافى

الذى أيقظ أوروبا من سباتها الفكرى الطويل : وذلك حين أمدتها بكل هذا التراث الثرى للصين والهند وإيران ، بل بتراثها هى الموجود عند اليونان . فمن خلال شروح ابن رشد ، ومحاوراته لأرسسطو ، استطاع ألبير الأكبر Albert Le Grand و توما الأكوينى Thomas Aquin أن يطورا مذهبهما ، وأن تنمو الرشدية اللاتينية (*) فيما بعد فى جامعة پاريس على يد سيجير دى باربنت Siger de Barbant ، وفي جامعة أكسفورد ، ثم فى جامعة إيطاليا على يد بييك دى لا ميراندول Pic De La Mirandole فى القرن الخامس عشر .

إن الإدريسي (**) المولود فى سبتة (***) ، والذى درس فى قرطبة فى القرن الثانى عشر ، قد وضع خرائط ، استعان روجيه الصقلى بها لوضع تلك المناهج التى سمح لها بالانتقال من فكرة المجال إلى فكرة نصف الكرة ، وهى مناهج شبىهة بتلك التى استخدمها

(*) الرشدية اللاتينية: استقبلت أفكار ابن رشد فى الغرب منذ عام ١٢١٠ استقبلاً حسناً واعتلقها بعض المفكرين المسيحيين فى قردهم على القساوسة ورجال الدين المسيحى وعرفوا بالرشدين اللاتينيين . فتحركت السلطات الدينية ضدهم ووجهت إليهم ضربة قوية بإدانتهم عام ١٢٧٠ ، ويداً لحين أنه قد قضى على الرشدية اللاتينية ، لكنها تشبث بالبقاء وظهرت من جديد بعد ذلك واستمرت حتى عصر النهضة .

(**) أبو عبد الله محمد الإدريسي: (١٠٩٩ - ١١٦٥) جغرافي عربى شهير ، وقد كانت خرائطه هى الأساس الذى قام عليه كل الخرائط التى نشرت فيما بعد فى الغرب .

(***) مدينة مغربية ، تحت الاحتلال الإسبانى ، حتى اليوم ، هى ومدينة مليلة . تقع المديستان فى الأرض المغربية ، يفصلهما من إسبانيا مضيق جبل طارق فى البحر المتوسط . (الناشر)

ميركاتور Mercator^(*) بعد ذلك بأربعة قرون، وسمحت له باكتشافات هائلة.

لقد كانت رسائل الجراحة التي كتبها أبو القاسم^(**) حجة في مجال الطب لمدة خمسة قرون في كل كليات الطب في الغرب، في مونبيليه Mont pellier كما في باليرمو Palermo، وباريس، ولندن.

لقد عُدَّ روجر بيكون Roger Bicon (1561-1627) رائد العلم التجريبي في أوروبا (وهو العلم الذي يقوم على وضع فرضية رياضية وإقامة نظام تجريبى للتحقق من صحتها) ولكننا إذا نظرنا إلى الجزء الأخير من كتابه «العمل الأكبر Opus Majus» فسوف نجد أنه يقوم بعملية انتقال، وأحياناً بعملية ترجمة حرافية لكتاب البصريات للعالم المصري ابن الهيثم. وأحياناً يعترف بيكون بما استعاره فيقول: «الفلسفة مستمدة من العرب، وما من لاتيني يستطيع الفهم الصحيح للحكمة والفلسفة دون أن يعرف اللغات الأصلية التي يترجم عنها» (Métagogicus; IV; 6).

لقد كانت روح الوحدة تسود العلوم التي امتاز بها العرب، بدءاً من الفيزياء وحتى علوم الفلك. من البيولوجيا حتى الطب. «لقد كان حجر الزاوية في الثقافة الإسلامية في كل مجالات اللاهوت والفلسفة والعلوم والفنون يتمثل في فكرة الوحدة (أو التوحيد) التي لا تقتصر على مجرد التوكيد بأن الله واحد».

(*) چیار کریر میرکاتور: (1512 - 1594) ریاضی و جغرافی، إلیه یعزی اختراع نظام التمثیل الجغرافی علی الخرائط.

(**) أبو القاسم ويعرف بـ Abulcasis، توفي في عام 1031 وله رسائل هي الأولى من نوعها في مجال الطب الجراحي.

فالتوحيد ليس مسلمة، ولكنه عمل، والتوحيد هنا ليس مؤسسا على فلسفة للوجود، كما هو الحال عند اليونانيين، ولكنه، على العكس من ذلك هو فلسفة للفعل، وهذا ما سمح بتجدد كل العلوم. فإذا ما تخلينا عن الوهم الذي يعتبر أوروبا مركز تاريخ العالم، فيجب عندئذ أن نعترف أنه منذ القرن الثامن وحتى القرن الرابع عشر، لم يكن هناك ثقب أسود في التاريخ. ولكن على العكس، كانت هناك الحضارة العربية الإسلامية كواحدة من ألمع حضارات التاريخ.

لقد مضى ابن عربى - (١١٦٥-١٢٤١) المولود فى مرسيا Murcia بإسبانيا - بفلسفة الفعل إلى أقصى مدى لها، معارضا بذلك فلسفة اليونان للوجود عند الأفلاطونيين والأرسطيين . فما من شيء يبدأ من واقعة تامة الالكمال ، معطاة ، سواء فى ذلك إن كانت واقعة محسوسة أو مفهومية ، وإنما تبدأ الواقعة من الفعل الخلاق اللانهائي لله .

والقضية الأساسية بالنسبة لابن عربى هي البيان عن كيفية مشاركة الإنسان فى فعل الخلق لعالم فى حالة توالد دائم .

ومثل هذه الرؤية الحيوية للعالم ، نجدها فى القرآن ، متدايقة من الفعل الخلاق اللانهائي لله : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَقُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢] ، هذا الخلق المستمر يوجد كل شيء ، والله بخلاف المخلوقات لا يكفي عن الخلق ولا تأخذه سنة ولا نوم : ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] ، ﴿يَدِأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُه﴾ [يونس: ٤] .

إن النظرية الإسلامية للمعرفة تنطلق من الفعل الخلاق ، وهى النظرية التى استعارتها بعد عدة قرون الفلسفة الغربية ، وبصفة خاصة

عند كانت Kant ونظريته عن الخيال المتعالي ، وأكثر من ذلك عند جاستون باشلار Gaston Bachelard الذي عكف على البحث عن تاريخ هذا الخيال . إن المنهج التجربى وكم الاكتشافات الهائلة ليسا وحدهما دعامة صرح العلم الإسلامى ، فهناك أيضا تلك القدرة على ربط العلم بالحكمة والإيمان .

وبعيدا عن قصر حركة العلم على التصاعد من علة إلى علة ، كانت هناك الحكمة التى ترتفع من غاية إلى غاية أسمى ، من الغايات الوظيفية إلى الغايات العليا . حتى لا يستخدم العلم فى تدمير أو مسخ الإنسان ، وإنما من أجل ازدهاره . وذلك عن طريق تشبيت غايات إنسانية للعلم ، فالعلم التجربى والعلم الرياضى لا ينحانا الغايات ، فى حين أن الحكمة - وهى التفكير حول الغايات - تتيح لنا استخداما آخر للعقل . ومثل هذه الحكمة قد أصبحت بالضمور فى الغرب . فلا الفلسفة ولا اللاهوت عادا قادرین على القيام بهذا الدور التكميلي : للعلم الذى يوفر الوسائل ، وللحكمة التى تحدد الغايات .

إن العقل الغربى المحصور فى البحث عن الوسائل بوصفها غايات فى ذاتها ، يقود العالم إلى الدمار ، عن طريق استغلاله للذرة والصواريخ والجيئنات بدون حكمة .

إن الإيمان هو البعد الثالث لكل عقل متكامل . فلا العلم فى بحثه عن الأسباب ، ولا الحكمة فى بحثها عن الغايات ، يصلان إلى علة أولى أو غاية نهائية . يبدأ الإيمان مع الوعى الواضح بحدود العقل وحدود الحكمة ، ومن ثم فهو مسلمة ضرورية لانسجامهما ووحدتهما . هذا الإيمان ليس منافسا للعقل أو تحديدا له ، وإنما الإيمان هو عقل بلا حدود .

الخلاصة، يجب تغيير دور التاريخ في التعليم بشكل جذري، ويجب أن يحل البحث في المصادر محل نقل الأساطير.

فما قد جرت العادة على تسميته بالعالم المستعمر حتى منتصف القرن العشرين، أو تسميته بالعالم الثالث في عصر تصارع الكتلتين الشرقية والغربية، أو ما يطلق عليه بشكل ثابت اسم البلاد النامية (وفق معايير الغرب للنمو). كل هذه الأسماء لا تظهر في الكتب المدرسية ووسائل الإعلام إلا بوصفها تهديداً لأمن الغزاة: سواء كانوا هنوداً حمراً أو فلسطينيين. فأمام رعاة البقر الأميركيان لا يمكن للهندى الطيب إلا أن يكون قتيلاً أو عميلاً لهم، أو الفلسطينيين المنفيين من أراضيهم المسلوبة، والمقتولين بطلقات الرصاص، والذين لا يملكون من أسلحة في المقابل سوى بعض أحجار قديمة من أرض أجدادهم. فإن حال هؤلاء الفلسطينيين يسمى هنا أيضاً بنفس الاسم الذي كان يطلق على المقاومة زمن الاستعمار، أو في زمن هتلر حيث كان التصدى للمحتل يسمى إرهاباً. في حين أن إسرائيل تطالب بأمنها وهي تهدد أمن كل جيرانها، وتحتل حدود بلادهم، في استهانة بكل قانون دولي، أو حتى بأية إدانة أفلاطونية من قبل الأمم المتحدة. مع أنها تصر إصراراً مستمراً على وضع برنامج لزلزلة وحدة كل الدول المجاورة لها من الفرات إلى النيل^(١٤).

هنا نجد مسيرة استعمارية نموذجية، فقد كتب تيودور هرتزل Théodore Hertzl مؤسس الصهيونية منذ قرن من الزمان يقول: «سوف تكون حصناً بارزاً ومتقدماً للحضارة الغربية في مواجهة ببرية الشرق». مثله في ذلك مثل هانتنجلتون Huntington منظر الپتناجون الذي وضع - بعد قرن من بداية الحركة الصهيونية في كتابه «صدام

الحضارات» - الحضارة اليهودية المسيحية في مقابل التحالف الإسلامي الكونفوشى .

هنا نجد نفس التصور الأسطوري ، ونفس الصيغة التي توافق بين نفي وقتل الهنود من قبل الولايات المتحدة ، ونفي وقتل الفلسطينيين من قبل صهاينة إسرائيل ، الذين تتطابق سياستهم العملية مع سياسة التمييز العنصري والتوسيع الاستعماري لخليفتهم أمريكا .

نفس الرفض للأخر وللمحوار الخصب بين الثقافات هو الذي دفع منذ قرون ، منذ عهد يشوع حتى يوليوس قيصر ، ومنذ عصر بيزار حتى نيتنياهو ، الغربيين لأن يكونوا صيادين للناس ، لأن يكونوا أبطالاً أسطوريين أو تاريخيين لكل الحملات الصليبية ، ولكل الغزوات الاستعمارية ، ولكل أشكال السيطرة والقتال .

لقد اقتضى التاريخ المكتوب دائماً بقلم الغالبين ، أن يكون الانتصار لحضارة وقانون الأقوى^(١٥) .

وحل التعميد الرسمي لهذه النزعة الأسطورية محل ما هو تاريخي بمعنى الكلمة ، من أجل التغطية على خديعة أخرى ، ألا وهي أن كل الشعوب والحضارات غير الغربية ليست إلا ملاحق ثانوية لتاريخ الغرب . فهي لا تدخل في حيز التاريخ إلا إذا اكتشفت من خلال الغرب . إن التاريخ الذي تنقله لنا الكتب المدرسية ليس إلا تاريخ الغرب وقد ألحق به تاريخ الشعوب الأخرى ، تلك التي تبدو دراستها عملاً قاصراً على المتخصصين في الكوليج دي فرنس Collége de France ، أو في مدرسة اللغات الشرقية . أما بالنسبة لطالب المدرسة الابتدائية أو الثانوية ، فليس لديه إلا بضعة

فصول للقراءة عن ماركو بولو Marco Polo^(*) في آسيا، أو عن سوفرنيان دى برازا Savorgnan de Brazza^(**)، أو عن فادهرب Faidherbe^(***) في إفريقيا. وليس لديه أى شيء عن الصين، التي أدت اكتشافاتها العلمية إلى نهضة أوروبا. كما أنه لا يعلم شيئاً عن إمبراطوريات شنغهاي التي جعلت من إقليم تومبوكتو واحداً من أكبر مراكز البحوث الرياضية، وهو لا يعلم أيضاً شيئاً عن حضارة المايا التي اخترع علماء الفلك في رحابها تقويمياً أكثر دقة من التقويم الجريجوري Grégorien، وقبل هذا الأخير بعده قرون.

إن المركزية العرقية للغرب هي من القوة بحيث إن موسوعاتنا وكتبنا المدرسية تجعل مثلاً من جوتبرج Gutenberg مخترعاً للطباعة، في حين أنها قد اخترعت في الصين ومورست من قبله بخمسة عشر قرناً من الزمان. كما أن هذه الموسوعات والكتب تجعل هارفي Harvey هو مكتشف الدورة الدموية، في حين أن الطبيب العربي ابن النفيس - الذي ولد عام ١٢١٠ أي حوالي ٤٠٠ سنة قبل ميلاد هارفي، و٣٠٠ سنة قبل ميشيل سيرفي Michel Servey - كان قد قدم في ثنایا شروحه لابن سينا وصفاً مبسطاً ورسمياً توضيحيّاً للدورة الدموية.

(*) ماركو بولو: رحالة من قينيسيا (١٢٥٤ - ١٣٢٤) استطاع عبور آسيا مع والده وعمه، ووصل إلى الصين حيث عاش في حضرة الإمبراطور لمدة ١٦ عاماً عاد بعدها إلى بلاده وأملأ كتابه «كتاب عجائب العالم» في عام ١٢٩٨ ضمنه رحلاته الطويلة المثيرة.

(**) برازا: (١٨٥٢ - ١٩٠٥) مكتشف فرنسي من أصل إيطالي - استطاع أن يضمّن سيطرة فرنسا على الكونغو (١٨٧٥ - ١٨٨٥).

(***) فادهرب: (١٨١٨ - ١٨٨٩) عسكري فرنسي، حكم السنغال ساهماً في إنشاء ميناء داكار. كما ساهم في توسيع الاستعمار الفرنسي في غرب إفريقيا.

هكذا اتخذ كل غزو أو عدوان استعماري شرعية له باسم الحضارة، كما كانت توسم كل مقاومة من قبل الشعوب المنهوبة دائمًا باسم الإرهاب.

(ج) الأسطورة والتاريخ في إسرائيل

إن الأسطورة التي حلت محل التاريخ قد وصلت إلى أقصى مدى لها من الوحشية في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وفي الحيز الواقع بين الشرق والغرب، أي تحديداً في فلسطين.

وقد بينا ذلك في كتابنا «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية»(*)، وشجبنا التزييف الواقع للتاريخ، ولهذا حظى الكتاب باهتمام عالمي، وترجم في ثلاثين بلداً: في اليابان والصين وروسيا وكل أوروبا من اليونان إلى إنجلترا، ومن أمريكا الشمالية إلى البرازيل. كما يلتقي الكتاب مع الأبحاث الحالية التي يقوم بها المؤرخون الجدد في إسرائيل نفسها، حيث أصبح تعبير «الأساطير المؤسسة» شائعاً، وخصوصاً منذ فتح أرشيفات الدولة الإسرائيلية بعد خمسين عاماً من السرية.

في الواقع أن الأساطير الصهيونية المتشربة بشكل مكثف في كل أرجاء العالم، تجعل من الجرائم النازية أمراً غير مفهوم. فأحياناً تعزى هذه الجرائم إلى سبب وحيد هو الهذيان المعادى للسامية لدى هتلر، وأحياناً أخرى تعزى إلى الجنون الشيطانى للشعب.

(*) أصدرت دار الشروق ثلاثة طبعات منه.

في الحالة الأولى نسلم بوجود شيطان غريب على التاريخ كغريبة أحد سكان الفضاء الهابطين من السماء إلى الأرض ، وفي الحالة الثانية - وحتى يمكن لنا أن نفسر وجود شعب وافق معظمهم على الهدىان - نسلم بوجود شعوب ملعونة ، كما نسلم بوجود شعوباً مختاراً من قبل إله منحاز يلقى من عليائه بأقدار اللعنة والبركة على شعوب بأكملها . وهذا التصور الأخير هو الأكثر شيوعاً لأنّه هو الوجه الآخر للزعم بالاصطفاء الإلهي . وهو ما نجده على سبيل المثال عند كاتب مثل جولدهاجن Goldhagen الذي يرى أن كل الشعب الألماني وثقافته كان مقدراً لهما القيام بهذه الجريمة ، وهو نفس التصور الذي يراه برنار هنري ليفي Bernard Henri Lévy بالنسبة للشعب الفرنسي ^(١٦) .

إن كل هذا يتسمج مع المنطق التام للاعتقاد في شعب مختار انتشله الله من الفسق الذي يغمر باقي الشعوب .

هناك عقيدة أخرى ، مترتبة منطبقاً على الاعتقاد في فكرة شعب الله المختار ، وهي الخاصية الفريدة لمذبحة اليهود ، التي اتّخذت بعد استثنائياً مقدساً لا هوتها : فمصطلاح الإبادة الجماعية *L'holocauste*^(*) هو مصطلح خاص باليهود وحدهم .

وأمر كل الضحايا الآخرين - على مر التاريخ - بما فيهم ضحايا الهمجية الفاشية ، ليس إلا أمراً تأفها ودنيوياً . فهو لاء الضحايا لا يدخلون في إطار الاعتبار الإلهي الذي يتتّخب ويستثنى .

(*) مصطلح يهودي يعني في الأصل الاحتراق الكامل للضحية ، وقد تم استخدام هذا المصطلح للتغيير فيما بعد عن الإبادة النازية لليهود في عهد هتلر .

فباستثناء الشعب المختار، ليس الآخرون سوى وحوش للعرض، ويحتل هتلر وأتباعه من الجنادين المتطوعين مقدمة العرض. فسواء اخترع الإنجليز معسكرات الاعتقال في حرب البوير^(*) Boers وسواء أكانت الهندسة الوراثية تستخدم المعوقين في تجاريها وقتلهم، أو كان فاتحوا أمريكا قد ذبحوا ملايين الهنود، أم أن كل أوروبا ساهمت في تجارة العبيد السود، أم أن الأرمن كانوا ضحايا للمجازر، أم أن هملر Himmeler^(**) كان قد حدد لنفسه هدفاً ألا وهو تصفية السكان المسلمين، وقصرهم على ٣٠ مليونا. (Jean Marc Varaut: Le Procès de Numreberg: 1992; p57) – فإن كل هذا لا يساوى شيئاً إزاء اضطهاد اليهود «اليهود وحدهم» كما يقول جولدهاجن Goldhagen (في كتابه p3 à 319). .

وهكذا يصح على كل ماعدا هؤلاء المختارين التعبير الذي أطلقه بيجين بعد مذابح صابرا وشاتيلا الدامية التي كان قد ذكرها آريل شارون: («غير اليهود» قتلوا «غير اليهود»، ما دخلنا نحن في ذلك؟).

(*) حرب البوير في عام (١٨٩٩ - ١٩٠٢). هاجر بعض الأوروبيين البروتستانت إلى جنوب إفريقيا وكونوا دولة هناك طردوا على أثرها المواطنين الأصليين، في عام ١٨٣٦ - ١٨٥٢. ولما رفضوا السيطرة البريطانية على المنطقة شنوا حرباً على البريطانيين منذ عام ١٨٩٩ حتى ١٩٠٢. وقد انتهت الحرب بهزيمة الأراويل، وإن ظلت إرادة الهيمنة الأوروبية قائمة في جنوب إفريقيا حتى تم تحررها منزعيم الأفريقي مانديلا.

(**) هملر: (١٩٤٥ - ١٩٠٠) سياسي ألماني. وكان زعيم الجستابو في عام ١٩٣٤، ثم رئيساً لكل قوى الشرطة الألمانية وإليه يعزى اضطهاد أعداء ألمانيا، وقد مات متضرراً بعد القبض عليه.

ولكن هناك شعباً واحداً آخر يستمتع بامتياز الطهارة هو شعب الولايات المتحدة الأمريكية ، التي حدد واحد من رؤسائها هو تيودور روزفلت سياساته العنصرية بقوله :

«إن أكثر المخربين عدلاً على وجه الأرض هي الحرب ضد المتوحشين البدائيين. إن المستعمر القاسي الفخور الذي يطرد الهمجيين من أراضيهم يستحق العرفان بالجميل من قبل كل المتحضررين. إن العالم لم يكن له أن ينجز أى تقدم لولا نفسي وسحق الشعوب البدائية والبربرية بواسطة مستعمرین مسلحين، من جنس أولئك الذين يقبحون على مصير القرون القادمة بأيديهم» .(Victoire de L'Ouest ; N.Y.1889: 1. p119).

(وقد استشهدت محكمة نورمبرج بقول تيودور روزفلت هذا في معرض إطراه وتقريره ، في المجلد الرابع ص ٣٥ ، ٢٧٩ ، ٤٩٧ ، من النسخة الإنجليزية)

وفي طبعة عام ١٩٧٠ ، عن تصريحات الرئاسة لتيودور روزفلت ، نجد ما يلى :

«إن الحرب التي مدت جذور الحضارة على حساب البربر والبدائيين، كانت واحدة من أكفاء عوامل التقدم الإنساني» .(Vol I; p62- 63)

من الملاحظ أن محكمة نورمبرج قد نصت في مناسبات عديدة على اقتباسات مشابهة لما قاله هتلر ، مثل : «الجنس الأسمى أخضع جنساً أدنى بسبب حق الأقوى على الضعف، كما هو الحال في الطبيعة، لأن الحق الوحد المقبول المؤسس على العقل» .

وفي عام ١٩٤٥ ، وبعد دك طوكيو بالقنابل ، التي أدت إلى مصرع ١٠٠ ألف شخص من المدنيين ، كان قائد العملية يقول بجنوده: «اسلخوهم، اسلقوهم، اشووهم» ، ولم تكن هناك احتجاجات ذات بال لدى الرأى العام الأمريكي . فقد أضاف إليوت روزفلت ابن الرئيس روزفلت يقول : «إنه يجب قصف اليابان حتى نتمكن من تدمير ما يوازي نصف السكان المدنيين» .

وفي إحصائية لمجلة فورشون Fortune ، في ديسمبر ١٩٤٥ ، نجد أن ربع الذين تم استجوابهم من الأمريكيين ، يتمنون أن تستخدم الولايات المتحدة المزيد من القنابل الذرية قبل أن تتمكن اليابان من استعادة قواها (Dower, War without mercy.p30;4à;-41;53-55) .

هيروشيماء ونجازاكى لم تكن كافية لهؤلاء الذين يدافعون عن حقوق الإنسان .

إن الإعدام التعسفي لثلاثةآلاف زنجي فيما بين عامى ١٨٨٩ و ١٩٣٠ ، والأذان المقطوعة للأسرى اليابانيين في عام ١٩٤٥ ، وجماجهم التي كانت تستخدم كزينة للعربات الحربية ، أو كوحدات للديكور خلف الفتیات في الصور المشورة في مجلة «الایف Life» (Ibidem p65) . هذه الروح مازالت تلهم جولدشتين ونيتنياهو وأشياهم ، فقد تعلم كلاهما في الولايات المتحدة على نحو ما بينه الصحفي الإسرائيلي آرئ شافيت صبيحة الجريمة التي وقعت ضد الإنسانية في قانا ، إذ قال :

«لقد قتلنا ١٧٠ شخصا بعضهم كانوا من النساء والشيوخ ، وكان من ضمنهم طفل عمره عامين ، لقد حرصنا على قتلهم عن بعد ، لقد قتلناهم لأن هناك فجوة تفصل بين سمة القداسة التي نضفيها على

حياتنا أكثر فأكثر، وننكرها على الآخرين أكثر فأكثر، وهذا هو ما سمح لنا بقتلهم» Journal israélien Haartz ; New York Times (Syndication ; traduit dans Libération du 21 Mai 1996)

إن الفلسفة الكامنة خلف هذه الرؤية للعالم هي من إنجاز الكاتب اليهودي إيلي فيزيل Elie Weisel ، فهو يجعل من نفسه شاهداً مطلقاً، إذ يقول : «إن الذي يرفض أن يصدقني ، فهو بالضرورة يناصر هؤلاء الذين ينفون الإبادة الجماعية لليهود». وهو يدين بهذه العبارة المعارضين لقصص لبنان بال مقابل ، والذين قد بذروا بذور الشك في إسرائيل . عندها كتب إيلي فيزيل يقول :

«الم يكن من الأفضل دعم إسرائيل بلا شروط وبلا مقابل ، دون الالتفات إلى العذابات الدائمة لسكان بيروت» (Against Silence; N.Y. 1984.Vul. II 213 - 216).

منذ حرب الأيام الستة ، كتب نورمان بودوريتز Norman Podoretz يقول : «إن دولة إسرائيل هي اليوم دين اليهود الأميركيين» (Breaking Ranks ; N.Y 1979) .

هذا التحريف للتاريخ ، وما ترتب عليه من نتائج دامية يرجع إلى هذا التوافق الغريب الأميركي الإسرائيلي الذي تحقق في الخمسين سنة الأخيرة ، والذي إذا قلنا موازين القوى فيه ، لأدركنا أن الولايات المتحدة هي اليوم مستوطنة من مستوطنات إسرائيل .

أما المثل الأكثر دلالة على التلاعب بالتاريخ واستخدامه لتبرير أسوأ أشكال الابتزاز ، فهو ما يقوم به الصهاينة - الذين أصبحوا قادة لدولة إسرائيل - من تلاعب بالتاريخ . وهذا هو ما يفسر غضبهم الشديد من كتابي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية». هذا

الكتاب الذى يرصد محصلة خمسين عاما من أكاذيبهم الدامية، وهو ما يفسر أيضا الصدى العالمى المدوى لهذا الكتاب الذى ترجم فى ٣٠ بلدا و٤ قارات من العالم.

لم أكن الأول ولا الوحيد الذى قام بهذا العمل النقدى للتمييز بين الأسطورة والتاريخ.

ولا أدعى لنفسي الفضل، ولكن فداحة الكارثة تأتى من الانتقادات، وذلك لسبعين رئيسين:

الأول: أن أطروحتى جاءت بعد وقت قليل من اللحظة التى أصبح الكذب فيها، ليس فقط مقدسا، بل ومشروعًا بقوة القانون الفرنسي، للأسف !!

فالقانون المسمى بقانون جيسو يدين بشكل غير مسبوق كل دراسة نقدية للحكم الذى أطلقه المتصررون على الجرائم التى ارتكبها المهزومون فى الحرب العالمية الأخيرة، وهو ما كرسته محكمة نورمبرج، فى حين أن رئيس المحكمة نفسه وهو القاضى الأمريكى چاكسون، قد أقر بأن هذا الحكم هو آخر أعمال الحرب، مسوًغاً كونها محكمة طوارئ، غير ملزمة باتباع القواعد القانونية والإدارية للتقاضى. ومن هنا فلا يمكن لها أن تكون حجة قانونية، وبالآخر لا يمكن أن تكون معياراً للحقيقة.

السبب الثانى لهذا التحامن القانونى والهجوم الإعلامى على كتابى، يرتبط بكونه يلتقي بالدراسات النقدية التى يقوم بها المؤرخون الإسرائييون الجدد، الذين شجبوا نفس الأساطير، وأبطلوا بذلك ادعاءات الهيمنة الاستعمارية للقادة الإسرائيelin. فنقضوا هم أيضا ما كان حتى الآن إجماعاً على الأسطورة المؤسسة.

لقد أطلق كتابي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» العاشرة حين صدوره في عام 1996 ، وهما في عام 1997 الأستاذ زيف شترنل Zev Sternell أستاذ العلوم السياسية في الجامعة العبرية بالقدس يكتب كتابه : «الأساطير المؤسسة للقومية الإسرائيلية» ، الذي نشر عن طريق دار النشر الشديدة الأكاديمية Princeton University Press ، وقد نشرت صحيفة لو موند Diplom- Le Monde atique في مايو عام 1998 ، وقبل صدور الترجمة الفرنسية لكتاب هذا الأستاذ ، مقدمة له يقول فيه : «التساؤل عن أساطيرنا المؤسسة لم يكن أبداً بمثيل هذا الانتشار» .

هذا النقد التاريخي يسمح بالكشف عن سوء النية السياسي لاستغلال «الأسطورة اليهودية». إن القومية اليهودية - كما يقول - لا تختلف كثيراً عن القومية في أوروبا الوسطى أو الشرقية التي يطلق عليها «الشعب» Volkische (أى القومية المؤسسة على رابطة الدم) والثقافة والدين ، كعناصر موجهة لعبادة الماضي التاريخي . وهذه القومية اليهودية لا تجد أى صعوبة في أن تزعزع عن الآخرين نفس الحقوق الأساسية التي تنسبها لنفسها. كما أن التصوف الذي ينشد الأرض ، والذي يملئ على حكامنا المتتاليين سواء أكانوا من اليمين أو من حزب العمل قرارهم السياسي المتعلق بالأرض ، يحيط دائمًا إلى تلك الاستمرارية التاريخية الدينية ، التي كانت الأساس الأول للحركة الصهيونية . هناك عالم يفصل الكتاب والفنانين اليوم عن الأسماء الكبيرة للجيل السابق المرتبطة دائمًا بفترة التأسيس للعمل من أجل إسرائيل الكبير بعد حرب الأيام الستة» .

إن كتاب شترنل Sternell، ليس كتاباً فريداً، إنه ليس إلا واحداً من المراجعات، التي أظهرت المؤرخون الجدد في إسرائيل ضرورتها.

واحدٌ منهم، هو بيني موريس Benny Morris، تخلّى حتى عن اسم المؤرخين الجدد: فالأمر عنده يتعلق بالمؤرخين فحسب، لأنــ كما يقول في جريدة هآرتزــ حتى الآن، لم تكن هناك إلا الميثولوجيا، وهذا هي ذي كل الأساطير تساقط الواحدة تلو الأخرى.
أولاً: أسطورة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»(*).

هي قدية قدم قرن من الزمن، والتي استعيدت بشكل رسمي من خلال السيدة جولدا مائير، التي نفت حتى وجود الشعب الفلسطيني. وحتى يعطوا مصداقية لأسطورة بلا جذور، قام القادة الصهاينة بتدمير ٨١٪ من قرى الفلسطينيين بالبلدوفر، وذلك ليقنعوا الزوار أنهم قد خضروا الصحراء. ومنذ عام ١٩٧٥ وضع الپروفيسور إسرائيل شحاح من الجامعة العبرية في القدســ وفي كتابه «عنصرية دولة إسرائيل»ــ قائمة لــ٣٨٣ قرية فلسطينية كانت قد هدمت مع سبق الإصرار . واليوم بعد فتح الأرشيفات الرسمية ، كانت هذه «الخطيئة الأصلية لإسرائيل» طبقاً لعنوان كتاب دومينيك فيدال Dominique Vidal ، الذي يلخص أعمال المؤرخين الجدد (بني موريس Benny Morris ، آفي شنلاعيم Avi Schlaim ، إيلان پاب Ilan Pape ورائهم سمحة فلاپان Simha Flapan)، تدمر بصورة جذرية الأسطورة الرسمية ، وتكشف عن أن الفلسطينيين لم يخرجوا طواعية

(*) ترجع هذه العبارة إلى الصهاينة المسيحيين المتطرفين في الولايات المتحدة الأمريكية .
انظر كتاب تلمود العم سامــ منير العكش .

استجابة لنداء الإذاعات العربية. لقد طردوا بالقوة العسكرية. وقد تم العثور على الأوامر المكتوبة بذلك والتي صدرت إلى الضباط المسؤولين.

إن اكتشاف هذه الوثائق الداميكية أصبح ملحوظاً للدرجة أنه أصبح موضوعاً مسلسل في التلقيزيون الإسرائيلي هو مسلسل *Teku-ma*، الذي عرض أمام جمهور المشاهدين كيف تم اقتلاع ٧٠٠ ألف فلسطيني من ٤١٨ قرية تم تدميرها (وهو عدد يفوق ما ذكره إسرائيل شحّاك)، وكيف ظل «١٥٠ ألف عربي في إسرائيل كمواطنين من الدرجة الثانية» (مقال في جريدة لو موند بتاريخ ١٤ من أبريل عام ١٩٩٨، تحت عنوان من الأسطورة إلى التاريخ)^(١٧).

هذه هي نتائج أبحاث المؤرخين الشجعان الذين (وبحسب عبارة المقال نفسه) قد قاموا بتقويض الأساطير.

هناك باحثون من مركز البحوث القومية C.N.R.S في فرنسا على خلاف چان كريستوف Jean Christophe وآتس Attis وإيستر بنباسا Esther Benbassa لا يسمحون بأقل نقد لإسرائيل، على العكس من بعض قطاعات للجماعات اليهودية الموجودة في المهجر الذين كانوا يرون أن هذه الخميرة النقدية شديدة الفائدة (جريدة لو موند في ٢٩ من أبريل عام ١٩٩٨).

كان الأمر يتعلق فعلاً بقطاعات من اليهود، لأنه في مقابل ملايين اليهود الفرنسيين، هناك ٥١ ألفاً فقط يتبعون إلى منظمات صهيونية CRIF وLICRA وغيرها. وكما كان الحال، حين تقلد هتلر السلطة، ٥٪ فقط من اليهود المنظمين كانوا ينتمون إلى الحركة الصهيونية (هؤلاء الذين تحالف معهم هتلر لأنهم كانوا يقرؤون - حسب

رغبتـه - بـرحيل اليهود إلـى فـلـسـطـين . فـى حـين أـن رـابـطة الـأـمـانـاـنـاـيـهـودـ وـهـم يـمـثـلـون ٩٥% مـن الطـائـفـة ، كـانـوا يـطـالـبـون بـأن يـصـبـحـوـا أـلـمانـاـ كـامـلـاـيـهـ الـأـهـلـيـهـ ، مـع الـاحـتـرـامـ الـمـشـرـوعـ لـدـيـانـتـهـمـ ، وـهـؤـلـاءـ هـمـ الـذـينـ تـحـاـلـمـ الـنـازـىـ عـلـيـهـمـ) .

هذه المراجعة الجذرية لدور الدولة في الدعاية للأساطير يهدـمـ بلاـشـكـ مـصـدـاقـيـةـ الصـهـيـونـيـةـ فـىـ عـبـادـتـهـمـ لـلـشـوـاهـ Shoahـ(*ـ)ـ بـدـعـوىـ «ـالـذـوـدـعـنـ الـذاـكـرـةـ»ـ . وـهـكـذـاـ يـتـحـولـ هـذـاـ الحـدـثـ الدـامـيـ إـلـىـ أـقـصـىـ تـبـرـيرـ لـلـصـهـيـونـيـةـ ، وـلـإـقـامـةـ دـوـلـةـ إـسـرـائـيـلـ . وـيـصـرـ مـاـ بـعـدـ الصـهـايـنـةـ عـلـىـ أـنـ نـفـصـلـ فـحـصـ الـتـارـيـخـيـ (ـلـلـشـوـاهـ)ـ عـنـ الـصـرـاعـ الـعـرـبـيـ الـإـسـرـائـيـلـيـ . فـالـعـربـ لـمـ يـكـنـ لـهـمـ أـدـنـىـ مـسـؤـلـيـةـ عـنـ مـذـابـحـ الـيـهـودـ الـتـىـ اـرـتـكـبـهـاـ الـأـوـرـوـپـيـوـنـ . فـالـشـوـاهـ لـاـ يـكـنـ أـنـ تـسـتـخـدـمـ كـذـرـيـعـةـ لـلـاسـتـعـمـارـ الصـهـيـونـيـ .

وـقـدـ خـلـصـ كـلـ مـنـ آـتـيـسـ Attisـ وـإـيـسـتـرـ بـنـبـاسـaـ Esther Benbassaـ إـلـىـ أـنـ نـقـدـ الـأـسـاطـيـرـ الرـسـمـيـةـ هـوـ نـقـدـ ثـرـىـ بـلـاـ مـرـاءـ ، لـيـسـ فـقـطـ لـأـنـ هـذـاـ نـقـدـ يـكـشـفـ الـأـكـاذـيـبـ الـمـبرـرـةـ لـلـاسـتـعـمـارـ الـحـالـيـ عـلـىـ لـسـانـ الـقـادـةـ الـإـسـرـائـيـلـيـنـ ، وـلـكـنـ لـأـنـهـ يـفـتـحـ طـرـيـقاـ لـلـبـحـثـ الـأـصـيـلـ فـىـ تـارـيـخـ الـيـهـودـ كـلـهـ (ـالـذـىـ أـعـيـدـ كـتـابـتـهـ فـىـ الـقـرـنـ الـعـشـرـيـنـ وـفـقـ الـمـشـورـ الـأـيـديـوـلـوـجـيـ الـصـهـيـونـيـ)ـ (ـمـقـالـ مـنـشـورـ فـىـ ٢٠ـ مـنـ إـبـرـيلـ عـامـ ١٩٨٨ـ)ـ .

(*) الشواه: كلمة عبرية تعنى «حرق القربان» في الديانة اليهودية، ولكنها في استخدامها المعاصر تشير إلى ما لاقاه اليهود من ترحيل واعتقال واضطهاد في الحرب العالمية الثانية - والغرض من استخدام هذه الكلمة هو إضفاء طابع القدسية على معاناة الشعب اليهودي.

هذا التمييز الجذري بين السياسة الصهيونية والدين اليهودي، يتلاقي والتقاليد العظيمة لبرنار لازار Bernard Lazare وحنا آرن特 Hannah Arendt^(*) الذين يعرفان الصهيونية بما يلى : «نظيرية بمقتضاهما تكون هناك دائمًا علاقة من العداء للسامية بين اليهود وغير اليهود»

The Jew as pariah ; New York 1980

حنا آرن特 تذكرنا «بأنه بالنسبة للصهاينة ، كل من هم غير يهود هم معادون للسامية ، ووفق هرتزل ، يمكن تقسيم العالم بين هؤلاء الذين يعادون السامية بشكل واضح ، وأولئك الذين يخفون عدائهم للسامية».

وهي تخلص إلى أن «هذه الحالة - هي بلا شك - حالة شيفونية عصبية خالصة . وهذه القسمة بين اليهود وسائر الشعوب لا تختلف عن النظريات الأخرى الخاصة بالأجناس الأرقى» Pour sauver la partie juive; dans Commentry ; mai 1948; p 401)

وفيما يخصنى ، أنا فخور ، لأنى شاركتُ فى هذا المجد الواسع حول التاريخ والأساطير التى كشف البروفيسور شترنل عن استخداماتها السياسية والقومية ، إذ يقول : «التاريخ هو دائمًا أداة لبناء فوقى ، وقد كلفنا الأمر ٥٠ عاما حتى نرى الصهيونية بشكل مختلف ، ونرى أنفسنا فى المرأة بشكل أكثر موضوعية » .

اليوم ، الأمر لا يتعلق قط ببعضة أعمال منعزلة لبعض المؤرخين ، ولكنه يتعلق بحركة واسعة تعى خطر السياسة الإسرائيلية الاستعمارية

(*) حنا آرن特 : (1906 - 1975) فيلسوفة يهودية أمريكية من أصل ألماني . هي الأولى التي وازنت بين النظام النازي والنظام الستاليني . ولها العديد من الكتب في الفلسفة السياسية التي حازت بها شهرة واسعة تدين بها الحكم الشمولي والإرهاب مثل كتابها «مصادر الحكم الشمولي» (1951).

المستفزة، وهو ما يمكن أن يكون مفجراً لحرب عالمية ثالثة . ونجد علامات على هذا الوعى فى دعوة يهود المهاجر، وأصدقاء إسرائيل لإنقاذ السلام . وهو ما يدين الانحراف الحالى لحكومة إسرائيل القائم على الاستهانة والكذب والاستفزاز . هذه الحكومة لا تستطيع أن تدير ظهرها للأبد للعالم كله ، ولا أن تستمر فى فرض الاحتلال العسكرى على الفلسطينيين ، علاوة على التضييق الاقتصادى عليهم ، ووأد كل طموح قومى لديهم ، وذلك عن طريق تقليص الأراضى الفلسطينية إلى سلسلة من الأحياء المتناثرة .

هذا النداء قد تم توقيعه من قبل سبعة من الحائزين على جائزة نوبل ، ثلاثة من معهد الدراسات العليا ، وأربعة من الكوليج دى فرنس ، وغيرهم من الأساتذة والباحثين الأكاديميين من أمثال روبيير بادينتر وچاك ديريدا وپير نورا وپير فيدال ; Robert Badinter Jacques Derrida ; Pierre Nora ; Pierre Vidal -Naquet الفنانين والعلماء من أمثال يهودى منوهين ، آريان موشكين ، سوزان سونتج ، پير سولاج ; Ariane Moushkine ; Yehudi Menuhin ; Suzan Sontag ; Pierre Soulages .

ولأن لم نذكر إلا مثيلين فقط ، فإن الكتب الأخيرة عن تاريخ إسرائيل لا تشير حتى إلى وجود الفلسطينيين ، وهى تكرر الملحة الذهبية لنشأة العالم الجديد بفضل الرواد ، وبفضل الكيبوتز (المزارع الجماعية للإسرائيلىين) . وهملاء كانوا بالفعل طوباويين ومثاليين فى البداية ، ولكنهم لا يمثلون إلا ٣٪ من السكان . وقد شوهرت روحهم الأصلية بفضل أمركة المدن (إسباغ الطابع الأمريكى عليها) واستعمار الكوكا كولا . وكما يقول عالم الاجتماع الإسرائيلى عاموس عوز Amos Oz : «فما من أحد يسمعنا ، الإعانت المالية تذهب

للمستوطنات، والكيبيوتر الذين رفضوا التكيف وقواعد الرأسمالية، من ضمن الـ ٢٨٣ كيبوتز - أصبحوا على حافة الهاوية» (جريدة لوموند، ٢١ من أبريل عام ١٩٩٨).

إن قلق الشباب كبير، كما يقول عاموس عوز وهو يشعر بالغربة: «في الماضي كانت الحياة قاسية، ولكنها كانت ذات معنى، أما اليوم فلا نجد إلا العدم» (جريدة لو موند ٢٩ من إبريل عام ١٩٩٨)، وتوجز المغنية الإسرائيلية الشهيرة نوا Noa هذا الشعور بالسخط في قولها في نفس الصفحة:

«خمسون عاما مضت، ونحن لا نعرف أبدا ما الذي نريد؟ دولة يهودية، دولة لليهود، أم دولة ديمقراطية ذات طابع ثقافي يهودي... وحتى لو اقتضى الأمر تعديل الحدود هنا أو هناك، يجب أن توجد دولة فلسطينية، وستوجد».

ثم تضيف واضعة يدها على موطن الخلل: «إن المجتمع يتجمد عندما يفرض رجال الدين سلطتهم على كل مظاهر حياتنا دون اختيار منا، إنهم سرطان يسرى، وسوف يقتلنا».

ثانياً: أسطورة ٦ ملايين يهودي ضحية للنازي.

المثل الثاني للانتهاك المتعمد لحق النقد التاريخي، وللاستهانة بالمصادر الأصلية الكامنة وراء الأسطورة، يتمثل في الدفاع اليائس عن أسطورة لستة ملايين من البشر، ما زالت تمثل العقيدة المركزية للهرطقة الصهيونية. في حين أنه ما من أحد يستطيع أن يسوّغها.

إن المنهج الإحصائي يصطدم بهذا الفعل الأسطوري العنيف: ففي عام ١٩٤٢ كان هناك في كل أوروبا عند أقصى توسيع للنازية التي

وصلت إلى روسيا، بفضل هتلر، ٣ ملايين و ١١٠ ألف يهودي (كتاب اليهود الأمريكيين السنوي، ١١ سبتمبر عام ١٩٤٢) - مجلد (The American Jewish year book ; n-5702 du 11 Septembre 1942 Publié par The jewish Publication society of America; Vol 43; p 666) وطبقا للإحصائيات الموثوقة فيها مثل: إحصائيات روپين Ruppин قبل الحرب، وإحصائيات المؤتمر اليهودي العالمي بعد الحرب - وأيا كانت فرضيات التقدير الاستقرائي لعدد وفيات ومواليد الجماعات اليهودية، فإنه على مدى ٢٠ عاماً يمكن حصرهم وفقاً لمعطيات أكيدة للوصول إلى نتائج أقرب إلى الصحة . فإذا ما افترضنا أن النازيين قد أبادوا كل المعتقلين (وهو ما يبدو مستبعداً لأنه في عام ١٩٤٤ كان هناك ثمة اقتراح بمبادلة مليون يهودي بـ ١٠٠ ألف عربة نقل)، فكيف يمكن قتل ٦ ملايين يهودي ؟

فرقم ٦ مليون لا يستند في صحته إلا على شهادة اثنين من النازيين في نورمبرج ، كانا يؤكدان أن إيخمان Eichman قال لهما إنه قد قيل له إن . . .

١- ووفق المعلومات الرسمية اليهودية ، نجد أن عدد اليهود الذين كانوا يعيشون في أوروبا أثناء تقلد الحزب الوطني الاشتراكي للسلطة يبلغ ٦ , ٥ ملايين يهودي (وأثناء محاكمة إيخمان قال وكيل النيابة إن عدد اليهود ٧ , ٥ ملايين يهودي) . وقد اتفق الصليب الأحمر السويسري (Basler Nachrichten du 13-4-1966) وجريدة ييديش Yiddish في نيويورك في ١٣ / ٤ / ١٩٤٨ ، حول عدد المهاجرين اليهود ما بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٤٥ ، بمليون و ٤٠ ٤ ألف يهودي . منهم ٤١٣ ألفاً يعيشون

فى بلاد محايدة، أو فى إنجلترا بحسب ريتلينجر Reitlinger (فى كتاب الحل النهائى La Solution Finale : p34). ويقدر عدد اليهود المهاجرين إلى روسيا بمليون و ٥٠ ألفا. مما يعنى أن عدد اليهود الذى كان من الممكن أن يسقط فى أيدي النازيين هو مليونان و ستمائة ألف يهودي.

ولدينا طريقة أخرى للتحقق من صحة هذا العدد عن طريق مقارنة المعلومات: ففى عام ١٩٣٨ ، كان هناك ١٥ مليونا و ٧٠٠ ألف يهودي فى العالم World Almanach 1947 (عن الجالية اليهودية الأمريكية، وعن مركز الإحصاء للمعابد فى أمريكا).

بعد عشر سنوات من عام ١٩٣٨ ، كان هناك ١٨ مليونا و ٧٠٠ ألف يهودي فى العالم New York Times 22 Février 1948 (حسب الخبراء الإحصائي هنسون ولIAM بالدوين Hanson Wil-liam Baldwin . وأيّاً كانت نسبة المواليد اليهود (وفق أي شبهة ولو ضعيفة فى حقبة الاضطهاد هذه)، فمن المستبعد أن يكون عدد الذين أبدوا ٦ ملايين يهودي .

وفى مجلة Die Tat فى زيورخ، فى عددها الصادر بتاريخ ١٩ من يناير عام ١٩٥٥ ، نشرت إحصاءات الصليب الأحمر الدولى والتى تقدر القتلى اليهود بـ ٣٠ ألف يهودى لم يتم إبادتهم، وإنما أصيبوا بالأمراض ووباء التيفود، والمجاعة، والإنهاك وضربات القنابل.

يجب أن تطرح كل هذه الأرقام للمناقشة، فهى تستدعي بحوثا تاريخية عميقية، وما يجب استبعاده هنا هو وضع عقيدة غير قابلة للمساس أمام هذه البحوث. وخاصة فيما يتعلق بالبحث فى صحة

عدد الستة ملايين يهودي الذين أبيدوا، والذي هو غير قابل للتصديق على كل الفرض.

الطريقة الثانية الأكثر مباشرة للتحقق من صحة العدد، هي الطريقة التي أوصى بها بولياكوف Poliakov، وهي تقضى بجمع عدد الضحايا في كل معسكر من معسكرات الغاز، ومن المستحيل بهذه الطريقة أن نصل إلى حاصل مجموع ستة ملايين. ولنبدأ بأكثر الاحتمالات بشاعة لعدد القتلى، في أوشفيتز Auschwitz وهو الاحتمال الذي ورد في التقرير السوفيتي بعد التحرير، والذي بموجبه تم تسجيل 4 مليون قتيل عند مدخل المعسكر، وهو العدد الذي اعتمد رسمياً في نورمبرج، بموجب المادة 21 لقوانين المحكمة: «الوثائق والتقارير الرسمية لبعثات التقصي الموفدة من قبل حكومات الحلفاء لها قيمة الدليل الأصلي».

كان يجب أن يمر أربعون عاماً، لتغيير هذا التسجيل: ذلك أن أفراد البعثة العلمية كافة كانوا يرون «أن الرقم 4 ملايين هذا لا يستند إلى أي أساس جاد يمكن الوثوق به» بحسب عبارة السيد بيداريда Bedarrida المدير الحالي لمعهد التاريخ والزمن في مركز البحوث الوطنية الفرنسية C.N.R.S.

فإذا ما طالعنا أحدث البحوث والإحصائيات الموثوقة بها، مثل البحث المقدم من راؤل هيلبورج Raoul Hillberg في كتابه تدمير يهود أوروبا La Destruction des juifs d'Europe الصادر عن دار فايار Fayard 1988، لوصلنا إلى مليون قتيل فقط في أوشفيتز Auschwitz.

لقد تحول التسجيل التذكاري إلى نتيجة. والأكثر غرابة هو أن حاصل مجموع الضحايا (وفق الطريقة التي أوصى بها بولياكوف)

يظل دائمًا ٦ مليون قتيل في غرف الغاز، حتى بعد طرح ٣ ملايين من ٤ مليون يهودي (*).

ونستطيع أن نستنتج، دون أن نغير حاصل الرقم النهائي، أنه عند المراجعة تبدو أعداد القتلى من اليهود بالنسبة لجميع المعسكرات أقل.

فمثلاً كم قتيلاً يوجد في ميدانيك Majdanek؟

- مليون و ١٠٠ ألف قتيل بحسب لوسي داويدوفريز Lucy Dawi
The War dovriez
.against the jews ; Penguin books; 1987 p 191

- ٣٠٠ ألف قتيل بحسب لياروش وإبرهارد چايكل Lea Rosh et Eberhard Jaeckel ; Der Iod ist Meister im Dritten Reich ;
Ed .Hoffmann und Camp ; 1991; p217

- ٥٠٠ ألف قتيل بحسب رول هيلبرج Raul Hilberg (op cit).
السؤال إذن الذي يطرح نفسه هو: أليس المقصود هنا هو الدعاية للنازيين الجدد (أو لحزب اليمين المتطرف في فرنسا) أكثر من إرادة التتحقق من هذه الحجة؟ «إذا كان الكل يكذب فيما يتعلق بقضية عدد الضحايا اليهود، فلماذا لا يبالغون في جرائم هتلر؟».

إننا لا نكافح هنا من أجل التقليل من شأن جرائم النازية البشعة استناداً إلى أكاذيب التقوى، ولكننا نؤمن بأن الكشف عن الحقيقة هو أفضل طريقة لمقاومة البربرية .

(*) أوشقىتس: معسكر في بولندا، زعم اليهود إعدام ٤ ملايين بالغاز في غرفه الثلاث. ثم هبط الرقم إلى مليون؛ أي بعد هبوط ضحايا أوشقىتس من ٤ مليون إلى مليون، يظل ضحايا النازي ٦ ملايين. (الناشر)

وفي الواقع ، يبدو الرقم نفسه ذات أهمية ضئيلة . فكما قلت مرتين من قبل في ص ١٥٩ وص ٢٤٧ في كتابي ، إنه ما من أحد يقتل أحداً سبب دينه أو انتمامه العرقي ، سواء أكان يهودياً (أو غير يهودي) ، إلا وكان مرتكباً بجريمة ضد الإنسانية ، في كل الأحوال .

ولكن ما هو جريمة بالفعل ، هو استغلال هذا الرقم وتقديسه . فهذا الرقم يظهر في الكتب المدرسية والموسوعات ، وهو مذكور بصفة دورية في وسائل الإعلام والتليفيزيون لأخفاء الجرائم الأحدث .

الأمر يتعلق فعلاً بتقديس ، لعقيدة ، لتابو ، ذلك أنه ما من مؤرخ يشعر بالقلق إذا حاول تقدير عدد الهنود القتلى في أثناء الغزو الأمريكي من قبل الفاتحين الغربيين .

وقد قدر بعض المؤرخين عدد القتلى من الهند بـ ٨٠ مليوناً ، والبعض الآخر ٢٨ مليوناً ، ويبدو أن الإجماع العلمي يدور حول ٥٧ مليون قتيل هندي .

كما أن لكل مؤرخ الحق في أن يحسب بطرق مختلفة عدد قتلى تجارة العبيد السود . وقد جمع الرئيس سنجور Senghor^(*) مجمل البحوث حول هذه القضية ، وتوصل إلى هذه النتيجة : لقد نفى حوالي من ١٠ إلى ٢٠ مليون عبداً سود إلى أمريكا ، ويبدو أنه عند كل محاولة للإمساك بوحد منهم كان يموت حوالي عشرة أفراد ، هذا علاوة على الخسائر الرهيبة في الأرواح التي تسببت عن مشاق نقلهم إلى أمريكا . نستطيع إذن أن نقدر أن تجارة العبيد قد تكلفت حياة ١٠٠

(*) منجور : رئيس السنغال المنتخب عام ١٩٦٠ وهو شاعر ورجل ثقافة ، عمل على تدعيم القيم الثقافية الإفريقية . وقد اعتزل الرئاسة عام ١٩٨١ ليعقبه الرئيس عبد الله ضيوف .

أو ٢٠٠ مليون إفريقي . ومع ذلك يمكن لنا أن نعدل هذا الرقم الذي يشمل ما يمكن أن يكون أكبر إبادة جماعية لشعب ما عرفها التاريخ . ولكن إذا تعلق الأمر بستة المليون يهودي ، وأيا كانت طريقة الحساب والاكتشافات المتواترة ، فمن المحظور تحت طائلة النفي ، والتهديد بالموت ، والمتابعة القانونية ، والتشهير الإعلامي ، أن يتم تغيير ولو رقم في خانة الأحاداد في هذا العدد .

الكلمة الأخيرة في كتاب بريساك Pressac ، d'Auschwitz 1995 «معسكرات الغاز في أوشفيتز» أن الحساب الختامي لضحايا أوشفيتز هو ٨٠٠ ألف (p149) ، وذلك بعد مؤتمر قانسي Wannsee الذي تقرر فيه أنه لم يتم إبادة اليهود ولكن استبعادهم ، وبذلك ألغيت شهادة هوس Hoes حاكم أوشفيتز .

فلسفة للوجود أم فلسفة للفعل ؟

لقد قلنا من قبل بأى معنى كان أو جست كونت قد وقع شهادة موت الفلسفة .

إن التركيب العظيم للفكر الغربي ، والذى وصل إلى أوجه مع هيجل (*) ، قد خط - فى الواقع - نهاية الفلسفة .

فبعد هيجل كان يجب على أساتذة الفلسفة فى الغرب الخروج من هذه الدائرة السعيدة ، فالبعض مثل كيركجارد (**) أعطوا

(*) هيجل : (1770 - 1831) فيلسوف ألماني مثالى ، أسس المنهج الجدلى الذى يرى أن الجديد يولد من الصراع بين المتناقضات ، وعن فلسفته ولدت الفلسفة الماركسية .

(**) كيركجارد : فيلسوف دنماركي (1813 - 1885) عارض الفلسفة الهيجلية بفلسفته الوجودية المسيحية .

انطلاقـة جديدة للاهوـت عـندما يـبنوا أن الإيمـان يـنتمـي إـلى مـجال السـؤـال وليـس مـجال الإـجـابة .

وآخرون مثل ماركس أنزلوا الفلسفة إلى الأرض، مروراً بفلسفة الوجود وفلسفة الفعل، ليفتحوا مجالات جديدة لفكرة بعينه، فكر هو الذي سيشعل (الحماسة أو الكراهة) لدى ملايين الرجال والنساء (مع أو ضد) المنهج الماركسي الذي يبحث على المبادرة التاريخية.

يقلب نيتشه^(*) - في النهاية - الأصنام التقليدية للثانية الغربية
رأسا على عقب: الخير والشر، الوجود واللاوجود، الصحيح
والخطأ. ويضى هذا الشاعر النبي إلى ما هو أبعد من هذه
الثانية ليطلق سراح الحياة: « فعل الإبداع و التهيس و التجاوز ». (Notes et aphorismes)

وعندما حطم نيتشه كل الأصنام اليهودية والهيلينية «عرف في سocrates وأفلاطون أعراض الانحطاط» (Le Gai Savoir; I; 1) وتجرا على التصریح بأن اليهودية قد تم إصلاحها على يد القديس بولس، لتسود على مدى عشرين قرنا من الزمان: «فالعهد الجديد ليس إلا الطائر أبو زريق اليهودي وقد تزيا بریش الطاووس اليونانی» (René Girard).

هذه هي مسيحية بولس، «المسيحية - كما يقول نيتشه - هي ما أداه المسيح» (Note et aphorisme) المسيح الذي يدعوه نيتشه «بالرسول السعيد بالبشرية الجديدة، والذى مات ليبين لنا كيف نحيا». (L'Antéchrist : p3)

(*) نیتشه: فیلسوف آلمانی (۱۸۴۴ - ۱۹۰۰) تأثیر بفلسفة شوپنهاور. و هو يرى أن الوجود في حالة إبداع دائم.

من أجل تدشين هذا التجديد، كان يجب على نيته أن يعلو على الفلسفة الغربية إذ يقول: «ولى في ذلك رواد سابقون هم ثادنتا (*) و هي اقلية طبعاً (**). (Notes et aphorisme) Vedanta

فماذا كانت الفلسفة الغربية خارج إطار هؤلاء العمالقة؟

إن كتاب «حساء من أجل القطط» La bouillie pour les chats لفيكتور كوسان Victor Coussin هو الرمز الذي يلخص هذه الفلسفة. ثم نجد بعد ذلك هذه النماذج الفكرية التي لا تتجاوز الحى اللاتينى، مع فلسفة الروح عند: هاملين Hamelin (*****)، وبرونشفيج Brunshvicg (*****)، ودى لافال De Lavelle (*****)، ولو سين Le Senne (*****)، الفكر فى هذه النماذج ينفصل عن

(*) فادنتا: نظام فلسفى ينسب إلى الهند البراهمة، مؤسس على نصوص الأوينشاد الصوفية، وعلى القوانين التى وضعها له الحكيم الهندوسى ستكارا فى نهاية القرن الثامن الميلادى وبداية القرن التاسع.

هيراقلطس: فيلسوف يونانى فى القرن الخامس ق.م. وترتكز نظريته الفلسفية على التغيير الدائم فى الوجود، وعبارته الشهيرة: «إننا لا ننزل إلى نفس النهر مررتين».^(**)

(****) هاملين: فيلسوف فرنسي (١٨٠٦-١٨٥٦) أثرت فلسفته الروحية في مدرسة النقد الجديد.

برونشتيغ: فيلسوف فرنسي (١٨٦٩ - ١٩٤٤) فلسفته المثالية مؤسسة على التحليل الرياضي .
*****)

(*****) لاثال: فيلسوف فرنسي (١٨٨٣ - ١٩٥١) يهتم بالجانب الروحي في الإنسان ويدور التسامي الإلهي في إخراج الإنسان من عزلته الوجودية ومن أعماله «خطأ نرسيس».

*****) روبير لوسين: فيلسوف فرنسي (١٨٨٢ - ١٩٥٤) من أشهر أعماله:
«مقالة في علم الطباع» وقد أسس بهذا الكتاب «علم الطباع»، وهو علم
يدرس الطبع من حيث هو مجموعة من الاستعدادات الفطرية التي تشكل
الهيكل النفسي للإنسان.

الحياة، عن عالم «أكل العيش» كما يقول هوميروس، ليصبح الفكر هو «تاريخ خضوع الإنسان» كما يقول جيل ديلوز (Giles Deleuze)^(*)، أو تاريخ الثورات العاجزة: «فأنت لست إلا تجريدًا للثائر»، كما كان سارتر Sartre^(**) يقول مخاطباً كامو Camus^(***)، ولكن أكان سارتر شيئاً آخر غير هذا؟

الفلسفة في العالم المعاصر هي من ألعاب التسلية للمتخصصين المتميزين، هي الألعاب البهلوانية اللغوية. فالمفكرون بعيدون عن المشكلات الحياتية اليومية، وعن حركات حياة الشعوب، بقدر بعدهم عن الأزياء الراقية أولعبة بنك الحظ monopoly.

ولنضرب مثلاً نموذجياً على دور هذه الفلسفة، عند أكثر هؤلاء الحواة اعتدالاً وشهرة في وسائل الإعلام. إنهم مشعوذو الواقع:

في عام ١٩٤٣، وفي غمار العاصفة النازية الدامية، كان سارتر يلعب «البينج بونج» في كتابه «الوجود والعدم»، مسالماً إلى الحد الذي مر كتابه أمام الرقيب الديكتاتوري دون أن ينفع إزاهه^(١٨). هذه مرة أخرى ينغلق فيها الكاتب على الوجود، فلا يستطيع الحرية إلا بوصفها تصدعاً في هذا الوجود، الأكثر اعتباطية من فلسفة أبيقور، ومن فلسفة انحراف الذرات وسقوطها في الفراغ.

(*) ديلوز: فيلسوف فرنسي (١٩٢٥) يرى أن العقلانية تعوق الحرية وله دراسات عديدة عن نيتشه وبرجمون و«منطق المعنى».

(**) سارتر: فيلسوف فرنسي (١٩٠٥ - ١٩٨٠) وعلم من أعلام الفلسفة الوجودية. من أهم مؤلفاته: الوجود والعدم، والوجودية مذهب إنساني.

(***) كامو: كاتب فرنسي ولد في الجزائر عام ١٩١٣ وتوفي عام ١٩٦٠ من أهم أعماله: رواية الغريب، وأسطورة سيزيف.

إن الحرية التي يؤمن بها سارتر على هذا النحو لا تستطيع أن تكون إلا حرية سلبية: «إنها القدرة على أن تقول «لا» دون أن تكون لديك القدرة على الإبداع». والخلاصة لديه كانت واضحة: «الحياة نوع من الشغف غير المجدى»، كما كتب في الصفحات الأخيرة من «الوجود والعدم».

لقد كان هذا في الوقت الذي كان القسيس بونهوفر Bonhoeffer(*) محبوساً في سجون الجستابو Gestapo ، بتهمة الاشتراك في مؤامرة ضد هتلر. كان القسيس بونهوفر يتذكر في الحياة والكفاح الحى ، كان يعارض التصدى والخضوع ، لا المفاهيم الميتة لكتاب «الوجود والعدم» أو لكتاب «الوجود والزمان» لهيدجر (**)، وذلك قبل أن يقتل على يد النازيين .

وكثيراً ما كنت أتسبب في غضب سارتر في أثناء محادثاتي الودية معه ، فقد قلت له مرة : «إنى لم أجده شيئاً إيجابياً في فلسفتك ، لم أكن قد قرأتة من قبل عند فيخته (Fichte) (***) . والفارق بينكما أن فيخته كان قد قطع علاقته بالوجود وبادر لوضع فلسفة للفعل ، فهو يعرف ضرورة مسلماته واستحاله البرهنة عليها في نفس الوقت».

ونستطيع أن نقول مثل هذا عن هيدجر ، في ألمانيا ، وفي نفس الحقبة ، إذ جعل من نفسه راعياً للوجود ، واستمر في غزل «الوجود

(*) بونهوفر: رجل لاهوت ألماني. ومثل روح مقاومة أبدتها الكنيسة البروتستانتية ضد النازى مما كلّفه الحكم عليه بالإعدام عام ١٩٤٥.

(**) هيدجر: فيلسوف ألماني (١٨٨٩ - ١٩٧٦). اهتم بشكّلة الوجود، وتحليل اللغة الشعرية كتجلي للوجود.

(***) فيخته: فيلسوف ألماني (١٧٦٢ - ١٨١٤) كانت الحرية مبحثه الأثير. وبذلك عُد من رواد الفلسفة الحديثة. أهم كتابه «نظريّة العلم» ويقصد به علم الفلسفة.

والزمان» في مكتبه الرئاسي الآمن في المقاطعة، بآمن من الوجود الواقعي الذي كان هتلريا في ذلك الحين، ومن الزمن الواقعي زمن معسكرات الموت في وقت الحرب.

أهون مما يستحق العناء أن نذكر آخرين، دون أن نبين عن نقطة وصولهم المشتركة: إنهم يخلطون بين غاية فلسفتهم وغاية الإنسان. والمثال النموذجي على هذا هو التوسيير Althusser^(*)، لأنه يعرض للماركسيّة وهي الفكر الأكثر حيوية في قلب الجماهير، دون أن يصل إلى جذور هذه الفلسفة. فهو لا يتتجاوز في فلسفته حدود شارع الألما في باريس، وحدود دائرة مريديه في الحى اللاتيني. ولا يعني هذا الانتقاد من موهبة التوسيير الشخصية والمهنية، ولكن لأنّه يعكس روحًا يائساً من الزمن، ويطبق بنوية جافة، قاد تلاميذه إلى الظن «بأنّ الإنسان هو عروسة خشبية متخرّكة تتحكم فيها الأبنية».

ويصل ميشيل فوكو Michel Foucaut^(**) إلى نفس النتائج، إلا وهي موت الإنسان.

وأساتذنا في الفلسفة يتبعون نفس الموضة، ويكمّلون نفس التقليد الوقور لهؤلاء الحكماء^(***).

(*) التوسيير: فيلسوف فرنسي (1918 - 1990) خصص مباحثه في دراسة الماركسية وميز بين أعمال ماركس الشاب المتاثر بهيجل، وماركس الناضج الذي وضع فلسفته الماركسيّة، كما أظهر الدولة بوصفها جهازاً أيديولوجيَا، هي ومتّفّ مؤسساتها.

(**) فوكو: فيلسوف فرنسي (1926 - 1984) من أهم مؤلفاته «تاريخ الجنون» و«أركيولوجيا المعرفة» و«الكلمات والأشياء» و«تاريخ الجنس».

(***) بالمعنى الذي نطلقه على الطفل المؤدب المطيع. وكلمة Sage بالفرنسية تعنى الحكيم، وتعنى المؤدب المطيع.

في الفصول والمدرجات الجامعية التي يعزل فيها هؤلاء الأساتذة طلابهم عن ضجيج الشارع وعن زلازل الشعوب، يبدو الفكر الأحادي (أى غياب التفكير النابع مما هو صحيح سياسياً) متجاهلاً النظريات الرامية إلى الحفاظ على الوضع العالمي على ما هو عليه *quo universel*، فأصحاب الأيديولوجيات في الپتاجون مثل فوكوياما^(*)، يرون نهاية التاريخ في الانتصار العالمي لما لا يجترئ على ذكر اسمه، ويختفي خلف كل العلاقات الاجتماعية، ألا وهو «وحدةانية السوق».

باحث آخر أقل تفاؤلاً، وأقل شهرة هو هانتجتون، الذي يريد هو أيضاً تكريس التاريخ في مواجهة أبدية بين حضارة يهودية مسيحية وبين تحالف إسلامي كونفوشى.

هاهي ذى تنوعات أخرى على موت الإنسان، ولكن مثل هذه النظريات لا نقبل على نقدها هي الأخرى، لأنها تقترب من أرض الناس ومن صراعاتهم الواقعية، بحيث يبدو للفلسفة التي تدرس بالجامعة، أن مجرد الاقتراب منها يؤذيها.

ومن الأفضل أن تتحدث عن ميرلو بونتي Merlau Ponty^(**)، كما هو الحال بالنسبة للمدعين، عندما يضعون في مكان بارز في

(*) فوكوياما: أمريكي من أصل ياباني ألف كتاباً بعنوان: «نهاية التاريخ» يرى فيه أن الرأسمالية الغربية هي الشكل الأمثل الذي يصل به التاريخ إلى نهايته.

(**) ميرلو بونتي: فيلسوف وعالم نفس فرنسي معاصر، رد الاعتبار لرمزية الجسد، ويجد أن إيحاءاته أسبق في التعبير من اللغة.

مكتبيتهم «كتابات» لakan^(*)، التي لا يقرءونها، والتي يدور حولها الجدل بين المحللين النفسيين الذين هم على الموضة هذه الأيام (أى هؤلاء الذين يحاولون إدماج المنحرفين في عالم مشوه ومشوه) أكثر مما يعملون (كما هو حال واحد منهم هو إيريك فروم Erich Fromm) على تغيير هذا العالم حتى نستطيع أن نعيش بطريقة طبيعية وخلاقة، من أجل الإنسان.

وقد يضيف آخرون كتاب «الضرورة والمصادفة» لچاك مونو Jacques Monod عن الإنزيات ، أو عن تطبيقات علم السبرنطيقا^(**) على ظاهرة الخلايا ، والتي قدم فيها چاك مونو مساهمة بارزة ، ولكن من أجل أن يتعلموا شيئاً من الصفحات الأخيرة للكتاب التي يسخر فيها مونو ، خالطاً الحابل بالنابل ، من كارل ماركس ومن الأب تييار دى شارдан Teilhard De chardin^(***) ، والذي يبدو أنه لم يقرأهما قط بجدية .

(*) لakan: (1901 - 1981) محلل نفسي فرنسي ، أعاد قراءة فرويد واستخلص نظريات جديدة في تحليل النفس واللغة. من أشهر كتبه «كتابات» التي نشرت عام 1966.

(**) علم السبرنطيقa Cybernétique: هو العلم الخاص بمجموع نظريات المعلومات والاتصالات وبناهج ضبط النشاط المعلوماتي (الخاص بالأجهزة أو بمناخ الإنسان) وقد ولد هذا العلم عام 1947.

(***) دى شاردان: (1881 - 1955) فيلسوف يسوعي فرنسي ، شارك في الحفريات التي قمت في بكين في عام 1929 ، وفي شغفه الدائم بالبحث عن أصل الإنسان حاول التوفيق بين نتائج العلم الحديث وتعاليم الدين المسيحي. ووُجد في الدرة المادية طاقة روحية تزوج طاقتها الفيزيائية. ولم تنشر أعماله ، وأهمها: «الظاهرة الإنسانية» ، إلا بعد وفاته في عام 1956.

يجب أن أضيف حتى أكون عادلاً - أن هذا التدهور للفلسفة ليس حكراً على الغرب الأوروبي - ففي الحقبة التي كنت فيها في الاتحاد السوفييتي شخصاً ذا اعتبار *persona grata* كقائد شيعي فرنسي مسئول عن الترجمة الفرنسية للأعمال الكاملة للينين، وكأستاذ في أكاديمية العلوم في روسيا - في نفس الوقت، كان هناك اعتداد في أكاديمية العلوم برأيي في أربع مناسبات: المناسبة الأولى عندما حاولت أن أجعل ترجمة الآراء المادحة له يجل قريبة من الفكر الفلسفى للينين. المناسبة الثانية عندما حصلت على إذن النشر مع مقدمة طويلة بيدي لكتاب «الظاهرة الإنسانية» للأب تييار دى شرдан (وقد أصبحت بذلك راعياً لأول يسوعي ينشر له شيء بالروسية منذ الثورة). المناسبة الثالثة، كانت حين حصلت على موافقة على أن تدمج بالنشرة الروسية الجديدة لأعمال ماركس مخطوطات ماركس لعام 1844 والتي تحتوى على جوهر فلسفته، وعلى نظريته الخاصة بالاغتراب. المناسبة الرابعة، عندما علمت فى دهشة بترجمة كتابى «واقعية بلا ضفاف» إلى اللغة الروسية. وكان هذا الكتاب يعارض فى وضوح الواقعية الاشتراكية . وفي الواقع كان الشاعر أراجون Aragon هو الذى مدح كتابى فى موسكو ، وأضاف أن هذا الكتاب لم يقرأه فى روسيا إلا العلماء ، وبذلك استلقت انتباھي حين قدم إلى نسخة مكتوبًا على غلافها «للمكتبات العلمية فقط» (إنه

(*) أراجون: كاتب وشاعر فرنسي (1897 - 1982) يتبع إلى جماعة السيراليون وعضو في الحزب الشيوعي الفرنسي، حارب الشكل التقليدي في كتابة الأدب، ومن أشهر أعماله الأدبية تلك التي خلدت قصة حبه لشريكة حياته إليزا.

نوع من التحذير شبيه بما عندنا من تحذير من بعض الأفلام لأقل من ١٨ سنة).

* * *

إن الفلسفة بالمعنى الصحيح، أي التفكير في الغايات وفي معنى الحياة، والمشاركة في الفعل لتحقيق هذه الغايات وهذا المعنى، قد خانت رسالتها في الغرب: شرقه وغريبه على السواء.

لقد كانت رسالة الفلسفة من قبل هي رسالة رجال اللاهوت الكبار، الذين جاوزوا عصرهم، من أمثال الكاردينال دوكو، ريمون لول^(*)، يواكيم دي فلور Le Flore; Raymon Lulle; Joachim de Cues^(**)، هؤلاء الذين انتعشت أفكارهم من أثر الاحتكاك بالشرق الصيني الإسلامي الإفريقي عن طريق الإسكندرية.

ومع ذلك فقد شهد القرن العشرون بدأية فلسفة الفعل أولًا مع الكاثوليكي موريس بونديل Maurice Bondel (١٩٤٩-١٨٦١) في بحثه الذي قدمه عام ١٨٩٣ والذى يحمل عنوانًا دالا «الفعل: محاولة لنقد الحياة والعلم التطبيقي» وطرح سؤالًا أساسياً: «ما الذي يجب أن يتغير لنصير أكثر إنسانية؟».

ويتمثل منهج بونديل في بيان أنه ما من طموح أو مشروع جزئي يستطيع أن يرضي مقتضياتنا الأساسية.

(*) ريمون لول: (١٢٣٥-١٣١٥) رجل دين وفيلسوف وكيميائي، أطلق عليه لقب الأستاذ المستنير، قطع كل أوروبا ومنطقة البحر المتوسط للتبشر بال المسيحية.

(**) يواكيم دي فلور: (١١٣٠-١٢٠٢) متصوف إيطالي، يرى وفق نظرية له أن الروح القدس ستسود الكون بعد سيادة المسيح الابن. وقد كانت نظريته هذه عوناً للمعارضين للممارسات الكنسية التقليدية.

وقد أكمل جاستون بيرجي Gaston Berger (١٨٩٦ - ١٩٦٠) عمل بونديل (إذ كان واحداً من المقربين إليه). فبالنسبة لبرجي لم يكن الهدف من علوم المستقبل (*) - التي كان رائداً لها - هو التنبؤ بمستقبل موجود مسبقاً، فالمستقبل ليس قيد الكشف (كما هو الحال بالنسبة للمستقبليات الأمريكية)، حيث لا يكون المستقبل سوى تقدير استقرائي كمى للحاضر، أى احتلال الماضي للمستقبل) ولكن المستقبل هو ما يبدع. فالمشكلة بالنسبة لبرجي لم تكن كيف سيكون العالم في ظرف الخمسين سنة الآتية، ولكن المشكلة هي ما الذي سيترتب في الخمسين سنة الآتية على ما نتخذه اليوم من قرارات؟

وقد كان جاستون باشلار الفضل في النهاية في تبني إپستيمولوجيا (**). غير ديكارتية تميل إلى أن يجعل من البحث العلمي ومن فرضياته المؤسسة له (التحقق التجريبي) حالة خاصة من الإبداع الشعري، وذلك عن طريق تفكيره العميق حول تاريخ العلم في القرن العشرين، وموازاته بتأملاته حول الخيال الشعري.

وياستثناء هؤلاء المفكرين الثلاثة الذين كانوا أكثر المفكرين تجديداً في القرن العشرين ومواصلة للرسالة الأولى للحكمة، ظلت الفلسفة التي تدرس في الجامعات (فيما عدا باشلار) في كل الأحوال مستخفة برسالة الفلسفة، وغريبة عن هدفها الحيوى.

(*) علم المستقبل: هو العلم الذي يدرس الأسباب العلمية والاقتصادية والاجتماعية التي تدفع تطور العلم العصرى والتنبؤ بالأوضاع التي يمكن أن تنتجم عن تأثير هذه الأسباب.

(**) إپستيمولوجيا *épistémologie*: هي مجموع الدراسات التي تعنى بنقد العلم، وتكوين العلم، وشروط المعرفة.

إن الذين يتخدون من الفلسفة مهنة لهم، ينزعون إلى إقصاء عالم الواقع اليومي، من أجل التأمل على مستوى الوجود المجرد.

لقد انفصل الفكر عن الحياة، وصنعت الفلسفة عالماً قائماً بذاته: عالم الوجود، الذي يخلو من حركة الوجود الواقع ومن الوعى به، وهكذا صارت فلسفة الوجود فلسفة للسيطرة وليس فلسفة للتحرر. فلسفة مسالمة بالنسبة للنظام القائم، فهى تشكل جزءاً من زينته ومن أدواته.

وتختص الفلسفة الألمانية الأكثر ثراء من كل الفلسفات الأوروبية بخاصية تميزها: فمن واقع التأثر السياسي الألماني، ومن واقع تفتت ألمانيا إلى مقاطعات صغيرة على غرار النموذج الإقطاعي، لم يستطع المفكرون الألمان الانطلاق من تجربة تاريخية مباشرة، وكان عليهم أن يبحثوا عن قاعدة ما في بلدان وحضارات أخرى.

أما فلسفتنا نحن (في فرنسا) فهى لم تقم قط على تأمل منفرد للنظريات السابقة، وإنما قامت بناء على اختبار ل التاريخ القرن العشرين كله، من خلال انقلاباته السياسية وتحولاته العلمية، ومراجعاته الدينية وبحوثه في الفن. كل هذه التحولات كانت تقتضى من كان لهم الحظ في أن يعيشوا تقريباً لمدة قرن كامل مثلى أنا، تجديداً في التفكير وأسسه.

ويرتبط هذا التفكير الإپستمولوجي بشدة بحياة المؤلف كمشارك فعال، ومناضل من أجل تحولات العلوم والفنون والاقتصاد والدين.

الفصل الرابع
بواسطة تحول للإيمان

ترتبط مشكلات الإيمان والتعليم بعضها ببعض بشكل حميم، ذلك أن كلاً منها تطرح قضية الغايات الأخيرة للإنسان، وينطبق هذا الأمر على كل حضارات العالم.

ولكي نضع هذه المشكلات في إطارها الإنساني المتسع، يجب أولاً بالنسبة لنا نحن الغربيين، أن نتخلى عن هذا الحكم المسبق، والذي بوجبه يجب أن أن تقوم أوروبا - وهي شبه جزيرة آسيوية - بدور مركزي، إن لم يكن دوراً فريداً في التاريخ.

أولاً: ما هي أوروبا هذه التي تقع على قمة تطور خطى يتد من الإنسان البدائى وحتى الإنسان الذى يمشى فوق القمر؟

وتطالب أوروبا هذه بأن تكون هي التعبير عن الدين الوحدى الحق، وأن تسمح هي وحدها بمقاربة الإله الحقيقى، أما الآخرون فهم ليسوا إلا وثنين أو كفاراً، ولكن ماذا صنع هذا الدين بأوروبا؟ أوروبا القرن الخامس عشر، أوروبا قسطنطين وريث السلطة الرومانية، مؤسس القسطنطينية، أى وحدة الكنيسة والسلطة الحاكمة. التي استخدمت السلطة السياسية لاضطهاد كل مارق عليها بوصفه كافراً.

إنها أوروبا التي لم تلغ أبداً الرق، وأكثر من ذلك صبغته بأشكال جديدة مع استعبادها للهندو والسود.

إنها أوروبا الحروب الصليبية، تلك التي كان القديس برنار يعظ فيها فيقول: «الذى يقتل مسلما لا يقتل إنسانا وإنما يقتل الشر»، والتي كانت فى طريق حملاتها الصليبية تذبح يهود أوروبا وتسلب مسيحيي بيزنطة، انتظارا للذبح المسلمين، ثم المتنميين إلى المانوية من بعد.

إنها أوروبا التى مزقت القارة بحروبها الدينية منذ محاكم التفتيش وحتى معركة سان بارثلماوس^(*) (Saint Barthélémy) (بين الكاثوليك والپروتستانت) والدراجوناد *et les dragonnades*.

إنها أوروبا البابا الذى قسمت أمريكا ما بين إسبانيا والبرتغال فى اتفاقية تورديسيلاس Tordesillas فى عام ١٤٩٣ ، وباركت إبادة الهنود، وأشاعت فى العالم كله حملاتها الاستعمارية، وكأنها عملية تبشير مسيحى .

تلك هى أوروبا التى أيدت هتلر فى حربه الكبرى ضد الشيوعية فى الحرب العالمية الثانية، فى مؤتمر كاتدرائية فولدا بالمانيا *épiscopale de fulda* والتى طالبت الشعب资料ى بالتعاون — بلاشروط — مع القائد الذى وهبهم الله إياه!

تلك هى أوروبا التى فى غداة حرب — وقف إزاءها ذوو المراتب العليا عاجزين — تنكرت للشيوعية بوصفها انحرافا جوهريا، ولم تُدْنِ إلا أشكال المغالاة فى الرأسمالية.

تلك التى ظلت خرساء أمام هيرشيم، وتفوهت بكلمات ضبابية إزاء كل ظلم بصفة عامة، وهى تدح پينوشيه Pinochet فى ذات

(*) انظر هامش صفحة ١٧٩ .

اللحظة التي تدين فيها لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية، أوروبا التي فصلت الأب بالاسوريا Balasurya عن الجماعة المسيحية لأنه أدان بقوة البوس في جنوب شرقى المحيط الهادى فى ذات اللحظة التي تعلى فيها من قيم البوذية! إنها أوروبا التي نشرت فى عام ١٩٩٢ تعاليم الدين المسيحى التى لا تنصل على أى إدانة لعقوبة الإعدام أو لمبدأ الحرب، وكان ذلك فى زمان سحقها للعراق، وعودة إسرائيل إلى تبني سياسة المستوطنات اليهودية فى فلسطين، وهو مالم يثر أي معارضة من قبل القاتيكان.

عن أى أوروبا وأى مسيحية نتحدث؟

هل نتحدث طوعية عن أوروبا التي شيدت الكاتدرائيات لتصل عن طريق تحالف ثلاثة ديمقراطيين مسيحيين ذائع الصيت هم أديناور^(*) Adenauer، ودى جاسبيري De Gasperi، وشومان^(**) Schumann، إلى تكوين اتحاد الفحم والصلب، الذى قادها إلى الاتحاد الأوروبي، وهو إنجاز لا نستطيع أن ننكر روحانيته! وهذا الغرب ومسيحيته، لا نستطيع أبداً إذا حاكمنا تاريخه إلا أن

(*) أديناور: (١٨٧٦ - ١٩٦٧) رجل سياسة ألمانى، وعضو مؤسس للحزب المسيحى الديمقراطي، وداع إلى أوروبا الموحدة وللمصالحة مع فرنسا، ووقع وفقاً لذلك معاهدة باريس عام ١٩٦٣.

(**) دى جاسبيري: (١٨٨١ - ١٩٥٤) سياسى إيطالى - زعيم الحزب المسيحى الديمقراطي ورئيس للدولة من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٥٣.

(***) شومان (روبير): (١٨٨٦ - ١٩٨٦) رجل سياسة فرنسي، تولى الوزارة عدة مرات، عضو الحزب المسيحى الديمقراطي، رئيس البرلمان الأوروبي من عام ١٩٥٨ إلى عام ١٩٦٠.

نعرفه كمشروع للسيطرة العالمية، المادية والروحية فيه غير قابلة للانقسام.

أين المسيح في كل ذلك؟ وكل هؤلاء الذين اختاروا سبيله على الرغم من كل خيانات المؤسسة؟

أين مكان المسيح من منابر البابوية العظمى؟

على عرش الملك البابا الأعظم (الوارث للكائن الأعلى للإمبراطورية الرومانية) أو تحت الملحقة القرمزية للقاوسنة أصحاب الرتب العالية؟

لقد كان ظهور المسيح - في الواقع - هي اللحظة التي انفتحت فيها طاقة رائعة في تاريخ البشر والآلهة: إنه المسيح الذي عَدَهُ البشر أفضلي بمِرْ لِكْمَالِ الإلهي . إنه أكثرهم ضعفاً وتجداً من المال . وما من شيء في الماضي اليهودي أو اليوناني كان ينبي مثل هذا التحول الجذري لفكرة الإنسان عن الإله: فالمسيح ليس ابنَ زيوس ولا لِيهُوه ولا لأي إله قادر^(١٩).

فمع المسيح لم يعد التعبير عن التعالي الإلهي يتم بكلمات خارجية أو سلطوية. القطيعة هنا كانت جذرية . قطيعة مع إله الأسلحة زيوس الذي يلوح بسيفه في مهارة صاعقة . منذ مجىء المسيح لم يعد التعالي ، والتجاوز للإنساني يتصور وفق سلطة الحكام المقتدرین ، الذين يحكمون من أعلى السموات أو من على قمة جبل الأوليمب ، على أفعال البشر ، يهبونهم النصر أو يلحقون بهم الهزيمة ، ليصلحوا أمرهم أو يهذبوهم . إنما هو المسيح الذي عاش أبسط حياة البشر ، بلا جاه ولا مال - فقد مات أبسط ميّة ، ميّة العبيد المتمردين ، فهؤلاء وحدهم كانوا يسمرون على الصليب .

منذ القديس بولس وحتى تعاليم الدين المسيحي التي صدرت عام ١٩٩٢ ظل نجاح الناصرة مكلاً كسيد وملك . ولكن أى سيد وأى ملك؟ إنه وريث وسليل داود الذى تقدمه لنا أسفار صمويل والملوك (وهي المصادر الوحيدة التى نعتمد عليها لمعرفة سيرة داود) على أنه جندي مرتزق يعيش مع عصابته على نهب وقتل ، اليهود أو أعدائهم ، وبلغت به الشناعة أنه شجع على قتل أحد جنوده ليستولى على زوجته ، ويجعل منها أمًا لابنه الملك سليمان . وهكذا يجد المسيح تابعاً لهذه الشخصية الكريهة وحياتها التي كانت مضادة تماماً لحياة المسيح ، منذ القديس بولس وحتى تعاليم الدين المسيحي في عام ١٩٩٢ .

ومثله مثل جده الملحمي ، سوف يضع المسيح كل أمراء الأرض عند أقدامه . (الرسالة الأولى إلى كورنثوس ١٥ : ٢٥).

لأن مسيح بولس يعود إلى القانون الذي يقضى طبقاً للقانون «تاليون» (Talion) : قانون «العين بالعين» ، إنه مسيح الله الذي يشار ويجد العدل في «رد الإيذاء بالإيذاء» (الرسالة الأولى إلى提摩太وس) .

ويقدم بولس دليلاً تاريخياً على قدرة الله يتمثل في أنه بعدما قضى على سبعة دول من بلاد كنعان ، وزع أراضيهم كميراث (أعمال الرسل ١٣ : ١٩) .

إنها الفقرة الوحيدة في الأنجليل التي ترد فيها هذه المذابح بوصفها علامات على عنایة الله . ومنذ ذلك الحين أسس لاهوت بولس - تحت اسم المسيحية - لاهوتاً للسيطرة .

ومنذ أن أصبح يسوع هو يسوع المسيح، أصبح مثله مثل الآلهة القدامي ، يشار كهم السلطة . هذه سيرة جديدة للمسيح كتبت بناء على العهد القديم : فهو ليس إلا منفذًا مطيناً لسيناريو مكتوب من قبل القدماء ، إذ نجد في الكتاب المقدس ما يفيد أنه : يجب أن يتم كل ما كان مكتوباً في توراة موسى والرسل والمزامير ، (إنجيل لوقا ٤٤ : ٤٤) .

ولست أحييد عما تنبأ به موسى والأنبياء (أعمال الرسل XXVI; 22).

الحياة الخاصة ليسوع لن تكشف لنا إذن عن شيء جديد !

سوف تبني على هذه القاعدة النظرية - ولمدة سبعة عشر قرنا - يهودية معدلة ، هي موضع مراجعة من خلال الفلسفة اليونانية . في بعض الأحيان تلتقي فلسفة أفلاطون مع القديس أغسطين ، وفي أحيان أخرى تلتقي فلسفة أرسطو مع القديس توما الأكويني . وما نطلق عليه الحضارة اليهودية المسيحية هو في الواقع ميراث لتربية هرمية وأبنية النظام الملكي للإمبراطورية الرومانية والإرادة السلطانية لديها .

لقد كان القديس بولس أيضاً رائد هذه اللغة المزدوجة ، مما جعله مثلاً يعلن في روعة ما يفيد أنه : لا فرق بين اليهودي واليوناني لأن للجميع ربّا واحداً . (رسالة إلى مؤمني روما ١٠ : ١٢) لا فرق بعد الآن بين يهودي ويوناني أو عبد وحر أو ذكر وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح . (رسالة إلى مؤمني غلاطية ٣ : ٢٨) ولكن هذه العبارة الرائعة كانت تتناقض وتعاليمه العملية .

أكان الأمر فعلاً يتعلّق بأنّه لم يعد هناك لا يوناني ولا يهودي؟ لا يلبيث هذا النفي الجذري أن يعطى الأولوية لليهودي، إذ نجد في الكتاب المقدّس ما يفيد أن: الله يخلص اليهودي أولاً ثم اليوناني من بعد (رسالة إلى مؤمني رومية ١ : ١٦) وذلك على شرط أن يقبل اليوناني عقيدة اليهودي في الله، وأن يقبل إصلاح بولس الذي جعل من المسيح خلاصة التاريخ اليهودي، ومؤسس إسرائيل الحقيقية أو الجزء الحقيقى الباقي منها (رسالة إلى مؤمني رومية ٥ : ١١).

أكان الأمر فعلاً يتعلّق بتحرير العبيد؟

ونقرأ في الكتاب المقدّس ما معناه: فليبق كل واحد على الحال التي كان عليها حين دعاه الله. أكنت عبداً حين دعيت؟ فلا يهمك ذلك. (رسالة إلى مؤمني كورنثوس ٧ : ٢٠ - ٢١).

أيها العبيد، أطيعوا سادتكم البشريين بخوف وارتّعاد، من قلب صادق كمن يطيع المسيح، (رسالة إلى مؤمني أفسس ٦ : ٥). ونجد أيضاً ما يفيد ما يلى: وعلم العبيد أن يكونوا خاضعين لسادتهم مرضين لهم في كل شيء غير معاندين. (رسالة إلى تيطس ٢ : ٩). وفيما يتعلّق بالنساء، كان هناك إلزام بالخضوع نفسه، بل وعلى نحو متكرر، إذ نجد مثلاً:

لأن الرجل عليه ألا يغطى رأسه باعتباره صورة الله ومجلده، وأما المرأة فهي مجد الرجل فإن الرجل لم يؤخذ من المرأة بل المرأة أخذت من الرجل والرجل لم يوجد لأجل المرأة بل المرأة وجدت لأجل الرجل. لذا يجب على المرأة أن تضع على رأسها علامة الخضوع (رسالة إلى مؤمني كورنثوس ١١ : ٧ - ١٠).

من هذا المبدأ اللاهوتى لعدم المساواة ستنتج هذه الممارسة العملية إذ نجد فى الكتاب المقدس ما يفيد : أيها الزوجات اخضعن لأزواجكن كما للرب . (رسالة إلى مؤمنى أفسس ٥ : ٢٢) . ولست أسمح للمرأة أن تعلم ولا تتسلط على الرجل ، بل عليها أن تلزم السكوت . (الرسالة الأولى إلى提摩太 ٢ : ١٢) بكل الخصوص (٢ : ١١) ، تصمت النساء في التجمعات ، (الرسالة الثانية إلى提摩太 ٢ : ١٢) فإذا كانت المرأة لا تغطى رأسها فليقص شعرها . (الرسالة الأولى إلى مؤمنى كورنثوس ١١ : ٦) .

هكذا سوف تتحدث الكنيسة غالبا بلغة المسيح عن « الاختيار الأثير للقراء » مع إدانتها - وفي نفس اللحظة التي تدين فيها المخبرات الأمريكية - هؤلاء الذين مارسو اختياراتهم وعبروا عنها في لاهوت التحرير . وفي الاحتفاليات الشرية للملوك البابويين من ليون العاشر وحتى يوحنا بولس الثاني ، سوف تقرظ الكنيسة الفقر . وسوف تدح في الحاج عفة الحياة وقداستها ، مع أنها ترتكب في تعاليمهما عقوبة الإعدام والحروب العادلة . كما لو كانت الحياة البشرية ليست مقدسة إلا في حالة الجنين ، أو النطفة ، وتكتف عن أن تكون مقدسة عند تحنيد الشباب ، لتتكيف مع هذه السادية الاستعراضية التي تحفل بها مشاهد أحكام الإعدام في أمريكا اللاتينية ، بما تشيره من فرحة هستيرية لدى القراء ، هؤلاء الذين قد تم تطويعهم لأوضاع الفقر التي يعانونها ، وتخديرهم أخلاقياً عبر مشاهد العنف في السينما والتليفزيون .

هذه اللغة المزدوجة تسمح للمؤسسة أن تتواطأ والسلطة في الواقع ، كما تسمح بأن يعيش ملايين المؤمنين بحسب الكلمة

والحياة المقدسة ليسوع وللقديسين من سان فرنسو داسيز François d'Assise^(*) وحتى دوم هيلدر كامارا Dom Helder Camara^(**)، دون أن يتزعزع النظام القائم الذى تمنحه الكنيسة ضمان بقائه بشكل رسمي تارة، أو صامت تارة أخرى.

* * *

قال لى يوما صديقى القس المبشر فى الكاميرون: «إن مأساة المسيحية فى إفريقيا هى أنها تعطى انطباعا بأن الله لم يتجسد فى صورة إنسان، ولكن فى صورة رجل غربى، حتى إن الرجل المسيحى فى إفريقيا لديه شعور بأنه لکى يصبح مسيحيًا يجب أن يكون أيضًا».

هذه المأساة، ليست خاصة بإفريقيا فقط ، ولكنها خاصة بكل البلاد التى عرفت الحضارة الغربية من خلال ثلاثة وجوه: العسكري والبائع والمبشر، الأول يفرض عليها أسلحته، والثانى نموذجه الاقتصادي، والثالث دينه .

دين يدعى مثلاً أنه كاثوليكى ، أى عالمى ، ولكنه فى الواقع رومانى . فما من تاريخ مقدس لديه إلا تاريخ اليهود ، ثم تاريخ المتصررين عليهم من المسيحيين الذين أعلنوا بدورهم نزوعهم لأن يكونوا الشعب المختار المقدر له السيطرة على الآخرين جمیعا .

(*) القديس فرنسو داسيز: (١١٨٢-١٢٢٦) رجل دين إيطالى ، ثرى عاش حياة ملؤها المتعة والرفاھية ، غير أن رؤية صوفية باخته فعاش فقيرًا زاهدًا .

(**) دوم هيلدر كامارا: رجل دين من البرازيل (١٩٤٦-١٩٨٥) عرف بنشاطه الواسع من أجل المضطهدین فى العالم الثالث .

وفي عام ١٩٧٧ ، في ساحل العاج ، وتحت رئاسة المطران ياجو Mgr Yago مطران أبيدجان Abidjan ، عقد مؤتمر في إفريقيا السوداء تحت اسم : الحضارة السوداء والكنيسة الكاثوليكية .

وقد ذكر الأب جان مارك إيلا Jean Marc Ela ، باسم عالمية المسيحية « بأن الثقافة اليهودية - البحر المتوسطية التي نقلت المسيحية ، ليست إلا ثقافة ضمن ثقافات أخرى ، فكاثوليكي ليست مرادفاً لرومانى » .

مثل هذه الرغبة في تحرير الإيمان من النزعة الاستعمارية ، ووضع الثقافة الغربية في إطار نسبي ، لإنقاذ القيم العالمية للمسيحية ، تظهر بقوة في كتاب لرجل يسوعي من الكاميرون هو الأب حجبة Hegba بعنوان : « تحرير الكنائس التي هي تحت الوصاية » ، إذ يقول : « المسيحية ليست دينا غريباً ولكنها دين شرقي ، احتكره الغرب وأسيغ عليه طابعه الذي أصبح من المتعذر محوه ، طابع فلسفته وقانونه وثقافته . وهو يقدم نفسه للأسف بهذه الصورة لمختلف شعوب العالم ، يجب علينا إذن أن نطبع هذا الدين بطابع يتعدد محوه ، لا نرفع فيه قط - الفلسفة الأرسطية التوماوية ، والفكر البروتستانتي الเยermanي أو الأنجلو ساكسوني ، وأشكال الفكر والعادات الغالية (بلاد الغال) واليونانية الرومانية والسويسرية والإسبانية والألمانية ، التي تنصرت إن لم تكن قد تقدست في أوروبا - إلى مقام الوحي الإلهي » .

ويلخص لنا الأب أوسانا Osana نتائج تصريحات الأب زوا Zoa أسقف يواندي : « نحن الورثة الشرعيون للأديان الإفريقية التقليدية التي هيأت الإنسان الإفريقي أكثر من أي فرد آخر لبشرى يسوع المسيح . لقد كان لهذه الأديان دور مماثل للعهد القديم » .

وقد كان هذا هو التزوع الأساسي للاهوت التحرير الذى ينطلق من تجربة «جماعات الأساس» فى أمريكا الجنوبيه، الذين هم فقراء، مصممون على أن يعيشوا دينهم المسيحى، ويرفضون فى نفس الوقت الكنيسة الرومانية التى تُعد كنائس العالم الثالث ملحقات ببعثات التبشير. هذه الكنيسة الرومانية التى تواطأت مع الاستعمار ومع الغزاة، ثم مع كل النظم السياسية القائمة.

إن أخص ما يميز لاهوت التحرير، هو أنه يقلب لاهوت الطريقة الغربية: فبدلاً من استنباط نظرية اجتماعية من بعض آيات الإنجيل (ويتهى الأمر دائماً بالاقتناع بها) لتسوية الفوضى القائمة، مثل النظام السياسى المستمد من الكتاب المقدس عند بوسويه Bossuet (*)، الذى أعطى مسحة إلهية للحكم المطلق للملك لويس الرابع عشر، أو الرسائل البابوية الاجتماعية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين، التى تستنكر تجاوزات الرأسمالية دون أن تدين المبدأ الرأسمالى ذاته، على العكس من ذلك يبدأ لاهوتيو التحرير من الاستقراء وليس من الاستنباط: فهم يصدرون عن واقع بؤس شعبهم، ويفسروننه فى ضوء إنجيل يسوع.

ضد ماذا؟ ورد هذا الاستفهام مرة أخرى فى معرض ذكر نصوص القديس بولس، إذ نهض الكاردينال راتزينجر Ratzinger، باسم الجمعية الرهبانية للدفاع عن الإيمان، ليدين التحليلات الاجتماعية للاهوت التحرير، بوصفها لاهوتاً تخلله الماركسيه. ويشرح،

(*) بوسويه: (١٦٢٧ - ١٧٠٤)، رجل دين وكاتب وشاعر فرنسي. استوحى الإنجيل ليكتب أشعاره ومقالاته السياسية التى كان يدعو فيها إلى مقاتلة البروتستانت.

مذهبياً، أنه لا يجب الخلط بين التحرر من الخطيئة وبين التحرر من العبودية الاجتماعية، الذي لم يعد يقبل الإذعان التقليدي للشعب، هذا الإذعان الضروري بالنسبة للطغاة. وليس من قبيل الصدفة البعثة أن تلتقي توجهات الكاردينال راتزينجر مع إعلان المخابرات الأمريكية الحرب ضد لاهوت التحرير، لأنه يشكل خطراً على الأمن القومي للولايات المتحدة، وعلى الديكتاتوريين الذين زرعوْتهم الولايات المتحدة في أمريكا الجنوبيّة والوسطى.

لقد تأثرت آسيا أيضاً بشورة أمريكا الجنوبيّة وإفريقيا ضد المركزية العرقية، أو ضد النزعة المحافظة لدى البابوية الرومانية.

ومن قبل ذلك، كان أساقفة العالم الثالث قد أبدوا تحفظاتهم في تصريح مشترك لهم. إذ بلغت المسألة حدّها في ٢ من يناير عام ١٩٩٧ باستبعاد الأب تيسا بالسوريا Tissa Balasuriya وهو لاهوتى من سريلانكا، من الكنيسة، من قبل الجمعية الرهبانية للدفاع عن الإيمان بزعامة الكاردينال راتزينجر، وبموافقة البابا (وهو ما جعل هذا التكفير غير قابل للاحتجاج أو المراجعة)، وذلك لأنّه قد بين أنّ المسيحية قد ظلت حتى هذه الأونة غربية، وأنّه الآن يحاول أن يعيش إيمانه في إطار وطنه سريلانكا والهند، مع إعادة تبيين ما كان للروحانية البوذية من دور بارز في شعوره بهذا الإيمان.

لقد كانت هناك معارضة - بلا ريب - بين لاهوت نجده في كتاب «مريم أو التحرر الإنساني» Marie ou la libération humaine الذي حرره الأب تيسا بالسوريا، وبين لاهوت روما والذى بوجبه يجب أن يمر كل تفكير لاهوتى عبر السلطة الدينية، أى عبر الترتيبة الهرمية الرومانية، التى تضع يدها وحدها على الحقيقة. إنّ اللاهوت الأول

يصدر عن أولوية الانتباه إلى الفقراء وصراعهم من أجل العدالة الاجتماعية، مع رد اعتبار لقيمة الإيمان بالروحانيات المحلية.

من قبل وفي مايو عام ١٩٩٦ ، كانت الجمعية الرهبانية للحفاظ على الإيمان قد أندّرت الأب بالاسوريا رسمياً، بأن يقرّ علينا بعصمة البابوية، وبعذرية مريم، وبالله كمؤلف لكل أسفار الأنجليل، وبالأصل الإلهي لتحريم قسوة النساء. وقد رفض الأب بالاسوريا أن يقر بهذا باسم «مارسات الكنيسة منذ مجمع القاتيكان التاسع والثلاثين»، وباسم حرية ومسؤولية مسيحيين ورجال لا هوت تقرهم شرائع الكنيسة.

المسألة في العمق هي أن الأب بالاسوريا مثله مثل أصحاب لا هوت التحرير في أمريكا الجنوبيّة، لم يكتف بإدانة تجاوزات الرأسمالية، بل أدان منطقها نفسه الذي يؤدي إلى استعباد البشر وعدم المساواة بينهم. إذ كتب يقول: «إن الاقتراب المريض (نسبة إلى مريم العذراء) من العالم الثالث يجب أن يستلهم حساسية المشروع الذي تعبّر عنه تسبيحة البتو: إطعام الجائعين وترقية البسطاء».

لقد قوبلت محاكمة الأب بالاسوريا بالسخط في آسيا والعالم كله أيضاً، كما أعلنت الجمعية الكنيسة «المندورن لخدمة مريم الطاهرة» التي يتسمى إليها الأب، والمجمع الكنسي للاهوتي آسيا، والمجمع الدولي للاهوتي العالم الثالث، وحركة الطلاب الكاثوليك في آسيا والمحيط الهادئ، عن تضامنها مع الأب المستبعد من الكنيسة.

أكثر من ذلك، كانت هناك مظاهرات تأييد للأب قام بها البوذيون والهندوس ورجال الالاهوت البارزون مثل اليسوعي الهندي

صمويل راين Samuel Rayan، والدومنيكان الأسترالي فيليب كنيدى Philip Kennedy، كما وصل إلى الأب بالسوريا «الملاحد» أكثر من ١٠ ألف رسالة تأييد من جميع أنحاء العالم. وفي بداية عام ١٩٩٧، انتقد الأساقفة اليابانيون بشدة الوثيقة التحضيرية - التي أعدت في روما - للمجمع الكنائسي الآسيوي المنتظر انعقاده في إبريل عام ١٩٩٨، بالضبط كما حدث مع الأساقفة الأفارقة من قبل. فهذه الوثيقة، كما يلاحظ الأساقفة اليابانيون «تنم عن قلة الفهم للثقافة الآسيوية».

أما استنكار بهذا الاتساع العالمي، كان على الملكية البابوية المعصومة في روما أن تراجع. وفي ١٥ من يناير عام ١٩٩٨ ألغى البابا الصالikan حكم الاستبعاد الذي كان قد أصدره الأب رايتزنجر والبابا قبل عام.

نفس المركزية العرقية الغربية واليهودية للإدارة البابوية الرومانية قد كشفت عن نفسها في باريس في حفل استقبال الأكاديمية الفرنسية للكاردinal رئيس أساقفة باريس الأب لوستيجر Lustiger.

وأرون لوستيجر - في الواقع - من أصل يهودي، ولم يتخل عن دينه إلا عندما كانت جماعته محط اضطهاد هتلر في عداوته الوحشية للسامية (فقد ماتت أمه في معسكر أوشفيتز Auschwitz). وقد تنصر لوستيجر وأخته بعدما تجاوزا سن الرشد، سن الشجاعة والاختيار - على الرغم من معارضته والدهما لتنصرهما - في هذه اللحظة الحرجة بالنسبة لليهود.

وفي خطبة الاستقبال التي ألقتها السيدة كارير دينكوس Carrère d'Encausse في الأكاديمية الفرنسية، نجدها تقول له: « حين أصبحت

مسيحيًا، لم تكف أبداً عن أن تكون يهودياً. المسيح كما تذكر، ولد في بيت لحم في يهودا، ولم يولد المسيح في هذا المكان مصادفة. قل لنفسك، إنه ما كان من الممكن أن يكون المسيح جنيناً أو طفلاً من إفريقيا، المسيح ليس المسيح إلا لأنه آت من شعب الله المختار».

ومثل هذه العنصرية لم يقابلهاً أى شعور بالحياء من قبل الكاردينال ، الذي ارتضى أن يتذكر باسم أصوله الخاصة، لل تعاليم الأساسية لعالمية يسوع ، تلك العالمية التي أوجزها واحد من أشهر آباء الكنيسة هو الأب كليمون特 الإسكندرى Clément d'Alexendrie (*) بقوله : «يسوع ليس ببريريا ولا يهوديا ولا يونانيًا ولا رجلاً ولا امرأة ، إنه الإنسان الجديد ، الذي صار إنسان الله بفضل الروح القدس » (Clément d'Alexendrie ; Protreptique XI; 112).

ليس يهوديا ولا أسود من إفريقيا ، ولا صينيّا . لقد سمي نفسه بأجمل اسم : «ابن الإنسان»

وهذا يبين إلى أى مدى مازلنا بعيدين عن كنيسة ترى حضور الله قبل «وحيه» في كل أشكال البحث ، في الإنسان ، وفي تجاوزه بالحب للكل وللواحد ، وفي إقرارنا بما لم يوجد بعد .

ألا توجد هذه الحركة الباطنية لدى الأسود والصيني والهندي ، حتى وإن كان طقس عبادته مختلفاً؟

وكان التاريخ المقدس خروجه من إطار الحيوانية أيضاً مختلفاً ، خروج تم بحب ذلك الذي يتتجاوزه ويجعله واحداً مع الكل . إن

(*) الأب كليمونت الإسكندرى : توفي عام 150 م. وهو رجل دين يوناني مسيحي ، عاش في الإسكندرية وكان على رأس مدرسة التعليم المسيحي بها .

الصيغة المعبرة عما في القلب من إيمان هي: «كن واحدا مع الكل». وهذه هي بدقة الصيغة الطاوية الصينية لدى «تشوافنج تسي»: (*) التي ترجع إلى ستة قرون قبل الميلاد.

ولا يستدعي الأمر هنا تلقيها أو انتخابها، وإنما هو إخصاب متبادل،
يتيح لإيماننا الخاص الانفتاح والعمق.

هناك «عدة طرق تؤدي إلى منزل أبي»، فلماذا إذن لا أعرف ولا
أحترم مسبقا هؤلاء الذين يسعون من سبل مختلفة للصعود نحو
نفس القمة؟

ومع ذلك، فالجدير بالانتباه هو تشابه هذه السبيل.
أولاً: خفاء أسبابنا ورغباتنا وطموحاتنا الجزئية.

وأحيانا الحباء من تسمية متتهى معارجنا. والعربيون يمنعون نطق
اسم الله، مثلهم مثل لاوتسي الذي كان يقول من قبل عن مبدأ
الطاو Tao: «الاسم الذي يمكن أن يسمى به، ليس هو الاسم، لأنه
ليس له اسم».

الله ليس له اسم، والأسماء التي نستطيع أن نسميها بها ليست إلا
رموزا على قصورنا، وعلى يقيننا بأن حياتنا معنى، وعلى أننا
مسئولون عن البحث عن هذا المعنى وعن إقامته.

ذلك أننا حين ثمنحه أسماء كما نسمى سائر المخلوقات، فهذه
وثنية، وكأن الله كائن ضمن الكائنات، يجب علينا إذن أن نبحث عن

(*) تشوافنج تسي: فيلسوف طاوي من الصين قام بشرح تعاليم لاوتسي المتضمنة في كتابه «الطريق والفضيلة»، وهو يفسر الطاوية كأسلوب للحياة، مركزاً على ذلك النشاط القلبي غير المتحرك في الظاهر ولكنه يندمج بالكل.

كائن قبل هذا الكائن، وسوف نتوضّم الوصول - عند نهاية سلسلة أسبابنا ومفاهيمنا - إلى ما نبرهن به على وجوده، مثل جميع الكائنات، في حين أنه فيما وراء الوجود هو الفعل الذي يوجز، والذي يحفزنا دائمًا لأن نمضي إلى ما هو أبعد مما كان من قبل.

جوهر الوثنية ليس في مادية موضوع العبادة، الذي هو صنعة أيدي البشر، وليس أيضًا في الصفات المعنوية، أو اللغوية، أو الميتافيزيقية للألهة يخلقها خيال البشر لسد الفراغ الذي يخلفه تسائل العقل عن الأصول الأولى والغايات النهائية، أو عن المعنى التام للحياة. الوثنية هي عملية إسناد صفات إلى إله ما من صفات المخلوقات.

فالوثن ليس فقط تمثالاً خشبياً أو فخارياً، من خلاله تحاول هذه القبيلة في المحيط الهدى أو في إفريقيا السوداء أن تسد فجوة اللانهائي، الذي يفلت منا فيما وراء حياتنا اليومية. الوثن هو استجابة لنفس الاحتياج، ونفس النقص الذي نشعر به عندما نعى أننا كائنات فانية. لا يعني أننا مكتملون، ولكن على العكس، ناقصون شغوفون بالمطلق الذي يبدو لنا غامضًا كالهاوية، ومتطلعون نناشد الكائن الأعلى.

الصنم يقوم بدور سد الخانة، فهو مؤقت ومبتدأ. عن طريقه نبحث سدى عن إشباع حاجتنا للامتناء.

وي يكن أن يكون الصنم صورة أو مفهوماً، أو استعارة، مثل استعارة «الخلق من طين»، أو استعارة «قدرات الملك» للإله، التي تؤخذ بحروفيتها.

لكن في كل الأحوال، تكون الاستعارة هي فعل الغرور الذي اقترفناه بآيدينا وفكمنا، إذ نعزى إلى ما نطلق عليه اسم الله صفات المخلوقات: ونعتقد في إله يحكم مثله مثل ملك، يعاقب ويسامح مثل قاضي يمنح النصر أو يوقع الهزيمة بالفرد أو الشعب الذي كان هذا الكائن (الذي نطلق عليه تعسفا الكائن الأعلى)، لأن عقلنا لا يستطيع أن يتصوره أكبر من ذلك) في انحيازه، قد اختاره أو انتخبه، على سبيل الغيرة من آلهة أخرى، وكأنه شخص يكره منافسا له ويسعى إلى تدميره.

وستظل للوثنية، سواء كنا نغنى بالعبرية أو المسيحية، نفس المزامير التي تتسلل القدرة وتبتغي نفس الوعود.

وبعد المديح المنافق - كأننا أمام ملك - تأتي أهازيم الانتقام: «زجرت الشعوب وأهلكت الشرير. محوت اسمهم إلى أبد الدهور أفنيت العدو إفناء.. دمرت مدنهم حتى باد ذكرهم» (المزمور ٩ : ٥ - ٦).

إنه الإله الذي يقدم وصفات أو خدمات كبرى مثل آلهة البيت الرومانية، أو مثل إله هذه المسكونة الورعية التي تبتهل للقديس أنطوان ليجد لها مفاتيح بيتها، لأننا كنا قد علمناها منذ قرون هذه الوثنية كدين (كما نعلم الإنسان البدائي أعمال السحر). وعلمناها الدعوات المستغاثة باليه الانتقام كما يرد في الكتاب المقدس دعوات لله، مثل: «يمطر على الأشوار جمرا وكبريتا وتكون الرياح المحرقة نصيبيهم لأن الرب عامل» (المزمور ١١ : ٦ - ٧).

المزامير نفسها تظهر في الكتاب المقدس مع الأنجليل، وترتلي في الكنائس المسيحية . لقد أصبح المسيح، بعد تدخل القديس بولس، ابنًا للملك (أسوأ من ذلك هو ملك الحرب، وزعيم عصابة من

السماسرة - داود) وأدمج يسوع في القانون العام لسلطة الآلهة، كما لو كان ابنًا ليهوه ملك الجنiosh والانتقام، أو زيوس الذي يلوح بالسيف، إنه يخلق ويدمر العالم، بكلمة محمولة بكل العلامات التقليدية للآلهة القبلية المتسلطة. وهكذا من خمسة عشر قرنا على هذه النزعة القسطنطينية، أو على اليهودية المسيحية، بوصفها استمرا لشعب المختار، أو بوصفها إسرائيل الله. وبهذه الصفة، تستمتع بامتياز استثنائي للسيطرة الاستعمارية على العالم، وتحالف مع كل السلطات الحاكمة المتالية.

كل هذا يساق جنبا إلى جنب مع تسامح يسوع، وحب يسوع،
هذا الحب الكاشف عن قلب ينبض من جراء كل ما في العالم
من مأس.

من أجل ذلك، تبدأ كل أفعال العبادة بخبرة التعرف على الله في صمت، وقبل ذلك، من كل ما هو ليس إلهياً فينا أيضاً: خفاء رغباتنا الصغيرة في المال والسلطة والجنس بلا حب، والهروب في المخدرات، وغيرها من كل أشكال تفتت الشخصية الإنسانية.

لقد كتب لاوتسى يقول: «عندما تكون الروح الإنسانية فارغة (من الدنيا) وهادئة بالكامل، تصبح مرأة نقية وصافية، قادرة على استجلاء الجوهر الفائق للأصل ذاته» (Tao Le King; 2).

كما نجد كلاماً كنسياً للسيد إيكارت Eckhart^(*) (الفيلسوف الصوفى الألماني ١٢٦٠ - ١٣٢٧) متأثراً بابن سينا إذ يقول: «أن

(*) إيكارت: فيلسوف ألماني متصرف، كانت آراؤه في الألوهية والدين جريئة إلى الحد الذي أدين به مؤلفاته. ولكن تعاليمه استمرت بفضل تلاميذه. من أشهر كتبه «كتاب المصالحة الإلهية».

تكون فارغاً من كل المخلوقات يعني أن تكون ممتلئاً بالله .
وأن تكون ممتلئاً بالكائنات ، يعني أن تكون فارغاً من الله»
. (Traité du détachement IV;1)

في كل مكان ودائماً ، كان الفراغ التام الموجود فينا ، هو الفعل
الأول للاقتراب من الله .

وكان الطاو TAO يقتضي من الإنسان ألا يملك ، ألا يعرف ، ألا
يوجد ، وأن ينصل للفراغ في ذاته ، بالضبط كالأوينشاد في الهند ،
عندما يتتحول الإنسان العادي *atman* إلى براهمان (*) مقدس ،
يتوحد الذات مع أصل الأشياء .

أمر الله إبراهيم : بأن يرحل عن وطنه ، وأسرته ومنزله .

لقد طالب يسوع بالتجزد من كل ما هو خاص بنا ، وبالتخلي عن
الملكية ، فكان يسوع يقول للشاب الشري الذي يحترم كل أوامر
القانون : «ينقصك شيء واحد : بع كل ما عندك ، ووزع على
القراء ، فيكون لك كنز في السموات ، ثم تعال اتبعني» (لوقا
١٨ : ٢٢) .

كان هذا أيضاً حال سمعان ويوحنا : فقد تركا كل شيء ، واتبعاه .
وكان المسيح يقول إن «كل واحد منكم لا يهجر كل ما يملكه ، لا يمكنه
أن يكون تلميذاً لي» (لوقا ١٤ : ٣٣) .

ولا يعني الأمر هنا ، أن نصب اللعنات على الأغنياء وسلوكهم .
كم لعنهم الأنبياء من قبل ، ولكن الأمر يتعلق بحكم عام ، يدين الثراء

(*) براهمان : عضو في الجماعة المقدسة الهندوسية . وبراهمما هو أب جميع الأشياء
المخلوقة بوصفه انعكاساً للمبدأ الخلاق للعالم . ودين البراهمة هو دين الهندوس .

والملكية، ليس في تطرفها أو في تجاوزاتها، ولكن يدينها في ذاتها، في مبدئها ذاته.

التجرد من الأنانية الصغيرة هو شرط اليقظة والوعي.

هناك توجد مملكة الرب حيث يتخلص الإنسان بالكامل من ملكيته. وإذا لم تكن المملكة قد وجدت بعد، فذلك لأن مثل هذه العلاقة بالعالم لم تتحقق بعد لدى جميع البشر. هذا التوتر بين ما سبق أن وجد في صحوة الشخص على حياة الكل - وبين ما لم يوجد بعد في صحوة الجميع على حياة الكل. هذا التوتر هو التراجميدية المتفاصلة بالصحوة، ذلك أن كل واحد منا مسئول عن صحوة الجميع.

وعلى الأකثر، هل نستطيع أن نمضي على السبيل الذي افتتحه الصوفية المؤمنون من كل الشعوب؟ هل نستطيع استحضار هذا السبيل عن طريق نفي كل مaudاه، أى رفض كل ما ليس سبيلاً صوفياً؟ أولاً نستطيع ذلك عن طريق شعرى، من خلال مجازات نستعييرها من حياتنا اليومية لنشير بها إلى ما هو كامن وراءها. مثل الأنبياء الذين نقلوا إلينا رسائل الله من خلال أمثلة، هذه الأمثلة التي لا يمكن أن تكون تعاليم أو قوانين، وإنما نداء يحمل قوة تستدعي الإجابة.

ألا يجب أن تكون على وعي بهذه الحقيقة حتى نحرر على أن نسأل الله هذا السؤال: «أمام هذا الشر في العالم، وأمامكم الضحايا الأربعاء، ماذا نفعل؟». بسيطة هي الإجابة الإلهية: «لقد خلقتكم».

نعم خلقنا، مع كامل مسئوليتنا عن محاربة المملكة المعاصرة (المضادة لمملكة الرب)، مملكة «وحدةانية السوق». فهي العدو

الرئيسى لله وللإنسان . أتريد إليها معلوماتيا يخلق عالما من بشر آلين
مير مجين لارتقاء مملكة الرب بلا حرية أو مسئولية؟

قبل ميلاد فلسفة للفعل - يكون الله من خلالها موجودا في كل شيء وفي كل إنسان ، بوصفه الفعل الذي يوجد ، الفعل بامتياز ، فعل الإبداع ، كان الله قوة محركة لكل الحياة ، كما نجد مثلاً في روحانيات إفريقيا ، أو لدى هنود أمريكا . وكما نجد بالمثل في حكم المسيح التي تبشر بملكه الرب من خلال صور نشر البذور ، وانتشار سنابل القمح ، وميلاد وازدهار الحياة .

أيجب أن نأسف لأن كلمة الله هي اسم ، يدعونا - مثل حيلة أو لغز - إلى أن نبحث تحت الاسم عن مسمى؟ الله هو الكلمة التي يستطيع الإنسان تصريفها على هذا النحو :

أن لم أخلق نفسي

أنت لست نوراً لنفسك

نحن لسنا أكفاء لكافياتنا

هذا تصريف كلمة الله

شأن الله دائما هو شأن من لا يوجد ، ولكنه يدعو إلى الحركة والحياة . إنه مثل أفق تتبعه دوما ، ويفر منها دوما . فهناك بحور أخرى خلف هذا البحر ، وجبال أخرى خلف هذه الجبال .

الله الواحد في خلق دائم ، واستدعاء دائم لريادات جديدة للحياة .

ومن هذه التجارب الرائدة ، ومن خلال ترجمتها إلى أمثال ، تتجلى لنا وحدة العالم ، ووحدة ماوراء العالم . لدينا إذن مفهومان

متضادان في الظاهر: الكلية واللانهائية، غير أن الفيزياء الحديثة تقدم للواقع صورة تجمع بين وحدة العالم ولانهائيته. عندما يتمحدث عالم الفيزياء في القرن العشرين عن الجزء، فهو لا يفكر مطلقاً في عزلة الذرة، أو في عزلة هذا الجزء من المادة - الذي لا يحدث بداخله شيء - ويفصله الفراغ عن سائر الذرات.

فالجزء في الفيزياء الحديثة، هو مربط العلاقات، إنه نقطة فريدة لها صورة الموجة المارة فوق محيط بلا ضفاف. كالموجة التي تحيا فيها كل اندفاعات المحيط، بل وأكثر من ذلك تحيا فيها جاذبية القمر في مده وجذره. والقمر نفسه مرتبط بتحركات الكوكب الأم، أي الأرض. وهذه الأرض بدورها ترتبط في تحركاتها وحياتها بالشمس. والشمس لا تملك ديناميتها وجودها إلا في قلب مجرة ضمن مليارات المجرات الممكنة. كل جزء إذن، له جذور تمتد إلى أقصى تخوم الكون.

ليست هناك صورة مثالية للظرف الإنساني: فالحياة في امتلاها السعيد ليست مجتمعة من الأفراد المنعزلين، وإنما جماعة من الأحياء، كل فرد فيها مسئول بصفة شخصية عن مصير الآخرين جمعياً. وهذا ما يسمى بالحب المسئول عن ازدهار الجميع، جميع شعوب الأرض وتوازنات الطبيعة.

إن البحث عن الله هو نوع من الوعي بحدودنا: فأنا لا أستطيع أن أصعد إلى أصلى الأول ولا أن أرتفع - أيضاً - إلى نهايتي الأخيرة.

إن الإفريقي الذي يعتقد في حيوية المادة يعلمنا أن الحضور الإلهي ليس حضوراً للكائن وإنما حضور للقوة.

وتعلمنا الهندوسية أيضاً أن الواقع الشلائى لكل حياة هو الوجود والوعى والسعادة معاً.

ويقدم لنا المسلم روزيهان الشيرازى تعريفاً مختلفاً للثالث، متحرراً من الطوق الهليني: «الله هو وحدة الحب والمحب والمحبوب».

ويتجلى الخضور الإلهى أيضاً فى «الطاقة الخلقة» Shakti^(*) لدى الهندوس، وفيما يلى الدرس الأكبر لأباء الشرق:

«لقد تجلى الله في الإنسان، حتى يستطيع الإنسان أن يكون إليها». كما يعرض القرآن لكلام الله عن آدم ﴿ونفخت فيه من روحه﴾ انظر القرآن (سورة الحجر ١٥ : ٢٩). ويعرف الروح كمالاً لو كان الإنسان يحمل بداخله رسالة أو أمراً أو سراً من الله ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى﴾ (سورة الإسراء ١٧ : ٨٥).

العالم ليس إلا وحدة واحدة، أي دفقة واحدة للحياة، والإنسان على الأرض هو أقرب صورة لهذه الوحدة وهذه الدفقة. وكما يعلمنا القديس جريجوار دونيس Saint Grégoire de Nysse^(**)، والقديس جريجوار بالاماں Sait Grégoire Palamas^(***) «أن الإنسان هو ملخص لكل ما يوجد»، وهو في القرآن أعلى مقاماً من الملائكة لأنه يتمتع بحرية الاختيار.

(*) تمثل الـ Shakti في الفن الهندي، العنصر الأنثوي في كل كائن، وهي تمثل إلى الطاقة الكونية، التي تمثل هذا المبدأ الأنثوي.

(**) القديس جريجوار: من تركيا (٣٣٥م - ٣٩٥م) هو أسقف الكنيسة المسيحية الشرقية.

(***) القديس بالاماں: (١٢٩٦ - ١٣٥٩) رجل لاهوت صوفى يونانى أرثوذوكسى.

إن الإبداع الفنى الحقيقى هو الذى يساعدنا - بطريقة أفضل - على فهم هذا العبور من الوجود إلى المعنى ، من الوجود إلى التجلى الإلهى الذى يحمله فى داخله : فالملف الصينى فى عصر سونج Song ، ليس صورة فوتوغرافية للجبل ، وإنما تجل لحضور طاو . كما أن الأيقونة لا تقدم لنا صورة ليسموع أو لمريم العذراء ، ولكنها تدعونا فيما وراء الصورة إلى حقيقة من نوع آخر .

ولنضرب مثلاً قريباً منا ، فنقارن كنيسة أو فير Auvers كما كانت وما تزال ، باللوحة المفعمة بالبصيرة التى رسمها لها فان جوخ Van Gogh كتعبير عن حياة عصر ، فى قلقه وأماله المحبطة .

ما الدور الذى يمكن للإيان أن يقوم به فى القرن الواحد والعشرين ، ليكون ذا وجه إنسانى إلهى ؟

لقد ذكرنا من قبل ، أن فيما وراء أدب الحكمة والأديان - أى الأشكال الثقافية التى تنطوى على الإيان - هناك شيء مشترك بين الجميع ، وهو : التجربة المعيشة للتعالى ، من خلال التجرد من الذات وتلقى الآخر ، والشعور بالحضور فى ذاته كتدفق للحياة التى لا نعرف منبعها ولا مصبها .

وي يكن أن نلخص هذه التجارب الثلاث المشتركة فى تجربة واحدة : تجربة التعالى transcendence . فالكلمة مخيفة ، بما أن معناها صعب التحديد ، ومع ذلك فهو أكثر التجارب اشتراكاً بين الناس ، وأكثرها ملازمة للحياة .

١- التعالى هو الوجه المضاد للعنصرية ، (لقد كان ، وسيظل دائماً كذلك) ، إنه اليقين بلا دليل ، المسلم ، والرهان (كما يقول

پاسکال (Pascal)^(*)، بأننا يمكن أن نعيش بطريقة أخرى، وأن قطبيعة جذرية بين العنصرية والتعالي ممكنة، وبالأحرى فإن جذر كلمة التعالي، يعني المضى إلى الماوراء، التجاوز. فمن الممكن أن يوجد شيء آخر غير الذي يوجد.

٢ - التعالي هو مضاد الفردية، فالإنسان ليس ذرة، وليس بوصفه فرداً أو دولة، مركزاً ومقياساً لكل شيء، إنه مواطن في جماعة، حيث كل فرد يعى أنه مسئول عن مستقبل الآخرين جميعاً.

٣ - التعالي هو مضاد الاكتفاء. الإنسان كبير جداً حتى إنه لا يكفي نفسه بنفسه. وقد قال الأب بونهوفر: «إن الخروج من الذات، وملاقاة الآخر هو التجربة الأولى للتعالي، وهذا هو ما يدعى بالحب»، «أما من لا يحب فهو لم يتعرف بالله فقط» (رسالة يوحنا الأولى ٤ : ٨).

نفس التجربة جعلت الصوفى الفارسى الشيرازى يقول: «إننا نتعلم فى كتاب الحب الإنسانى كيف نفسر الحب الإلهى».

هكذا فقط، وعبر كلمات الحب، يمكن للتعالي ألا يكون مجرد تفكير في كلمات خارجية (مثل كلمات السيد والعبد)، ذلك

(*) پاسکال: (١٦٢٣ - ١٦٦٢) فيلسوف ورياضي فرنسي، اخترع وهو في التاسعة عشرة من عمره آلة رياضية. عاش منذ عام ١٦٥٤ حياة صوفية، ودافع عن الدين المسيحى في كتابه الشهير أنكار: (Pensée)، وإليه ينسب ما يُعرف بـ «رهان بسكال» الذى يقول بأن على الإنسان أن يؤمن. فلن لم يلق جزاء حسناً لإيمانه فهو لم يخسر شيئاً. وإنما فسيكون الندم الأكبر.

أن الإنسان والله ليسا واحدا ولا اثنين . فمبدأ اللاثانية الفيدنتى فى الهند L'Advaita védantin^(*) ، يساعدنا على التفكير فى هذه الوحدة الثنائية للإنسان الذى يسكنه الله : « كل الكائنات توجد فىي ، وأنا لست محتوى أيا منها ، أنا الفعل الذى يجعلها توجد » (Baghavad Gita : IX ; 45).

هذا الوعى المعيش للتعالى يحدّرنا من وهم تصورنا للكون على أنه مغلق ، وللواقع على أنه مختزل فيما وجد من قبل ، وللمستقبل على أنه لا ينطوى إلا على إمكانات الحاضر .

هذه هي روح كل إيمان .

المسيحيون يطلقون عليها اسم التثليث ، والهندوس يعبرون عنها بالثلاثى : « الوجود ، الوعى ، الجمال » .

وهذه هي ، فى الحقيقة ، معايير كل واقع : طبيعى ، إنسانى ، إلهى .

وتؤدى سوء المعرفة إلى الانطواء ، ولنا في التاريخ مثل على ذلك : فقد علمتني تجربتي كماركسى أن الختمية التي بمحبها ، لا يكون المستقبل سوى امتداد ضروري للماضى ، لا يمكن أن تؤسس إلا نظرية محافظة ، كما هو الحال في نظرية التحكم التجريبى عند شارل موراس Charles Maurras^(**) .

(*) النظرية الكبرى للفلسفة الهندية الأكثر رواجاً في الفيدنتا . وفي مبدأ اللاثانية هذا تأكيد على أن المطلق يظل هو المبدأ الأقصى للوجود والإنسان . ويستطيع المرء عند التقدم في الوعي أن يعي هذه الحقيقة المطلقة .

(**) شارل موراس : (1868 - 1952) كاتب ورجل سياسة فرنسي مناصر للملكية ، كان مؤيداً لحكومة فيشي ، وحكم عليه بالسجن المؤبد في عام 1945 ، وغُفرَ عنه عام 1952 .

في الواقع إن الثورة تحتاج إلى التعالي أكثر مما تحتاج إلى الختمية.
وعلمتني تجربتي كمسلم، أن هناك مستلزمات، أو بالأحرى
تضحيات، تفرضها الجماعة. وأن كل فردية حتى لو كانت مقتنة في
إعلان حقوق للإنسان، لا تؤدي إلا إلى غابة من الذوات الأنانية
المتصارعة، حيث يكون كل فرد منافساً للجميع في كل الأسواق.

وعلمتني تجربتي كمسيحي، أن يسوع ليس المسيح المطلق السلطة
الذى نستنرجه من كل ما نعتقد أننا نعرفه عن الله، لنجعله أبنا
ليهوه إله الحرب والانتقام، أو لزيوس الذى يشهر سيفه. ولكننى
على العكس أعرف المسيح الذى أظهر - من خلال أفعاله وكلماته
وموته - أن التعالي يمكن أن يبزغ من الضعف نفسه، من الحب: فكل
كائن محظوظ يصير تحلياً حياله، الذى يحمله فى ذاته. وكما
يقول المسيح: «بما أنكم فعلتم ذلك بأحد إخوتى هؤلاء الصغار، فى
فعلتم» (متى ٢٥ : ٤٠).

إن ما أردت أن أوضحه هنا هو هذه التجربة الثلاثية غير القابلة
للتقطیم والتوجه نحو التعالي، لأنها بذرة كل إيمان، وكل
 فعل خلاق.

لقد كتب بول ريكور Paul Ricoeur^(*) يوماً: «إن الدين اغتراب
للإيمان»، لأن كل دين هو إيمان معبر عنه في لغة الثقافة. وما نطلق
عليه أزمة الدين ليس في الواقع إلا أزمة الثقافة التي تعبّر عن هذا
الإيمان. كثقافة السلطة والهيمنة الغربية.

(*) بول ريكور: فيلسوف فرنسي معاصر ولد عام ١٩١٣. وهو رائد فلسفة
الهرميونطيقا الحديثة التي تعنى بتأويل النصوص. ومن أشهر أعماله: فلسفة
الإرادة، الاستعارة الحية، أنا بوصفها الآخر، الزمن والسرد.

أى مكانة إذن يمكن للإيمان أن يتبوأها فى الحياة الاجتماعية والسياسية، بوصفه قلب كل دين؟

يسوع، مثله مثل بوذا، لم يأتيا ليبشرا بدين جديد: بل ربما كانا أقل الناس تدينا عندما انتهكوا قوانين الأديان المتسلطة التي لم تعلم الإنسان إلا ما هو ممحظور أو مننوع من اللمس. وسواء في ذلك أن تعلق الأمر بقانون الفريسيين *Pharisiens*^(*)، أو الصدوقين *Sadducéens*^(**).

هؤلاء الأنبياء حاملو رسالة الإيمان بجوهره وليس بطقوشه، علمونا معنى الحياة نفسها.

علمنا هذا الإيمان الذي ولد مع الإنسان، الذي نفع الله فيه من روحه كما يقول القرآن. كما تعلمنا التضحية غير المنشروطة لإبراهيم ويسوع. ومثل هذا الإيمان لا يمكن أن يكون حبيس معبد يهودي، أو كنيسة، أو مسجد، أو شخص معتنقى كل ديانة على حدة.

فهذا الإيمان لا يمكن أن ينفصل عن الحياة، حياة القرية والحقول، والمصانع، والمعامل في المدن، والمدارس، ومراكز الأبحاث، بل وفي المعابد اليهودية والكنائس والمساجد وغيرها من المعابد أيضاً.

فكم قال أحد العلماء: «الله موجود في الحياة اليومية، في السياسة، في المدرسة، في الفن، في الاقتصاد، ولكنكم حبستموه في بيوت القربان والكنائس. لقد أكذب كل الأنبياء على نفس القيم،

(*) الفريسيون: فرقه يهودية معاصرة للمسيح كانت تنصب نفسها للدفاع الظاهرى عن الفضيلة واتباع التعاليم الدينية فى صرامة.

(**) الصدوقيون: فرقه يهودية من الأثرياء الذين ينكرون البعث وخلود الروح.

ولكن بما أنه على مسر التاريخ كان ثمة تطور للمشكلات، فقد جدد الأنبياء أشكال التعبير عنها».

وقد قال الأب بانيكر Panniker نفس الشيء، في دراسته «مستقبل الإيمان» (Biblia y fe ; L'Avenir de la foi 1988) :

«إن مشكلات الجوع، وعدم المساواة، واستغلال الإنسان والأرض، وعدم التسامح، والخروب، والاستعمار الجديد، هي كلها مشكلات دينية».

وقد أسر لى يهودا مينوهين - Yehudi Menuhin - انطلاقا من إيمانه بالدين اليهودي - بتأملاته حول الذود عن المقدس ، إذ كان يبحث هو أيضا - ويعيدا عن دعوى الاصطفاء والاختيار - عن العامل المشترك لهذا الإيمان الحاضر في قلوب البشر جميعا ، والذى يدعوهם إلى تسام ما ، أيّا كان الشكل الثقافى الذى تكتسيه الأديان الثلاثة : «الحياة ليست مخلوقة مرة واحدة وللأبد للجميع . الأصوليون وحدهم يستطيعون أن يعتقدوا بذلك . نحن بحاجة إلى دين جديد ، مؤسس على الإيمان ، وعلى القيم الأبدية للإيمان ، وعلى فكرة الوحدة الكاملة . ولكنه أيضا إيمان يتوااءم مع المعرفة ومع التجربة المعاصرة» .

وفي معرض ذكر العقائد التي جعلت من الآلهة ملوكا متسلطين ، ومن الحكام كهنة ، أضيف : إننى مقتنع بأن عالمنا تلزمـه صياغة جديدة لقيم المقدس ، ويلزمه مفهوم جديد للدين يتطابق تماما مع أصول العبادة والصلة ، ولكن يُعبر عنه بشكل جديد ومختلف ، شكل يسمح لنا بالتعرف على وجودنا الخاص وعلى وجود الآخرين أيضا بوصفهما مقدسين . ويطلعنا على مسئولية البعض إزاء البعض الآخر . ويكشف لنا عن قدرتنا على خلق عالم أكثر عدلاً . في ديننا

المحديد هذا، سيكون على القادر والثري والعالم مسئولية، وللقراء حقوق. هذا هو الدين والاقتصاد والنظام الاجتماعي والحياة الخلاقة للفنون والتكنولوجيا والتعليم. كل هذا لن يكون إلا شيئاً واحداً يهدى تفكيرنا وحركتنا.

ما مكانة هذا الإيمان في المجتمع؟ سوف تكون له مكانة مركزية، ويجب في هذا الإطار أن نتفادى عدة عقبات:

في المفهوم الليبرالي، حيث لا تتدخل الدولة في الدين وطقوسه وعقائده، تكون الحياة الخاصة المحفوظة للدين متعلقة بالعقائد وليس بالإيمان. فالعقيدة هي طريقة في التفكير. أما الإيمان فهو طريقة لل فعل. في المفهوم الليبرالي إذن، سيكون هناك تسامح كامل فيما يتعلق بالعقيدة، ولكن سيكون محظوراً على الإيمان أن يؤثر على الأبنية العينية للعالم، وفق مصالح الأفراد والجماعات. «حضرروا القدس» كما يذكر قديس في الصلوات، «أنصتوا القراءة التوراة» التي يتلوها عليكم الحاخام، «اسجدوا» خلف إمامكم، ولكن عند خروجكم جميعاً من معابدكم اخضعوا في وداعة للنظام القائم!

ليكن لكم أصنامه الفكرية كما يشاء، وذلك في مقابل لا تتدخلوا عند الخروج من المعابد فيما يغير النظام المؤسس على اللعب الحر لوحديانية السوق. ذلك النظام الذي يتنظم على المستوى العملي كل العلاقات الإنسانية.

وعلى عكس النظام الليبرالي، ينزع النظام الشمولي إلى بسط سيادته على العقول والأجساد معاً، على الإيمان والأفعال الصادرة عن الإيمان. وذلك عن طريق تحويل الدولة إلى دين. أو عن طريق تحويل

ديانة بعينها إلى دين للدولة. ويقوم هذا النظام بالضرورة على ثنائية سياسية واجتماعية، فكل من لا يتبع الدين الرسمي للدولة هو مواطن من الدرجة الثانية.

من هذا المنظور، تبدو دعوة المسيحية بأنها دين عالمي شكلاً نموذجياً للاستعمار الروحي الذي لا ينفصل عن أي شكل من أشكال الاستعمار.

وأياً كان الحل المختار، فإن الخلط بين العقيدة الدينية والإيمان الحى المتحرك داخل كل الأديان، س يجعل المشكلة غير قابلة للحل، كما سيؤدى إلى ظهور الحركات الأصولية المتطرفة التي تدعى أن كل المشكلات قد حلّت وللأبد عن طريق الآباء المؤسسين.

إذا كان كل من بوذا وموسى ويسوع ومحمد قد حملوا إجابات وحلولاً لأسئلة ومشكلات عصورهم، فهذا لا يعفينا بأى حال من الأحوال من مسئولية البحث عن حلول لمشكلات عصرنا، انطلاقاً من مبادئهم. فما من سوترا بودية أو رسالة في الإنجيل أو آية في القرآن، تسمح لنا بالخل دون تفسير يتقدمها. والمشكلات التي تطرحها علينا الطاقة النووية، والشركات المتعددة الجنسية، والمضاربات في البورصة، والاستعمار، وغيرها من المشكلات، لم تكن مطروحة من قبل في زمن الأنبياء. نحن نستطيع فقط، وبناءً على المبادئ التي بثروا بها، أن نتقلدـ مع كامل المغامرةـ المسئولية عن تطبيقها على الأوضاع التاريخية الجديدة تماماً.

وهذا لا يعني التورط في أي نسبية، أو نخبوية، أو تلقفية . فكل دين قد رشح، حول المبادئ المقبولة المشتركة، مجموعة من القيم المطلقة، ومجموعة من العبادات بطقوسها وعقائدها الخاصة بكل ثقافة على حدة، في محاولته لناهزة المطلق . ومن الممكن أن تستلزم

هذه الرابطة بالله أو هذا الخضوع لله مشاركة كاملة من كينونتنا بما فيه جسدنَا، مما يعطى الدعاء والعبادة شكلاً خاصاً، سوف يعطى بدوره معنى لفعلنا.

وهكذا يستطيع التقليد الثقافي لكل دين أن يعبر عن نفسه من خلال وضع خاص للجسد في خضوعه لله، مثل وضع اليوجا بالنسبة للبعض، أو الركوع أو السجود بالنسبة لآخرين.

لكن المهم، هو أن ييسر هذا الوضع الجسدي التواصل بالله، أو بالحكمة (أيَا كَانَ الْاسْمُ الَّذِي نَدْعُوْبِهِ اللَّهَ)، وألا يتدهور إلى رياضة بلا روح.

إن الإخلاص المتبادل للثقافات التي تمثل مختلف الأديان، لهو ثراء لا يمكن التنازل عنه من أجل أن نفرض على الآخر شكل التعبير الذي ورثناه نحن وثقافتنا.

لا نستطيع أن نطالب باحتكار السبل المؤدية للتعالى. سواء أطلقنا عليه اسم الخلاص أو التحرر أو النرانا (**).

نستطيع فقط، ومع بالغ الاحترام لطقوس الآخرين، وللرموز التي يعبرون بها عن إيمانهم وحكمتهم والهيم، أن نتزود بتجاربهم، لنصلح من سبل مختلفة إلى ذات القمة التي ربما تكون عصية على الوصول، حتى تجعلنا نبحث عن معنى لحياتنا وتاريخنا، وعن سبل إنجاز هذا المعنى.

(*) النرانا Nirvana لفظ سنسكريتي يعني التخلص من الألم أو السكينة القصوى، وهي لا تعنى العدم، ولكن بالأحرى فناء الذات في الهو، أي في البرهمان المبدأ الخلاق للعالم.

الخلاصة، أن أكثر الأشياء قيمة، ليس ما ي قوله إنسان ما عن إيمانه، ولكن ما يصنعه هذا الإيمان بهذا الإنسان، وإلى أي مدى يحرره من اغترابه؟

أى يحرره من طموحاته الشخصية المتحققة عن طريق الإطاحة بالآخرين، ومن مشروعاته الجزئية الفردية أو القومية، التي لا تسعى إلى خلق جماعة عالمية، كسيمفونية، أو كغاية نهائية سامية للإيمان. ذلك الإيمان الذي يدعو كل الأديان للتعالى ولتجاوز الذات.

من الضروري، في البداية، أن نزيل النزعة الأسطورية عمما هو روحي.

يجب بالتأكيد أن نصحح التوجه الخاطئ نحو عصر النهضة، حين سميت العلوم الخاصة بالوسائل وحدها باسم العقل، وذلك بتحويلها عن بعدها الأساسي القادر على تسخير الاكتشافات العظيمة لخدمة الإنسان وازدهاره، وليس لتدميره. هذا بعد الآخر هو الحكمة التي تتأمل الغايات.

وأبعد من ذلك، يجب أن ننهي الأمر بشأن انحراف الفكر الإنساني: المفهوم القبلي لشعب الله المختار، الذي يقسم الإنسانية ما بين نخبة ومهمنشين، وينحى الأوائل الحق الإلهي للسيطرة، والاستبعاد أو حتى قتل الآخرين. وأياً كان وضع هؤلاء الذين يمنحون لأنفسهم هذا الامتياز، سواء كانوا عربين أو مسيحيين أو أوروبياً الذين بدأوا وراثتهم لامتياز النخبة، يضطهدون اليهود (الذين يظنون أنهم هم وحدهم الحائزون لهذا الامتياز) ثم المسلمين عن طريق الحملات الصليبية، ثم العالم عن طريق الحملات الاستعمارية، حتى

يتزعموا عن الجميع هذا الحق الأسطوري في «المستقبل البارز» الذي تمسك بمقاليده الولايات المتحدة على حساب الهند والزنوج ثم العالم، يقدسون مملكة الدولار، وذلك بتسجيل سلطتها ذات الجوهر الديني على كل عملة نقود ورقية خضراء: «نحن ثق بالله . We trust in God

يجب أن ننتهي أيضاً من هذه القراءات المتطرفة للإنجيل والتي تحمل منه الكتاب المقدس الوحيد للإنسانية، في حين أن كل شعب في العالم، عاش فيما قبل التاريخ إنسانيته بإبداع الأساطير الكبرى التي تمهد الطريق عبرآلاف السنين لتحقيق الإنسانية المقدسة للإنسان . كل شعب من الشعوب لديه تاريخ مقدس، هو تاريخ الإنسان في بحثه عن الله .

أما هذه الملاحم المصطنعة عن شعب مختار - والتي ليس لها من أساس سوى نص وحيد - فقد ترتب عليها نتائج فاقعة الخطورة مع الإدعاء بأن مسيحية ما هي وريثة هذا التقليد. لتكيف هذه المسيحية مع هذا الانتخاب الإلهي ، وتتناسب إلى الحق الإلهي في السيطرة على العالم . لتمارس - بوجب هذا الحق - الانتهاك والاغتصاب والقتل في حق «غير المختارين» من هنود أمريكا ، والعبيد الذين جلبوا من إفريقيا ، وجزء كبير من آسيا ، وذلك منذ حرب الأفيون إلى هيرشيمما وحتى التدمير الجماعي لفيتنام والعراق . كل هذا باسم علوها الأنطولوجي الالاهوتى .

* * *

نحن بحاجة اليوم إلى أنبياء أكثر مما نحن بحاجة إلى ساسة . نحن بحاجة لبوذا ويسوع وغاندي أكثر من قيصر أو ناپلیون . ذلك أنه ما

من شيء يبدأ مع القوانين والإمبراطوريات، كل شيء يبدأ من عقل البشر. ويبدأ مع المراجعة الجادة للأديان التقليدية، التي عن طريق فسادها الأصولي المتطرف، قد تحولت إلى علوم لا هوت متسلطة. الأصولية المتطرفة هي نزوع كل نظام ترتبي هرمي ديني - مثله مثل كل سلطة سياسية - إلى اختزال الإيمان في شكل ثقافي أو مؤسسي ما، وأن تكسو هذا الإيمان بسرابيل هذه الحقبة أو تلك من تاريخها السابق. وحتى نظل في إطار هذه الأديان المسيطرة بفعل جماعة من المسيطرین والمسيطر عليهم، فسنرى أن المسيحية لا يمكن أن تظل مسيحية قسطنطين، وريث الإمبراطورية المتمركرة في روما، والذي عمل على فرض أيديولوجية هذه الإمبراطورية وترتيبها الهرمية على سائر أنحاء العالم، جاهلاً أو متتجاهلاً نزعات العالم الروحانية المحلية.

إن مثل هذا الدين يفرق، إنه المبرر للعديد من الحروب، في حين أن الإيمان يوحد، ويجمع الجهود المتضامنة للتجاوز من أجل الوصول إلى هذا اليقين الذي سيظل دائماً مخاطرة ومسلمة معاً.

ما من إنسان يستطيع أن يدعى ملكيته للإيمان، كما لو كان ذلك كنزاً، الإنسان المؤمن هو دائماً على الطريق نحو بداية ما.

العالم ليس مصنوعاً من أشياء ولكن من ينابيع تدفق المعنى.

والله ليس كائناً (مثل الأشياء)، ولكنه فعل لانهائي للخلق. من أجل ذلك فهو ليس بحاجة لأن يكون مرئياً حتى يوجد. إنه هذه الحركة التي تكمن فينا دون أن تكون لنا.

وهكذا، وفي مواجهة الذين يدعون نهاية التاريخ، نقول إن التاريخ مثل الأنهر ليس له من مصب آخر سوى المحيط.

إن تهيئة هذا التحول الروحاني العالمي سياسياً، تعنى أننا يجب أن نضع نهاية لما يدعى بالعولمة التي هي مضادة للعالمية. إن العولمة مشروع إمبريالي لتسوية أو إزالة الثقافة والإيمان لدى مختلف الشعوب، حتى يفرض عليهم - علاوة على أسلحة ودولارات الولايات المتحدة الأمريكية - اللائقفة واللامعنى التي يتحلى بها دين لا يجرؤ على التصريح باسمه، ألا، وهو دين وحدانية السوق . هذا الدين الذى لن يكون فقط نهاية للتاريخ ، ولكنه سيكون موتا للإنسان وللإله الذى هو كامن فيه.

في عام ١٩٨٥ ، في أثناء رحلة البابا إلى بيرو، سلمه هنود أمريكا Andes هذه الرسالة :

«نحن هنود أمريكا، نريد أن نتهز فرصة زيارة البابا چان بول الثاني، لنرد إليه كتابه المقدس، ذلك أنه وعلى مدى خمسة قرون، لم يجعل لنا الحب ولا السلام ولا العدل. فليبرده إلى ماضطهدينا، فهم يحتاجون إلى وصاياه الأخلاقية أكثر منا. لقد وصل إلينا الكتاب المقدس كجزء لا يتجزأ من النظام الاستعماري المفروض علينا ». .

في الواقع، أن المشكلة الحالية اليوم، لا تمثل في إزالة الطابع اليهودي فحسب ، ولكن الطابع الغربي أيضا للمسيحية . هذا الطابع الغربي الذى كان يُعد الكنائس من الصين إلى أمريكا وحتى إفريقيا ، «ملحقات بتاريخ التبشير». كما يقول أنريك دوسيل Enrique Dussel في كتابه «التاريخ وعلم لا هوت التحرير»- Histoire et Théo- logie de la libération الفرنسية ليصدر عن دار نشر أوفرييار Ouvrières عام ١٩٧٤)، فقد أظهر دوسيل في كتابه - كما سيفعل ليوناردو بوف Leonardo Boff

من بعده في كتابه «التبشير الجديد La nouvelle évangélisation» الذي صدر عام ١٩٩٢ عن دار سير Cerf - أن غزو أمريكا منذ عام ١٤٩٢، لم يكن دعامة للمسيحية العالمية (الكاثوليكية) لدى ثقافات محلية كانت تبحث عن الله، وإنما كان استيراداً أو جلباً ل المسيحية رومانية بحر متوسطية، محشور فيها نظام اجتماعي، يسمح باسم التبشير، بفرض الاستعمار الرأسمالي الإنساني.

لقد كتب ليوناردو بوف يقول: «لقد تم التبشير في أمريكا اللاتينية تحت تأثير الاستعمار» (p169). فالتحذير الموجه إلى الهنود في عام ١٥١٤ يقول: «سنأخذكم أنتم ونساءكم وأبناءكم، وسوف تصيرون عبيداً لنا، نسلبكم ثرواتكم، كما نسلب الأقنان العصاة عندما يرفضون خدمة سيدهم».

هذا ما كان يعترض عليه دون جدوى الأب مونتسينوس Monte-sinos أول نبي للأمريكتين. والأساقفة برتولوميه دي لاس كازس Bartholomé de Las Casas بيبر والقرطبي Pedro de Cordoba، والذين كانوا مغضوباً عليهم من قبل المستعمرين، لأنهم كانوا يرفضون أن يوحدوا بين كنيسة متواطئة مع الغرزة، ساعية لتدمير الثقافات الكولومبية القدية، وبين مملكة رب.

هذا الجهل التام بالآخر قد صنع بشرًا معدومي الإنسانية، منعزلين في الطقوس والعقائد الدوجماتيقية لدينهم الذي يعتقدون أنه الأفضل، لأنهم يجهلون أديان الآخرين جميراً. وما كان لهذه الأديان أن تكون بديلاً عن دينهم، ولكن عليها أن تشرى دينهم بما

لديها من تجارب مختلفة للتعالي . إن المطلق الواحد لا يمكن أن يكون حكرا على كل من يعتقدون أنهم شعب الله . (أى كل أصحاب النزعات القومية والاستعمارية) .

وكما قال چاك روسو من قبل: «إن إلهنا يختار شعباً وينحه امتياز اغتصاب وتدمير الآخرين لا يمكن أن يكون إلها للبشر أجمعين».

الخاتمة

والآن؟

بعد هذه الرحلة الشاقة، المخالفة للمألوف، ما من أحد - كما أتمنى - سوف ينتظر خاتمة لهذا الكتاب، أى إجابة سديدة، مغلقة، عظيمة وساحرة.

ذلك أن ما يضع فلسفة الفعل في تعارض مع فلسفة الوجود هو أنها ليست من باب الإجابة، ولكنها من باب السؤال.

إن ما يميز فلسفة الوجود بشكل جوهري هو «الإقامة في الوجود والتحدث عما هو موجود»، سواء أكان ذلك في شكل وضعى تجريبى يصدر عن معطيات حواسنا (التي تلتقاها مرة واحدة وللأبد)، أم كان في شكل عقائد دوجماتيقية، تدعى أنها عقلانية تدافع عن أفكار خالدة أو فطرية أو موحى بها، ولكنها في كل الأحوال أفكار ثابتة، لا ريب فيها، مثل البديهيات.

وعلى العكس من ذلك، فإن ما يميز فلسفة الفعل هو وعيها بسلماتها، وباحتمالية مراجعة هذه المسلمات ووضعها موضوع تساؤل. مثل نائم يتزرع ذاته من سكينة السبات، وباهر الأحلام، ليستيقظ في غمار عالم متحرك. بهذا يصبح النائم واقفاً، تهاجمه اليقظة، ويهاجم هو من أجل الممكن.

البعض يسمون هذه الحالة بعثا، والكلمة في حد ذاتها مفرحة، إذ توحى ب فعل القيام، القيام حتى من بين الموتى .

معاً، وعلى مر هذه الصفحات ، سألنا أنفسنا ، ووضعنا أنفسنا في وضع نسبي ، فربما كانت طبيعتنا تعنى الخضوع والاندماج في طبيعة سائدة بل عالمية . ولكن الانفصال ، أو على الأقل ، هذا الجهد المبذول للانفصال عن مواجهة ما يقدم لنا غالباً على أنه طبيعة الإنسان ، هو الثقافة . فالثقافة هي كل ما نضيفه إلى الطبيعة ، وكل ما يصنع منا إنساناً وليس مجرد حيوان أرقى . أى يصنع منا شيئاً آخر غير الحيوان : إنه ما نتعالى به . هنا أيضاً توجد كلمة للتعبير عن ذلك : الله ، والإلهي . وربما كان من الأفضل ، منذ البدء ، ألا نستعملها : أولاً لأن الله اسم ، وهذا يستدعي أن نبحث عما وراءه من مسمى ، عن وجود ، وإن كان الوجود الأسمى . آه ، وماذا لو كان الله كلمة ، أو فعلاً؟ يكون هو الذي يجعل الوجود يولد . فالإلهي ، هي الصفة التي غالباً ما يساء استخدامها ، وتمثل خطورة ، أيضاً . لأنها أولاً توحى بأنه ستكون هناك محاكاة لهذا الموجود الأسمى ، الذي يساء تعريفه دائماً ، على مر التاريخ . فنحن لن نستخدم هذه الصفة حين يكون هناك ثمة محاكاة حرافية له . وإنما حين يكون هناك إبداع ، على طريقة پسوع ، شاعر الحياة بامتياز .

هذه البصيرة بالأشياء ، أو بشكل أكثر تواضعاً ، هذا الهدف ، قد شاب منهج البحث في هذا الكتاب بالفوضى غير المتوقعة . لكن الأمر في هذا الكتاب لا يتعلق بعرض منطقى أو تعاقبى لتاريخ الفلسفة ، يقدمه الأستاذ المعلم الفلاني ، المعلم المطلق كما لو كان بدليلاً عن الله ، إن آخر من حاول هذا الأمر هو العملاق الأخير هيجل الذي لم يخلف إلا مقلدين له يعانون الأمررين معاً : التقرّم والاكتفاء المتحذلق بالذات . وليس من الضروري أن نذكر أسماء هؤلاء .

أما كتابي هذا عن فلسفة الفعل ، فهو ليس مكتوبًا بقلم أستاذ معلم ، ولكن بقلم طالب ، طالب عجوز . وبالفعل ، هو يقترب من الـ ٨٥ عاماً ، ولكنه ما زال طالباً ، لأنه لم يكف عن الدهشة . الدهشة أمام سذاجاته الخاصة ، وأمام الادعاءات التي ينشرها الملاعيبون بالحقائق المتداولة ، المديرون المعصومون للفكر الأحادي ، والصحيح سياسياً ، وأصحاب الأرثوذوكسية الدينية ، أو التنوعات الجمالية لهذا العدم .

يوجد فعلاً في هذه الصفحات بدايات لتاريخ الفلسفة ، ولكنها ليست مبنية بحسب منطق الأسباب .

ربما انطلاقاً من طموح واسع جداً ، أو متواضع جداً ، لا أعرف ، تعيد هذه الصفحات تخطيط - مع ما في ذلك من المغامرة - مراحل حماسى وإحباطاتى . حاولت فيها أن ألتقي (ولا أجرؤ على القول بأنى أكتشف) الحدود والتديس الذى نجده عند بابوات الغرب عبر آلاف السنين ، منذ أرسطو وحتى القديس بولس . ، أو من ديكارت حتى أووجست كونت . وأريد أن أقدم توضيحاً مصغرًا لذلك وهو - إطلاق كلمة فلاسفة كماركة مسجلة على الأيديولوجيين الإنجليز فى شركة الهند .

هذا الكتاب عمل كبير يتجاوز عمر إنسان ، أن ندين ثلاثة آلاف عام من مسلمات مأخوذة على أنها قيم عليا ، أو أن نتراجع إلى الوراء من أجل انطلاقة ضرورية لتجاوز الحدود التقليدية .

سأكون قد حققت جزءاً من هدفى ، إذا نجحت في أن أنقل للآخرين ، الأكثر شباباً ، الرغبة في استكمال هذه المهمة . لكن الأمر لا يتعلق فقط ببرنامج تأملى متسائل ، بل سيكون أمراً عظيم الشأن أن نفهم أن كل فلسفه ، لا تهين الإنسان للبحث عن معنى حياته ،

ولأن يَعْدَ نفسه سؤالاً في مجتمع كوني، وأن يتصرف وفق هذه المبادئ، لا تستحق أن تحمل اسم «فلسفة».

ولكن هذا الوعي يقتضى تغييراً في أسلوب الحياة والحركة: أي يقتضى فقط فكراً واعياً بسلماته، يتحرك بصورة خلاقة، وبنوع من الاستيقاظ، سواء تعلق الأمر بفرض علمية، أو بأفعال الإيمان، أو ببيوتوبيات اجتماعية، تسمح لنا بالتعامل مع العالم وتعديله.

الميسرة الأولى تجعل الفلسفة قرية ما نسميه - بشيء من اللبس - لاهوتاً. وكأننا يمكننا الحديث عن الله، وكأننا لا نستطيع، وبدون كلام، أن نتحسس وأن نحدد اقتضاءات حياة تسكنها الحياة كلها.

وهذه هي الثقافة: مجمل العلاقات التي يلتزم بها فرد أو مجتمع مع الطبيعة ومع البشر الآخرين، والبحث عن غایياتهم الأخيرة، تلك التي يسميها البعض «الله»، ويسميها الآخرون «الحكمة».

في هذا البحث عن معنى الحياة، نجد الملحمة والرواية والعقيدة والتصوف قد وفرت لرغباتنا ما يلى: في التراث الغربي أثار كل من أسيخيلوس، سوفوكليس، أريستوفان^(*) انتباхи إلى معنى الحياة أكثر من الفلسفة الإغريقية، حين انفصلت عن الفكر الشرقي، ذلك الفكر الذي أثر تأثيراً ملحوظاً - على سبيل المثال - في هيراقليطس قبل أن يعرف تسائل سocrates عبر دوجماتيكية أفلاطون.

كان ينبغي أن يكون هناك كازانتزاكيس^(*)، لكنه يبعث، مع كتابه «الأوديسا» أعلى رغبات الإنسان الخالدة والمتسئلة دوماً.

(*) شعراء يونانيون عظام، كتبوا التراجيديا اليونانية فيما بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد.

ولم تعلمni روما بعجودها وبنائها وفضحائها شيئاً حيّاً، أو قابلاً للحياة. ومن فرنسا، أجبرني كل من: رابليه Rabelais وپاسکال Pascal، ثم فيكتور هو جو Victor Hugo، ورولان بارت Roland Barthes ومورياك Mauriac ويرنانوس Bernanos، وكلوديل Clau-del، وسان چون پيرس Saint John Perse، على اليقظة أكثر من أي فيلسوف محترف في أي بلد، ربما باستثناء ليبنيتز Leibneiz وكانت وفيخته Feichte، وكذلك تعلمت من فاوست ومن فيلهلم مايستر Wilhelm Meister . Goethe بجودته

تعلمت بعد ذلك من مجانين الله الذين كانوا حكماء حقيقين: من يواشيم دو فلور Joachim de Flore إلى كاردينال دوكو Cardinale، والمعلم إيكهارت Eckhart de Cues، وسان چان دى لاكروا Saint Jean De La Croix، وكركيجارد، ودستويوفسكي، ونيتشه أكبر من اجتاز الحدود بعد يسوع.

كل هؤلاء مثل الآباء القساوسة في كاپادوس Cappadoce بآسيا، وكليمونت الإسكندرى في إفريقيا. بهذا الإيمان الأساسي والأولي، أو بهذه الحكمة الموحدة، والملقة عالمياً، التي ولدت في الصين مع الطاو: «الوجود كواحد مع الجميع»، كما كتب أحد أكبر المفكرين في جميع العصور: تشوانج تسى Tchouang - Tseu .

أيمكن أن نجد في الذات نفحة الحياة الخلقة، وأن نكتشف أن ما هو شخصي فينا هو الفعل المبدع للحياة الكونية باستمرار: «أنت هو

(*) كازانتزاكيس: (١٨٨٥ - ١٩٥٧) كاتب يوناني حصل على جائزة نوبل. ومن أهم أعماله: «المسيح يصليب من جديد» و«زوربا اليوناني». وله ديوان شعر: «أوديسا».

هذا»؟ نعم نستطيع أن نكتشف هذا في الفيدا الأولي شناد، في الرامايانا ^(*) Ramayana، في باجهاقاد جيتا Baghavad Gita، وفي شنكرابرا Radhakrisnan Cankara في راداكريشنا.

لقد كان الشعراء والمتصوفة وذوو البصيرة في الإسلام رواداً عظماء لهذا الإيمان الكوني. منذ الكتب الكبرى الروحية «الإنسان الكامل» أو الأعمال الصوفية لابن سينا والشهرودي، إلى «منطق الطير» لفريد الدين العطار، والكتاب العظيم «مثنوي» للرومسي، (والذي سمي أحياناً بقرآن الفرس)، والمؤلفات العملاقة لابن عربي في إسبانيا الأندلسية، وأخيه الروحي، مع فارق ثلاثة قرون، القديس چان دو لاكروا. وتضمنا هذه الأعمال العظيمة على ما يتميز به الإسلام بالنسبة لأديان الوحي الثلاثة: يتميز الإسلام بروحه الكونية التي تعرف بكل الرسل، وتجعل من إبراهيم «أبا للمؤمنين» كما يقول القرآن الكريم، ومن يسوع خاتم القداسة، كما يقول ابن عربي في «حكمة الأنبياء»، فهي تتلقاهم جميعاً كرسل لله.

التأمل الأساسي للإيمان الكوني يوجد في أجمل التقاليد الإبراهيمية منذ «حي بن يقطان» لابن طفيل (١١٠٠ - ١١٨٥) إلى «رسالة في اللاهوت والسياسة» لأسپينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) «شهادة إيمان الأسقف السافوياردى» (Profession de foi du vicaire) لچان چاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧١)، إذ نجد أن النبع المشترك لكل إيمان - لدى كل من المسلم واليهودي والمسيحي - قابل

(*) الرامايانا: هي مجموعة القصائد المقدسة للهندوس، وهي ذات طابع ملحني، ومنها عدة نسخ ترجع إلى القرن الخامس ق.م. وقد ترجمت إلى عدة لغات وعرفت رواجاً كبيراً في مختلف أنحاء العالم.

للتوصيل، كما كتب الأب بونهوفر Bonhoeffer في سجنه أيام النازى، في كتابه «إلى عالم بلا إله».

إن مظاهر الاحتفال البابوى لاتعني يقظة الإيمان، كما لا تعنى هذه المظاهر الاحتفالية لمطربى الروك يقظة الموسيقى أو الثقافة، ولا نجاح جماعة موون Moon^(*)، ولا العروض الإعلامية للعظات التليقزيونية للأمريكين المؤرخين سادة (البيزنيس Business) الدينى.

إن وباء انتشار ٤٠ ألف مراهق فى فرنسا (كما هو الحال أيضاً فى البلاد المتقدمة، حيث ثبتت لا من نقص الوسائل كما هو الحال فى العالم الثالث، ولكن من غياب الغايات) هو السبب الرئيسي للوفيات لدى الشباب، وهو وباء لا يمكن أن يقتضى عليه الأطباء النفسيون، الذين يشبهون كلاب السان برنار^(**)، أو يشبهون الأرض الجديدة المنقدة للأفراد الضالة. ما يفتقده هؤلاء الشباب هو مشروع كبير يستحق أن يعيش من أجله، فى مواجهة تفكك النسيج الاجتماعى بواسطه وحدانية السوق، وفي مواجهة الفقر الروحى والهروب إلى سماعات الصوت العالى والمخدرات والموت.

لقد ولد هذا المشروع خارج إطار الغرب، ولد ليس فقط من أجل خلق وحدة منسجمة للعالم، أو إتاحة الإمكانيات الاقتصادية والسياسية والروحية، لكل من يقف على باب الله، أيا كان أصله، ليوظف إلى أقصى مدى ما يحمله بداخله سواء أكان مايكيل أنجلو أم

(*) طائفة دينية جديدة يتزعمها رجل أعمال كورى وتنشر أساساً فى الولايات المتحدة.

(**) نوع من الكلاب يستخدم للحراسة وإنقاذ الأشخاص التائهين فى الجبال.

كيو هسى Kuo Hsi ، لا من أجل كل ذلك فحسب ، بل أيضا من أجل الخلاص من الأنانيات المقدسة للأفراد ، التي لا ترتفع إلا على حساب تضاؤل شأن منافسيهم في الغابة ، والخلاص من الشعوب المختارة المستعبدة لآخرين .

المشروع الكبير ، هو مشروع ضد التزعة الفردية المنعزلة في جزيرتها القفر ، هو مشروع المجتمع حيث كل امرئ يرتبط بالحياة ، بداعي من مسؤوليته تجاه الآخرين .

هذا الإيمان ، الذي يعبر عن نفسه في الحركة ، هو إيمان يسوع الذي هو في سبيله إلى الميلاد من جديد ، حيث يريد أساقفة روما أن يقضوا عليه لدى : العمال «القساوسة» الذين يجربون ما يفوق قدرة البشر ، وجماعات القاعدة العريضة في البرازيل ، الذين كانوا وما زالوا يمثلون التربة الإنسانية الخصبة للاهوت التحرير ، ولدى من يبحثون عن هذا الإيمان المنشق من قلب كل نزعة روحية حية ومناضلة في هذا العالم . لقد كان الأب مونشانين رائداً لهذا المجال من خلال جهوده «لإعادة التفكير في الهند كمسيحي ، والتفكير في المسيحية كهندى» ، وقد خلف من واصل الطريق من بعده : مثل رايوند پانيكár Raimundo Panniker في إسبانيا ، ورينيه چينون René Guénon في فرنسا - وهم يتعاملون مع الإسلام كما عامل القرآن يسوع - ، ومثل الأب حجبة Hegba في إفريقيا الذي غرس يسوع في أعمق الأغوار الروحية الزنجية .

هذا المشروع الأخوى لا علاقة له بالانتقاء ، أو التل斐يق . إنه تعبر عن إيمان حقيقي في التعالى ، إذ إن الله لا يقارن بأى معرفة إنسانية

تزعم تحديده، أى تحبسه فى ثقافتها الخاصة . نحن محتاجون إلى من يحاولون نفس المشروع ، انطلاقاً من ثقافتهم الخاصة . فبمثل هذا فقط نستطيع أن نحطم حدودنا ، وأن نشري إيماننا ، وأن نفهم خصوصيتنا من خلال تواصل داخلى عميق مع ثقافة وإيمان الآخرين . إنه ما يزيد فقر النفس أن أعتقد أن دينى هو الأفضل ، وذلك فقط لأنى أجهل كل الأديان الأخرى .

هذه هى النتائج القصوى للتعارض بين فلسفة للوجود وفلسفة للفعل .

الأولى : فلسفة للوجود ، تفترض وجود طبيعة يمكن للإنسان أن يستخلصها من معطيات ما ، وأن يجمعها وفق وسائل شتى بحسب تصنيفاته وبحسب منظوره لمراقبة الوجود . ابتداء من هنا يمكن التلاعب حتى تكنيكياً بهذه الطبيعة ، ولا يستطيع المرء أن يعزز لها أى غایات مختلفة عن غایات خالقها الأول (أو يسند إليها قوانين خالدة إذ يجد الخلق قد تم مرة واحدة وللأبد) . بعبارة أخرى ، في هذه الحالة يكون للإنسان طبيعة لا يستطيع أن يتعالى عليها .

الثانية : فلسفة للفعل ، تقوم هي أيضاً على مسلمة هي : قدرة الإنسان على أن يتعالى على هذه الطبيعة ، وعلى أن يعمل على إيداعها المستمر ، في هذه الحالة ليس للإنسان طبيعة ، بل له تاريخ . تاريخ إيداعات ثقافته ، التي تميزه عن الحيوان .

إذا كان للإنسان - كالحيوان - مثل هذه الطبيعة ، لما تجاوز الحدود التي تفرضها البيئة لبقاءه . فلكى يتم تجاوز بضعة الملايين من البشر الذين سكنا الأرض خلال ملايين السنين ، كان يجب أن يخترع الإنسان الزراعة لغذائه ، والصناعة لتحسين محبيه وحمياته .

باختصار كان عليه أن يبدع ثقافة تسمح بتضاعف النوع .

من أجل هذا كان يجب على الإنسان - فيما وراء الانحرافات الثابتة لغريزته - ألا يكتفى باستخدام المواد في هذه الطبيعة الأخرى التي تحيط به وتحتويه وتجبره ، وكان عليه أن يضع مشروعًا يوجه عمله المخاص ، وأن يحدد تنظيمًا لهذا العمل ، وللمجتمع الذي كونه ، وأن يعزى إليه غaiات وأبنية ، ليست مسجلة في قوانين الغريزة الداخلية أو قوانين البيئة الخارجية . هذا الانبعاث للمشروع هو ما يميز جذرًا بين الإنسان والحيوان .

هكذا وبالتالي ، تؤدي كل نزعة تجريبية منظمة بحسب تعبيرات شارل موراس - Charles Maurras منظر الرجعية الأكثر صرامة - إلى الخضوع للأمر القائم ولتطوراته الطبيعية الخطية . وهو ما نجده في كتاب «العناية» لبوسوا Bossuet ، و«التقدم» لكوندورسيه Condorcet ، «وقانون المراحل الثلاث» لأوجست كونت . وتمثل هذه الأعمال ثلاثة تصورات علمانية لنفس الأمر .

إذعان أو تمرد ، تعاون أو مقاومة ، أو نقل بمعطيات حديثة نسبيا ، هذا هو الاختيار الحيواني ، وكل فلسفة لا تساعدنا على القيام بهذا الاختيار ، ليست إلا أيديولوجيا لتسويغ ما هو موجود ، أو لما سيصير إليه الحال بدوننا ، مثل تزايد الإنتاج والاستهلاك .

هذا الاختيار هو ما أردنا اقتراحه من خلال جهودنا لتفصير الفلسفات حسب الاقتضاءات التاريخية للمسطرين أو المسيطر عليهم . المسطرون يرون سيطرتهم باسم التجريبية أو باسم العقل الخالد ، والمسيطر عليهم لهم حق الاختيار بين قبول هذه

الرؤى أو التمرد عليها، والرهان على مستقبل لا يكون مجرد نتيجة للماضي وكأنه قدر إلهي أو مجرد انحرافات آلية في حتمية لاپلاسية (*) Laplacien.

ضد حصار كلمة «هو هكذا»، نبقي على هذا الاختيار الذي كان اختيار جراسكوس بابوف Gracchus Babeuf (**). عندما كتب عشية موته على المقصولة التي أرسلته إليها حكومة الديكتاتور في 18 من مايو عام 1797، يقول مخاطبا صديقه فليكس لوبيلتيري Félix Lepelletier: «يوماً ما عندما يتباطأ الأضطهاد، ربما عندما يمكن للبشر الآخيار أن يتفسوا بحرية تمكنهم من إلقاء بعض الأزهار على قبرنا، وعندما نصل إلى التفكير من جديد في الوسائل التي تتيح للنوع الإنساني السعادة التي أردناها له، يمكنك أن تبحث، وتقدم للجميع، هذه الشذرات التي تحتوى على كل ما يطلق عليه الفاسدون اليوم مجرد «أحلام» .

٢٠ من مايو عام ١٩٩٨

(*) نسبة إلى لاپلاس (1749 - 1827) رياضي وفيزيائي وعالم فلك من العلماء الفرنسيين، استطاع أن يطور نظرية نيوتن وأن يضع النظرية التحليلية للاحتمالات، وينسب إليه قانون لاپلاس في الرياضة.

(**) بابوف: (1760 - 1797) ثوري فرنسي، وضع نظاماً للشيوعية وللمساواة بين البشر، أدين على أثره وحكم عليه بالإعدام.

هوامش الكتاب

- ١ - انظر كتابي، les Etats-Unis avant-garde de la décadence 1997، والذى ترجم إلى العربية في دار الشروق (Ed. Vent du large) بعنوان «أمريكا طليعة الانحطاط».
- ٢ - بيانات فرنسا الإحصائية.
- ٣ - Susan Georges, jusqu'au cou, (Ed. de la découverte, P.39).
- ٤ - انظر حول هذا التدليس الكتاب المهم للأب جوستافو جوتيريز Gustavo Gutiérrez (كاتب من بيرو من كتاب (لاهوت التحرير) الله أو ذهب الهند الغربية .
- Dieu au l'or des Indes occidentales, (Ed, le Cerf, 1992).
- ٥ - بعد مضي نصف قرن ، المقارنة ما زالت مدهشة ، معونة مادية واقتصادية وعسكرية مكثفة منحت لصدام حسين الذى اعتبر بدوره حاجزاً ضد إمبراطورية الشر الجديدة: الإسلام. وبعد فشله ، تم تشكيل حلف بزعامة الولايات المتحدة لتدمير هتلر الجديد. وهذا يبين استمرارية مشروع المركزية الغربية فى مرحلة الانشطار الثالث التى فصلناها فى هذا الكتاب.
- ٦ - كل المراجع تجدونها فى كتابي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية».

٧- المذكورة ٢٠٠، حول الأمان القومي، قد تم إخراجها من السرية في ٦ من يناير عام ١٩٩٠ وهو ما يعني أنه يمكن الإطلاع عليها في دار الوثائق القومية بالولايات المتحدة في واشنطن.

٨- انظر في هذا الموضوع كتاب بول ماري دولاجورس Paul Marie Une guerre inconnue, (Ed flam- de la Gorce marion, 1955, p 49 à 160)

٩- المصدر ببرنامج الأمم المتحدة للتنمية، PNUD تقرير عام ١٩٩٢.

١٠- إن التفاوت البشع في المرتبات يوحى بهذا الانشطار في المجتمع، فهناك عشرون صاحب عمل في فرنسا يكسب كل منهم أكثر من مليون فرنك في الشهر أي أكثر مما يكسبه عامل عادي خلال عشر سنوات من العمل، من بينهم چان لوك لا جارديـ Jean Luc La gardére مدیر شركة ماترا - هاشيت Matra-Hachette وهي من أعمدة الفكر الأحادي، وچى دي جواى Guy Dejouany رئيس شركة المياه ، وسيرج تشوروك Serge Tchuruk مدیر شركة الکاتل Alcatel ، ولیـشـی لانج Levy Lang رئيس بنك پاريسا Paribas ، وكلود بـیـبر Claude Bebear ، رئيس شركة أكسا Axa ، ولويس چيرشتاين Louis Gerstein ، رئيس شركة IBM ، والأكثر غموضا چاك كالفيـ Jacques Calvet المدير العام لشركة پـیـچـو ، والذى كان يرفض في العام الماضى أن يعطى للعمال أي علاوة في المرتب لأن ذلك سيجعل الشركة في خطر، في حين أن مرتبه هو قد ارتفع بمعدل ٤٦٪ في مدى سنتين وكان يصرح بأن مرتبات المديرين لا يقبلها ولا يتفهمها عمال القاعدة ٦٦ . Le Nouvel Observateur: 4 octobre 1995.

وعدد كبير من هؤلاء السادة ومن على شاكلتهم قد حقت معهم
النيابة العامة بتهمة إهدار المال العام مثل پير سوارد Pierre Suard
رئيس شركة الكاتيل وبينو فالنسينيل رئيس شركة
شنايدر Schneider .

وعلى المستوى الدولي يأتي في المقدمة ميشيل آيسنر Michael Eis-
ner مدير عام شركة والت ديزنى Walt Disney أكبر شركة لمعاداة
الثقافة وغسيل مخ الأطفال ، وبعده مدير عام كوكاكولا ثم
بعدهما بوبير مارك Buber Mark مدير كوجيت - بالموليف حيث
يربح كل منهم أكثر من عشرة ملايين دولار في السنة .

ومع ذلك يصرح لنا المعهد القومي للإحصاء بأنه في مارس عام
١٩٩٧ ، هناك ١٠٪ من الفرنسيين يعيشون تحت خط الفقر ،
فهناك ٥ ملايين (وإحصائيات أخرى تقول ٨ ملايين)
ضحايا لل الفقر .

وهذا أولاً بسبب البطالة التي تصل إلى ١٢٪ من جملة السكان
في سن العمل . ولكن هذا الرقم يخفى واقعاً أكثر قسوة ، هو
المرببات العابرة الناتجة عن العمل المؤقت (والعمل المؤقت هو
المنهج الأمريكي في إنخفاء عدد العاطلين) .

وعدد «مطاعم الصدقة» Restaurents du coeur التي تسمح
لآلاف الفرنسيين أن يأكلوا وجبة على الأقل كل يوم قد ازداد
في الوقت الذي حقق فيه المضارعون في البورصة أرقاماً هائلة
وفي الوقت الذي تؤكد فيه الصحافة أن حالة الاقتصاد
الفرنسي مطمئنة .

وفي عام ١٩٩٠ كان هناك في الولايات المتحدة مليونان ونصف
المليون من الأغنياء الذين يحصلون على دخول معادلة لدخول

مائة مليون من الفقراء في نفس البلد (مكتب ميزانية الكونغرس، 1999).

١١ - انظر باللغة الفرنسية، «التعليم : ممارسة للحرية» L'Éducation: pratique de la liberté (Ed. Cerf. 1978) و «تربية المضطهدين» . Pédagogie des opprimés (Ed. Maspéro 1974)

١٢ - انظر كتابه Lettres à la Guinée Bisseau sur l'alphabetisation «رسائل لغينيا بيساو حول محو الأمية» (Ed. Maspéro, 1974).

١٣ - هذه النصوص التي استقىتها من مصادرها (في المكتبة الوطنية) نشرت عام ١٩٧٧ في كتابي «من أجل حوار الحضارات» و«الغرب عابر» Pour un dialogue des civilisations. L'occident est un accident. (Ed. Denoel p. 53 à 65) وفي «الملفات التربوية» Dossiers pédagogiques حيث قمت بتجميع جميع الوثائق المتعلقة بتدلیسات تاريخية أخرى وخصوصاً أسباب الحرbin العالميين.

١٤ - انظر كتابي «فلسطين أرض الرسالات المقدسة» La Palestine terre des messages divins (Ed. Albatros 1986). بالعبرية والفرنسية لهذا البرنامج في «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» (Ed, Samizdat 1996).

١٥ - لأنهم لم يستطيعوا أن يجعلوا: ما هو عدل قوياً، فقد جعلوا ما هو قوى عدلاً. (پاسکال - خواطر - الجزء الخامس، ٢٩٨) (Pascal, pensées, V, 298).

١٦ - انظر المرجع السابق ص ٤٩.

١٧ - بالطبع كما حدث مع كتابي لم يكن هناك أى نقد موضوعي للمسلسل ، فالمسلسل حدث له ما حدث معى من إدانة .

(أ) المخرجة رومي فايس - بروكوفيتش Romit Weiss - Berkowitz تلقت مكالمات مجهرة تهددها بالموت من نوع «سنقتلك يا يسارية يا مناصرة العرب»، مشابهة لما تلقته من مكالمات : «لن يمر عليك الريّح ، سنقتلك حيث لا تتوقع».

(ب) وزيرة الإعلام في حكومة نتنياهو ، السيدة ليثور ليثنا Livnat ، طلبت منع الفيلم مع اعترافها بأنها لم تراه . (كما أن نقاد كتابي لم يقرءوه) ولكنها لم تنجح في منعه ، فقررت ألا يرى ابنها البرنامج ، لأنها لا تسمح بأن تعرض موقف العسكري المضاد ، بالضبط كما خضعت أنا لحكم نتيجة لأسباب رفضتها محكمة الاستئناف فيما بعد عام ١٩٨٧ .

١٨ - في حين أنه في نفس الفترة ، كانت الأعمال الفلسفية للفيلسوف المعاصر لهنري لوفيفر Henri Lefévre مثبتة على قائمة أوتو Otto ، قائمة الكتب المحظورة بواسطة النازى .

١٩ - الأب چونزاليز فاوس Le Père Gonzalez Faus ، كتب في عام ١٩٩٢ في كتاب (الصعود ليسوع) (ACCESSO A JÉSUS) : «الله الذي يبشر به يسوع ليس هو إله العهد القديم» . P102 .

إيتيل برت شتوفر Ethelbert Stauffer: «يسوع وتاريخه» ١٩٦٠ ، يعلن يسوع عن رسالة جديدة للرب ، دين جديد وأخلاق جديدة ليس لها أي صلة بالتوراة .

هذه المبادئ لا شبيه لها في التعاليم اليهودية . وفي هذه النقطة تظهر أصلالة تعاليم يسوع حول مملكة الرب . p.46 (شارلز هارولد Charles Harold Dodd: Les paraboles دود: مبادئ مملكة الرب) du royaume de Dieu

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة.....
١٠٤-١٥	الجزء الأول، ما أخطار التهلك في القرن العشرين
٢٣	الفصل الأول : كوكب مريض وعالم متتصدع.....
٢٧	الفصل الثاني: التبادلات غير المتكافئة.....
٥٣	الفصل الثالث: الغرب طارئ شطر العالم إلى ثلاثة أشطر.....
٦٥	الفصل الرابع : هتلر كسب الحرب.....
٢٧٦-١٠٥	الجزء الثاني، كيف تبني الوحدة الإنسانية لمنع اتحار الكوكب
١٠٧	الفصل الأول : بواسطة تحول في الاقتصاد.....
١٢٣	الفصل الثاني: بواسطة تحول في السياسة.....
١٤٥	الفصل الثالث : بواسطة تحول في التعليم.....
٢٣٥	الفصل الرابع : بواسطة تحول للإيمان.....
٢٧٧	الخاتمة.....
٢٨٩	هوامش الكتاب.....
٢٩٥	المحتويات.....

**رقم الإيداع ٩٩/١٥٨٢٩
الترقيم الدولي ٤ - ٥٨٤ - ٠٩ - ٩٧٧**

مطبوع الشرف

القاهرة : ٨ شارع سفيونه المصري - ت. ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
لبنان : ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)

كيف تفهم المستقبل؟

يسعى هذا الكتاب لأن يقدم نسخة إيجابية عن هذا السؤال،
كما يذكر سالم العادل العذري والمعزري، بحسب لا يزال
يحيى العادل

عليها إلا مستويون يتأملون المهمة بمحنة تعيش قلقاً تأجلاً
عن مرحلة الازمة، انتقد العرب فيها أنه الشكل الوحدة
الانسانية للعمارة، فالعرب، في المعتقد، ينادون على
العالم سيرك.

يسعى ابن سبعين المختلة التي بدأها واحداً فقط
في المسار، والكرامة المستباحة التي أورثت عليهما ملايين
الطلارات العرب تؤدي إلى عالم متصلع

ذلك الذي حمل يعاداته، وبهذا الصورة ذاته، لكن
سلفه يستيقظ وحده، يالله من مشروع مجهولون انتم، ولكن
لا يغرنكم الشرف فهو في الحقيقة خارجاً ليس بحكمه المكتوم
إلى هنا الباري



دار الشرق

مقرها بيروت - مطبوعاتها توزع في كل بلدان العالم العربي - مطبعة دار
الشرق - العنوان: ٢٣ شارع طه حسين - تليفون: ٠١٤٧٦٣٣٤٤ - فاكس: ٠١٤٧٦٣٣٥٨
رسالة: ٠١٤٧٦٣٣٤٩ - البريد الإلكتروني: darsharq@arabnet.com - الموقع الإلكتروني: www.darsharq.com

To: www.al-mostafa.com